سورة النمل

مكية، وهي أربع وتسعون آية، وألف ومائة وتسع وأربعون كلمة، وأربعة آلاف وسبعمائة وسبع وستون حرفاً.

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. طس} أي هذا مسمى بطس {تِلْكَ} أي تلك السورة {ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَٰبٍ مُّبِينٍ}، أي مظهر للحكم والأحكام وأحوال الآخرة.
وقرأ ابن أبي عبلة برفع «كتاب مبين». {هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ}، هما حالان من آيات، أي هادية إلى الله ومبشرة بالوصول إلى الله بهدايته للمصدقين بتلك الآيات أو بدلان منها، أو خبران آخران لتلك كما قال تعالى: «ألا من طلبني وجدني من طلبني بدلالات القرآن وجدني بالعيان». {ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ} أي يأتون بالصلوات الخمس بشروطها ووضعها في حقها. {وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ} أي يعطونها بشرائطها {وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} أي هؤلاء هم الموقنون بالآخرة حق الإيقان لا من عداهم، لأن تحمل مشاق العبادات لخوف العقاب ورجاء الثواب. {إِنَّ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ} بأن خلقنا في قلبه العلم بما فيها من المنافع واللذات ولا يخلق في قلبه بما فيها من المضار والآفات، {فَهُمْ يَعْمَهُونَ} أي ينهمكون فيها {أُوْلَٰئِكَ} أي الموصوفون بعدم الإيمان بما في الآخرة وبالعمد في الأعمال {ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ} وهو عمي القلوب وصممه وبكمه، {وَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ} أي أشد الناس خسراناً لفوات الثواب واستحقاق العقاب، ولأنهم خسروا الدنيا والآخرة ولم يربحوا المولى وذلك لأن قوماً من المختصين بتوفيق من الله يحبهم ويحبونه قد خسروا الدنيا والآخرة بتركهما وعدم الالتفات إليهما في طلب المولى، فربحوا المولى. فلهذا لمّا وجد أبو يزيد في البادية قحف رأس مكتوبا عليه خسر الدنيا والآخرة بكى وقبّله وقال هذا رأس صوفي. {وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ}، أي وإنك يا أشرف الخلق لتؤتى القرآن من عند ذات مصيب في أفعاله لا يفعل شيئا إلا على وفق علمه. عليم بكل شيء سواء كان ذلك العلم مؤدياً إلى العمل أو لا. وقال بعضهم: أي إنك جاوزت حد كمال كل رسول فإنهم كانوا يتلقون الكتب بأيديهم من يد جبريل، والرسالات من لفظه وحياوانك تلقى حقائق القرآن من عند الله تعالى، وإن كنت تلقى القرآن بتنزيل جبريل على قلبك، فالله تعالى علمك حقائق القرآن بأن جعلك بحكمته

مستعداً لقبول فيض القرآن بلا واسطة. وهو أعلم حيث يجعل رسالته {إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لأَهْلِهِ} أي زوجته بنت شعيب حيث تحيَّر في الطريق عند مسيره من مدين إلى مصر {إِنِّيۤ آنَسْتُ نَاراً} أي أبصرتها {سَـأَاتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ} يعرف به الطريق {أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ}. وقرأ الكوفيون بتنوين شهاب، فالقبس بدل منه أو صفة له، أي بشعلة نار مأخوذة من أصلها. والباقون بالإضافة أي بشهاب من قبس {لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} أي لكي تدفأوا بها.

{فَلَمَّا جَآءَهَا} أي تلك التي ظنها موسى ناراً {نُودِىَ} من قبل الله تعالى: {أَن بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا} أي بورك من في مكان النار وهي البقعة المباركة ومن حول مكانها، ويدل عليه قراءة أبيّ «تباركت الأرض ومن حولها». وعنه أيضاً «بوركت النار». وقيل: المراد بمن في النار هو موسى عليه السلام لقربه منها، ومن حولها الملائكة، أي نودي ببركة من النار أي بتطهيره مما يشغل قلبه من غير الله، وتخليصه للنبوة والرسالة أي ناداه الله تعالى بأنا قدَّسناك واخترناك للرسالة، وهذه تحية من الله تعالى لموسى وتكرمة له. {وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ} وهو من كلام الله مع موسى نزه الله تعالى نفسه عما لا يليق به في ذاته وحكمته ليكون ذلك مقدمة في صحة رسالة موسى عليه السلام وإعلاماً بأن ذلك الأمر مكونه رب العالمين، ولدفع ما قد يتوهمه موسى بحسب الطبع البشري الجاري على العادة الخلقية من أن الله المتكلم به في مكان أو في جهة. ومن أن الكلام الذي يسمعه موسى في ذلك المكان بحرف وصوت حادث ككلام الخلق، وقد علم موسى عليه السلام أن النداء من الله لما دل على ذلك من أن النار كانت مشتعلة على شجرة خضراء لم تحترق. {يٰمُوسَىٰ إِنَّهُ} أي إن مكلمك {أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} أي أنا القوي القادر على ما يبعد من الأوهام، كقلب العصا حية، وأمر اليد الفاعل ما أفعله بحكمة بالغة و«أنّا» خبر «إنَّ» و «الله» بيان له و «العزيز الحكيم» صفتان «لله»، ممهدتان لما أراد الله أن يظهره على يد موسى عليه السلام من المعجزات {وَأَلْقِ عَصَاكَ} عطف على «بورك»، فكلاهما تفسير ل «نودي»، فألقاها فانقلبت حية كبيرة جداً تسعى، فأبصرها متحركة بسرعة واضطرب، {فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ} أي تضطرب في تحركها {كَأَنَّهَا} أي العصا {جَآنٌّ} أي حية صغيرة في سرعة الحركة {وَلَّىٰ مُدْبِراً} أي هرب موسى منها مدبراً {وَلَمْ يُعَقِّبْ} أي لم يلتفت إليها من خوفها لظنه أن ذلك لأمر أريد به ولذلك قال تعالى: {يٰمُوسَىٰ لاَ تَخَفْ} منها {إِنِّى لاَ يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ} في حالة الإيحاء والإرسال، ولا يخاف من

الملك العدل إلا ظالم كما قال تعالى: {إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوۤءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ} أي لكن من ظلم، ثم عمل حسناً بعد سوء، فإني غفور رحيم وهذا تعريض لطيف بما وقع من موسى عليه السلام من وكزه القبطي. وجعل الأخفش والفراء وأبو عبيدة «إلا» حرف عطف بمنزلة الواو، وفي التشريك في اللفظ. والمعنى: وقرىء «ألا من ظلم» بحرف التنبيه، و «من» شرطية وجوابها «فإني غفور رحيم». {وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ} أي في إبطك وكان له عليه السلام مدرعة صوف لا كم لها {تَخْرُجْ بَيْضَآءَ} لها إشراق {مِنْ غَيْرِ سُوۤءٍ} أي آفة {فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ} وقوله: {سُوء فِى تِسْعِ} متعلق بمحذوف حال أخرى من ضمير «تخرج»، أي حال كون اليد مندرجة في جملة تسع آيات. وقوله: {إِلَىٰ فِرْعَوْنَ} متعلق بمحذوف حال من فاعل أدخل أي حال كونك مرسلاً بها إلى فرعون والظاهر أن قوله: {إِلَىٰ فِرْعَوْنَ} متعلق بمحذوف حال من فاعل أدخل أي حال كونك مرسلاً بها إلى فرعون والظاهر أن قوله: {إِلَىٰ فِرْعَوْنَ} متعلق بمحذوف حال من فاعل ألق وأدخل وإن قوله: {فِى تِسْعِ} متعلق بمحذوف حال من مفعولهما، أي ألق وأدخل، أي حال كون العصا واليد مع جملة الآيات التسع، فإن الآيات إحدى عشرة: العصا واليد والفلق، والطوفان والجراد، والقمل والضفادع، والدم والطمسة، والجدب في بواديهم والنقصان في مزارعهم، وحال كونك مبعوثاً إلى فرعون والقبط. {إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَـٰسِقِينَ} أي خارجين من ربقة الانقياد لأمري والعبودية لألوهيتي {فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا} على يد موسى عليه السلام {مُبْصِرَةً} كل من ينظر إليها ويتأمل فيها، هادية إلى الطريق الأقوم.

وقرأ علي بن الحسين وقتادة مبصرة بفتح الميم، والصاد أي مكاناً يكثر فيه التبصر. {قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ} أي هذا الذي أتى به موسى خيال لا حقيقة له، واضح في أنه خيال {وَجَحَدُواْ بِهَا} أي كذبوا بتلك الآيات بألسنتهم {وَ ٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ} أي وقد علمتها قلوبهم علماً يقيناً أنها حق. {ظُلْماً وَعُلُوّاً} حال أخرى من الواو في جحدوا، أو علة للجحد، أي ظالمين للآيات حيث سموها سحراً وحطوها في رتبتها الرفيعة، ومترفعين عن الإيمان بها أو جحدوا بها للظلم للآيات وللتكبر عنها. وقرىء «عُلياً»، و «عِلياً» بالضم والكسر كما قرىء «عتياً» {فَ ٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ} من إغراقهم في البحر على الوجه الهائل الذي هو عبرة للعالمين.

{وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْماً} أي أعطينا كل واحد منهما جزءاً من العلم لائقاً به من علم الحكم والسياسة ومختصاً به كعلم داود صنعة لبوس، وتسبيح الجبال، والطير، وعلم سليمان سائر نطق الطير والدواب. {وَقَالاَ} شكراً لما أعطيناه من العلم { ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا} بما أعطانا من العلم {عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ} ممن لم يؤت علماً مثل علمنا. وفي هذا دليل على فضل العلم وشرف أهله، وتحريض للعالم بأن يحمد الله تعالى على ما أعطاه من العلم، ويعتقد أنه قد فضل عليه كثير وإن فضل على كثير فلا يفتخر ولا يتكبر وإن يشكر الله تعالى في أنه ينفع بعلمه المسلمين، {وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُودَ} أي ملكه بأن قام مقامه فيه دون سائر أولاده، وكان لداود تسعة عشر ابناً، وزيد له تسخير الريح والشياطين. وداود أشد تعبداً من سليمان. وروي أن سليمان أعطي هذا الملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، أما داود فقد عاش مائة سنة. {وَقَالَ} سليمان لبني إسرائيل على جهة الشكر لنعم الله تعالى وللتنويه بها. {يٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ} وهذه النون يقال لها: نون الواحد المطاع، وكان سليمان عليه السلام ملكاً مطاعاً لا يتكبر، وقد يتعلق بتعظيم الملك مصالح، فيصير ذلك التعظيم واجباً.

روي عن كعب الأبار رضي الله عنه أن سليمان عليه السلام أخبر عن منطق جملة من الطيور: الورشانة: تقول: لدوا للموت، وابنوا للخراب. والفاختة: تقول: ليت ذا الخلق لم يخلق. والطاوس: يقول: كما تدين تدان. والهدهد: يقول: من لا يرحم لا يرحم. والصرد: يقول: استغفروا الله يا مذنبين؛ وهو الذي دل آدم على مكان البيت، ومن ثمَّ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلِه. والطيطوي: يقول: كل حي ميت وكل جديد بال. والخطاف: يقول: قدموا خيراً تجدوه؛ وهو الذي آنس الله آدم به بعد خروجه من الجنة فهي لا تفارق بني آدم أنسالهم. والحمام: يقول: سبحان ربي الأعلى. والغراب: يدعو على العشار فكان يقول: اللهم العن العشار. والحدأة: تقول: كل شيء هالك إلا الله. والقطاط: تقول: من سكت سلم. والبغبغان: وهي الدرة تقول: ويل لمن الدنيا همه. والقمرى: يقول: سبحان ربي العظيم المهيمن. والباز: يقول: سبحان ربي العظيم وبحمده. والعقاب: يقول: في البعد عن الناس أنس. والديك: يقول: ذكروا الله يا غافلين. والنسر: يقول: يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت.

{يٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ} أي أعطينا شيئاً كثيراً. وكان له عليه السلام ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة

منكوحة وسبعمائة سرية، وقد نسجت له الجن بساطاً من ذهب وابريسم فرسخاً في فرسخ، وكان يوضع منصته في في وسطه، وهو من ذهب، فيقعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة، فيقعد الأنبياء عليهم السلام على كراسي الذهب، والعلماء على كراسي الفضة، وحولهم الناس، وحول الناس الجن والشياطين، وحولهم الوحش، وتظله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس، وترفع ريح الصبا البساط، فتسير به مسيرة شهر، فأوحى الله إليه وهو يسير بين السماء والأرض: إني قد زدت في ملكك أن لا يتكلم أحد بشيء إلا ألقته الريح في سمعك فيحكى أنه مر بحراث فقال: لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً فألقته الريح في أذنه فنزل ومشى إلى الحراث وقال: إنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه، ثم قال لتسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير مما أوتي آل داود {إِنَّ هَٰذَا} أي التعليم والإعطاء {لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ} أي الذي لا يخفى على أحد. وقصده عليه السلام بذلك القول: الشكر والحمد، أي أقول هذا القول شكراً لا فخراً. {وَحُشِرَ لِسْلَيْمَٰنَ جُنُودُهُ} أي جمع له بقهر وإكراه بأيسر أمر عساكره {مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنْس وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} أي يمنعون من التقدم في السير حتى يجتمعوا ليكون مسيره عليه السلام مع جنوده على ترتيب.

وروي عن كعب الأحبار أنه قال: كان سليمان عليه السلام إذا ركب حمل أهله وخدمه وحشمه، وقد اتخذ مطابخ ومخابز فيها تنانير الحديد والقدور العظام تسع كل قدر عشرة من الإبل، فيطبخ الطباخون، ويخبز الخبازون. وهو بين السماء والأرض. واتخذ ميادين الدواب فتجري بين يديه والريح تهوي، فسار من اصطخر يريد اليمن فسلك على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما وصل إليها قال سليمان: هذه دار هجرة نبي يكون آخر الزمان، طوبى لمن آمن به وطوبى لمن اتبعه. ولما وصل مكة رأى حول البيت أصناماً تعبد، فجاوزه سليمان، فبكى البيت، فأوحي إليه ما يبكيك؟ قال: يا رب أبكاني إن هذا نبي من أنبيائك ومعه قوم من أوليائك مروا عليَّ ولم يصلوا عندي، والأصنام تعبد حولي فأوحى الله تعالى إليه: لا تبك فإني سوف أملأك وجوهاً سجداً، وأنزل فيك قرآناً جديداً، وأبعث منك نبياً في آخر الزمان أحب أنبيائي إلي، وأجعل فيك عماراً من خلقي يعبدونني، أفرض عليهم فريضة يحنون إليك حنين الناقة إلى ولدها، والحمامة إلى بيضها، وأطهرك من الأوثان وعبدة الشيطان. ثم ساروا {حَتَّىٰ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِى ٱلنَّمْلِ} وهو واد بالشام كثير النمل: على ما قاله

مقاتل وقتادة، وبالطائف: على ما قاله كعب؛ وهو نمل صغار على المشهور. {قَالَتْ نَمْلَةٌ} قولاً مشتملاً على حروف وأصوات، وكانت عرجاء، ذات جناحين، وهي من الحيوانات التي تدخل الجنة، فسمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال؛ ويقال لها: منذرة وقيل: اسمها حرمياً. وقيل: ظاخية. وقيل: عيجلوف {يٰأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسٰكِنَكُمْ} أي جحركم {لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمٰنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} أي لا تبرزوا فيدوسنكم سليمان وجنوده في حال كونهم لا يشعرون بدوسهم لكم لاشتغالهم بما هم فيه من أحوال السير، وكأنهم أرادوا النزول عند الوادي، لأنه دامت الريح تحملهم في الهواء لا يخاف دوسهم.

{فَتَبَسَّمَ ضٰحِكاً مِّن قَوْلِهَا} أي تعجباً من قول النملة بفصاحتها واهتدائها إلى تدبير مصالح بني نوعها، وسروراً بما آتاه الله من سمعه كلامها، وفهمه بمعناه وبشهرة حاله وحال جنوده في باب التقوى والشفقة فيما بين أنواع المخلوقات. {وَقَالَ} سليمان: {رَبِّ أَوْزِعْنِيۤ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ} أي اجعلني أكف شكر نعمتك عندي عن أن ينقلب عني، حتى أكون شاكراً لك أبداً أو وفقني لأن أؤدي شكر نعمتك {ٱلَّتِيۤ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ}؛ هما داود وأم سليمان، وهي في الأصل زوجة أوريا التي امتحن الله بها داود عليه السلام. {وَأَنْ أَعْمَلَ صٰلِحاً تَرْضٰهُ} لأن العمل الصالح قد لا يرضاه المنعم لنقص في العامل كما قيل: إذا كان المحب قليل حظ فما حسناته إلا ذنوب {وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ} إبراهيم وإسحاق ويعقوب ومن بعدهم من النبيين كما قاله ابن عباس لأن الصالح الكامل هو الذي لا يعصي الله تعالى ولا يهمّ بمعصية أثبت اسمي في أسمائهم، واحشرني في زمرتهم. {وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ} أي بحث أحوال الطير فلم ير الهدهد فيما بينها، أي نزل سليمان منزلاً واحتاج إلى الماء فطلبوه، فلم يجدوه فطلب الهدهد ليدل على الماء، لأنه يعرف موضع الماء قربه وبعده فينقر الأرض، ثم تجيء الشياطين فيحفرونها ويستخرجون الماء في ساعة يسيرة. {فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ} اسمه عنبر كما أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أي ما لي لا أراه لساتر ستره، أو لسبب آخر ثم ظهر له أنه غائب فانتقل عن ذلك الكلام فقال: {أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ}؟ فتقدر «أم» ب «بل» أو بالهمزة، أو بهما.

روي أن سليمان عليه السلام لما فرغ من بناء بيت المقدس تجهز للحج فوافى الحرم وأقام به ما شاء، وكان ينحر في كل يوم طول مقامه فيه خمسة آلاف ناقة، وخمسة آلاف بقرة وعشرين

ألف شاة، ثم عزم على السير إلى اليمن، فخرج من مكة صباحاً فوافى صنعاء وقت الزوال، فرأى أرضاً حسناء أعجبته خضرتها فنزل بها ليتغدى ويصلي، فلم يجد الماء فتفقد الهدهد؛ وكان حين اشتغل سليمان بالنزول ارتفع نحو السماء، فنزل إلى بستان بلقيس فإذا هو بهدهد آخر، وكان اسم هدهد سليمان: يعفور؟ وهدهد اليمن: عفير. فقال عفير ليعفور: من أين أقبلت؟ قال: أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود. قال: ومن سليمان؟ قال: ملك الإنس والجن. والشياطين. والطير. والوحش. والرياح. قال يعفور: ومن ملك هذه البلاد. قال عفير: امرأة يقال لها: بلقيس وإن لصاحبك ملكاً عظيماً ولكن ليس ملك بلقيس دونه، فإنها تملك اليمن وتحت يدها أربعمائة ملك كل ملك على كورة، مع كل ملك أربعة آلاف مقاتل، ولها ثلثمائة وزير يدبرون ملكها، ولها اثنا عشر ألف قائد، مع كل قائد مائة ألف مقاتل. وذهب معه لينظر إلى بلقيس وملكها فما رجع يعفور إلا بعد العصر، فلما دخل العصر سأل سليمان الإنس والجن والشياطين عن الماء فلم يعلموه فتفقد الهدهد، فلم يره فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عن الهدهد فقال: أصلح الله الملك ما أدري أين هو وما أرسلته إلى مكانٍ فغضب سليمان عند ذلك وقال: {لأُعَذِّبَنَّهُ} بسبب غيبته فيما لم آذن فيه {عَذَاباً شَدِيداً} بنتف ريشه، فهذا عذاب الطير {أَوْ لاَّذْبَحَنَّهُ} بالسكين ليعتبر به أبناء جنسه، {أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} أي إلا أن يأتيني بحجة تبيّن عذره فلا أذبح ولا أعذب، ثم دعا العقَّاب وهو أشد الطير طيراناً فقال له: علي بالهدهد الساعة، فارتفع العقَّاب في الهواء، فالتفت يميناً وشمالاً فرأى الهدهد من نحو اليمن، فانقض العقَّاب نحوه يريده، وعلم الهدهد أن العقَّاب يقصده بسوء فقال: بحق الله الذي قواك وأقدرك علي إلا ما رحمتني ولم تتعرض لي بسوء، فتركه العقَّاب وقال له: ويلك إن نبي الله قد حلف أن يعذبك، أو يذبحك، فطارا متوجهين نحو سليمان، فلما انتهى إلى العسكر تلقاه النسر والطير فقالوا له: ويلك أين غبت في يومك هذا؟ فلقد توعدك نبي الله. وأخبروه بما قال سليمان. فقال الهدهد: أوما استثنى نبي الله فقالوا: بلى إنه قال: أو ليأتيني بسلطان مبين فقال: نجوت إذاً ثم طار العقَّاب والهدهد حتى أتيا سليمان وكان قاعداً على كرسيه. فقال العقَّاب: قد أتيتك به يا نبي الله.

{فَمَكَثَ} أي الهدهد {غَيْرَ بَعِيدٍ} أي زماناً غير طويل حتى جاءه. وقرأ عاصم بفتح الكاف. والباقون بضمها. فلما قرب منه

الهدهد رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما تواضعاً لسليمان فلما دنا منه أخذ برأسه فمده إليه وقال له: أن كنت لأعذبنك عذاباً شديداً؟ فقال: يا نبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى. فلما سمع سليمان ذلك ارتعد وعفا عنه، ثم سأله فقال: ما الذي أبطأك عني؟ {فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ} أي علمت ما لم تعلم أيها الملك، وبلغت إلى ما لم تبلغ، {وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ}.

وقرأ أبو عمرو والبزي بفتح الهمزة من غير تنوين، يراد به القبيلة والمدينة والأصل اسم للقبيلة، ثم سميت مدينة مأرب بسبأ، وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام. والباقون بالجر والتنوين اسم للحي سموا باسم أبيهم الأكبر وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وعن ابن كثير في رواية سبأ بالألف {بِنَبَإٍ يَقِينٍ} أي بخبر حق عجيب. {إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ} يقال لها: بلقيس بكسر الباء وهي بنت شراحيل بن مالك بن الريان. وأمها فارعة الجنية كما أخرج عن زهير بن محمد وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها، وورث الملك من أربعين أباً، ولم يكن له ولد غيرها، وكان يقول لملوك الأطراف: ليس أحد منكم كفؤاً لي وأبى أن يتزوج منهم، فزوجوه بامرأة من الجن يقال لها: ريحانة بنت السكن. قيل في سبب وصوله إلى الجن: إنه كان كثير الصيد فربما اصطاد من الجن وهم على صور الظباء، فيخلي عنهم، فظهر له ملك الجن، وشكره على ذلك واتخذه صديقاً، فخطب ابنته فزوجه إياها. {وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ} يحتاج إليه الملوك {وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} أي سرير حسن كبير، طوله ثمانون ذراعاً، وعرضه أربعون ذارعاً وارتفاعه ثلاثون ذراعاً مصنوع من الذهب والفضة، مكلل بالجواهر، وكانت قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر، ودر وزمرد، وعليه سبعة أبيات، على كل بيت باب مغلق {وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا} أي لقيتهم مجوساً {يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ} أي يعبدون الشمس متجاوزين عبادة الله {وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ} أي سبيل الهدى، {فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ} بسبب ذلك {أَلاَّ يَسْجُدُواْ لِلَّهِ} مفعول له للصد أو التزيين على حذف اللام، أي فصدهم لأن لا يسجدوا له تعالى، أو زين لهم أعمالهم، لأن لا يسجدوا بتخفيف اللام. فالأحرف تنبيه واستفتاح، و «يا» بعدها حرف تنبيه أيضاً، أو نداء. والمنادى محذوف تقديره: يا هؤلاء اسجدوا، و «اسجدوا» فعل أمر، فكان حق الخط على هذه القراءة أن يكون «يا اسجدوا»، ولكن الصحابة أسقطوا ألف «يا»، وهمزة الوصل خطأ لما سقطاً لفظاً، ووصلوا الياء بسين «اسجدوا» فاتَّحدت القراءتان لفظاً وخطاً، واختلفا تقديراً، وعلى

هذه القراءة فالوقف على «يهتدون» تام، ولو وقف على «يا» بمعنى: ألا يا هؤلاء، ثم ابتدىء ب «اسجدوا» جاز بخلاف قراءة الباقين بإدغام النون في «لا»، فالوقف على «لا يهتدون» جائز.

وقرأ الأعمش «هلا» وهي حرف، وعبد الله بقلب الهمزة هاء. وقرأ أبي «ألا يسجدون أي لم لا يسجدون لله كما قاله ابن عباس. وعن عبد الله «هلا تسجدون» بمعنى «ألا تسجدون» على الخطاب، و «هلا» يحتمل أن يكون استئنافاً من جهة الله تعالى، أو من سليمان عليه السلام.

قال أهل التحقيق: قوله: {أَن لا يَسْجُدُواْ} يجب أن يكون بمعنى الأمر، لأنه لو كان بمعنى المنع من السجود لم يكن معنى لوصفه تعالى باستحقاق السجود للاتصاف بكونه تعالى قادراً على إخراج الخبء عالماً بكل شيء. { ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ} والجار المجرور متعلق بالخبء أي الذي يظهر المخفي فيهما من المطر والنبات، ومتعلق ب «يخرج» على أن فيه معنى «من» كما قاله الفراء {وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} من الأحوال فيجازيكم بها.

وقرأ الكسائي وحفص بالتاء الفوقية فتأويل قراءة حفص في «ألا يسجدوا» أنه خرج إلى خطاب الحاضرين بعد أن أتم قصة أهل سبأ والخطاب على قراءة الكسائي ظاهر. والباقون بالغيبة لتقدم ضمائر الغيبة في قوله: {أَعْمَٰلَهُمْ} فهم وهي غير ظاهرة. وقرىء «ألا تسجدون لله الذي يخرج الخبء من السماء والأرض، ويعلم سركم وما تعلنون».

{ٱللَّهُ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ} أي فعرش الله عظيم بالنسبة إلى جميع المخلوقات من السموات والأرض وما بنيهما. وقرىء «العظيم» بالرفع على أنه صفة الرب، ولما ذكر الهدهد قصة بلقيس لم يتغير سيدنا سليمان عليه السلام لذلك، ولم يستفزه الطمع لما سمع من ملكها كعادة الملوك في الطمع في ملك غيرهم، فلما ذكر الهدهد عبادة بلقيس وقومها غير الله، اغتاظ سيدنا سليمان وأخذته حمية الدين، وجعل يبحث عن تحقيق. {قَالَ} سليمان للهدهد: {سَنَنظُرُ} أي سنتعرف في مقالتك بالتجربة {أَصَدَقْتَ} فيه {أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ} وفي هذا دليل على أن خبر الواحد لا يثبت العلم، وعلى أن الوالي يجب أن يقبل عذر من في صورة المجرمين إذا صدق في اعتقاده، { ٱذْهَب بِّكِتَابِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ} أي إلى من يعبدون الشمس {ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ} أي تنح إلى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقوله بسمع منك. {فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ} أي تعرف أي شيء يرجع بعضهم

إلى بعض من القول، فأخذ الهدهد الكتاب وأتى به إلى بلقيس، وكانت بأرض مأرب من اليمين على ثلاث مراحل من صنعاء، فوجدها نائمة مستلقية على قفاها وقد غلّقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها، فألقى الكتاب على نحرها وتوارى في الكوة فانتبهت فزعة، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت لأن ملك سليمان كان في خاتمه، فعند ذلك {قَالَتْ} لأشراف قومها: {يٰأَيُّهَا ٱلْمَلأُ} أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أن أهل مشورتها كانوا ثلاثمائة واثني عشر رجلاً {إِنِّيۤ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ} أي لأنه مكرم بختمه، ولغرابة شأنه حيث وصل إليها على غير معتاد، ولحسن ما فيه من كونه مشتملاً على إثبات الصانع، الحي المريد، القادر الرحيم. وعلى النهي عن التكبر، والأمر بالانقياد، ولكونه من عند ملك كريم؛ فقد عرفت أن المرسل أعظم ملكاً منها. {إِنَّهُ} أي إن عنوان الكتاب {مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ} أي إن مضمونه {بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَىَّ} ف «أن» مفسرة، و «لا» ناهية، أي لا تتكبروا علي كما تفعل الملوك.

وقرأ ابن عباس «لا تغلوا» بالغين المعجمة أي لا تترفعوا علي ولا تمتنعوا من الإجابة {وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ} أي مؤمنين. {قَالَتْ يٰأَيُّهَا ٱلْمَلأُ أَفْتُونِى فِى أَمْرِى} أي أجيبوني في أمري الذي حزبني وذكرت لكم خلاصته، {مَا كُنتُ قَّطِعَةً أَمْراً حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ} أي عادتي معكم أن لا أفعل أمراً من الأمور المتعلقة بالملك حتى أحضركم وأشاوركم {قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ} في الأجساد والآلات {وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ} أي شجاعة مفرطة وثبات في القتال.{وَٱلأَمْرُ إِلَيْكِ} أي هو موكول إليك، {فَٱنظُرِى} أي تأملي {مَاذَا تَأْمُرِينَ}، ونحن مطيعون لك فمري بنا بأمرك، ولما أحست منهم الميل إلى الحراب لم ترضَ به لمّا علمت أن من سخّر له الطير على هذا الوجه لا يعجزه شيء يريده. وذلك يدل دلالة بينة على رسالة مرسلها، بل مالت للصلح، ولذلك بينت السبب في رغبتها فيه. {قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً} من القرى على منهاج الحراب {أَفْسَدُوهَا} بتخريب عمارتها وإتلاف ما فيها من الأموال {وَجَعَلُوۤاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً} بالقتل والأسر والإجلاء وغير ذلك من فنون الإهانة. وَكَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ} وهذا من جملة كلامها ذكرته توكيداً لما وصفته من حال الملوك أي إن الذين أرسلوا الكتاب يفعلون مثل الذي تفعله الملوك، فإن ذلك عادتهم المستمرة. {وَكَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ} رسلاً.

{بِهَدِيَّةٍ} عظيمة {فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ}. روي أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجواري، وحليهن الأساور

والأطواق، والقرطة راكبي خيل مغشاة بالديباج، محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع، وخمسمائة جارية على رماك في زي الغلمان، وألف لبنة من ذهب وفضة، وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت المرتفع، وبعثت العود والمسك والعنبر، وحقاً فيه درة عذراء، وجزعة معوجة الثقب. وبعثت رجلاً من أشراف قومها المنذر بن عمر وآخر ذا رأي وعقل، وكتبت مع المنذر كتاباً تذكر فيه الهدية وقالت: إن كان نبياً، ميز بين الغلمان والجواري وأخبركم بما في الحق قبل أن يفتحه، وثقب الدرة ثقباً مستوياً وسلك في الخرزة خيطاً من غير علاج أنس وجن، ثم قالت للمنذر: إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك فلا يهولنك وإن رأيته بشاشاً لطيفاً فهو نبي فانطلق الرسول بالهدايا، فأقبل الهدهد إلى سليمان عليه السلام فأخبره بذلك، فأمر الجن فضربوا لبن الذهب والفضة وفرشوه في ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ، وجعلوا حول الميدان حائطاً شرفاته من الذهب والفضة، وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر مختلفة ألوانها حتى إن لدواب البحر أجنحة وأعرافاً ونواصي، فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبن، وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير أن أقيموا على يمين الميدان ويساره، ثم قعد سليمان على سريره ووضع أربعة آلاف كرسي على جانبيه، واصطفت الشياطين صفوفاً فراسخ والإنس صفوفاً فراسخ، والوحش والسباع والطيور والهوام كذلك، فلما دنا القوم من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان، ورأوا الدواب التي لم يروا مثلها تروث على لين الذهب والفضة بهتوا، وتقاصرت إليهم أنفسهم، ووضعوا ما معهم من الهدايا في ذلك الموضع فلما وقفوا بين يدي سليمان أقبل عليهم بوجه طلق وسألهم عن حالهم، فأخبره رئيس القوم بما جاءوا فيه وأعطاه كتاب الملكة فنظر فيه وقال: أين الحق؟ فأتى به فحركه فجاءه جبريل فأخبره بما فيه فقال سليمان لهم: إن فيه درة ثمينة غير مثقوبة وجزعة، ثم أمر بالأرضة، فأخذت شعرة في فيها ونفذت في الدرة فجعل رزقها في الشجرة فأمر بالدودة البيضاء، فأخذت خيطاً بفيها ونفذت في الجزعة، فجعل رزقها في الفواكه، وأمر الغلمان والجواري بأن يغسلوا وجوههم وأيديهم، فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى، ثم تغسل به وجهها والغلام كما يأخذ الماء يضرب به وجهه، وكانت الجارية تصب الماء على باطن ساعدها، والغلام يصبه على ظهره، فميز عليه السلام بين الغلمان والجواري، ثم رد الهدية كما أخبر الله عنه بقوله: {فَلَمَّا جَآءَ} أي رسول الملكة بلقيس وهو منذر {سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِىَ ٱللَّهُ خَيْرٌ

مِّمَّـآ ءَاتَىٰكُـمْ} أي قـال سـليمان عليـه السـلام مخاطبـاً للرسـول والمرسل: لا ينبغي لكم يا أهل سبأ أن تعـاونوني بالمـال، لأن اللـه تعالى قد أعطاني منه ما لم يعط أحداً، ومـع ذلـك أكرمنـي بـالنبوة والدين {بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ} فالمصدر إمـا مضـاف لفـاعله أي تفرحون بما تهدونه افتخاراً على أمثالكم واعتداداً به من حيـث إنكم قدرتم على إهداء مثله وإما مضاف لمفعوله أي تفرحون بمـا يهدي إليكم حباً في كثرة أموالكم وحـالي خلاف حـالكم، فلا أفـرح بالدنيا من حاجتي. وقيل: بل أنتم بهديتكم هذه تفرحون بأخذها إن ردت إليكم ثم قال للمنذر: { ٱرْجِعْ} أيها الرسول {إِلَيْهِمْ} أي إلى بلقيس وقومها بهديتهم وقيل: الخطاب للهدهد أي ارجع يا هدهـد حاملاً كتابـاً آخـر {فَلَنَـأْتِيَنَّهُم بِجُنُـودٍ لاَّ قِبَـلَ لَهُـمْ بِهَـا} أي فـوالله لنأتينهم بجموع لا طاقة لهم بمقاومتها.

وقرأ ابن مسعود «بهم» بضمير جمع الـذكور {وَلَنُخْرِجَنَّهُـم مِّنْهَآ} أي من سبأ {أَذِلَّةً} أي حـال كـونهم ذليليـن بـذهاب ملكهـم وعزهم {وَهُمْ صَٰغِرُونَ} أي مهانون بوقوعهم فـي أسـر واسـتعباد وبإغلال أيمانهم إلى أعناقهم.

قال ابن عباس: لما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان وأخبروها الخبر قالت: قد عرفت والله ما هذا بملك ولا لنـا بـه مـن طاقة وبعثت إلى سليمان أني قادمة إليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك، ثم أمرت بعرشها فجعل في آخـر سبعة أبيات بعضها في داخل بعض، ثم غلقـت عليـه سـبعة أبـواب وجعلت عليها حراساً يحفظونه، ثم تجهزت للمسير، فارتحلت إلـى سليمان في اثني عشر ألف ملك من ملوكها تحت كل ملك ألـوف. فخرج سليمان يوماً فجلس على سريره، فسمع رهجـاً قريبـاً منـه فقال: ما هذا؟ قالوا: بلقيس وقد نزلت بهذا المكان أي الذي على مسيرة فرسخ مـن سـليمان عليـه السـلام فأقبـل سـليمان علـى جنوده {قَالَ يٰأَيُّهَـا ٱلْمَلأُ أَيُّكُـمْ يَـأْتِينِى بِعَرْشِـهَا} فـأراد سـليمان أن يريها بعض ما خصه الله تعالى من إجراء العجائب على يـده الدالـة على عظيم قدرته تعالى، وعلى صدقه في نبوته، وكان سـليمان إذ ذلك في بيت المقدس، وعرشها في سبأ بلدة بـاليمن وبينهـا وبيـن بيـت المقـدس مسـيرة شـهرين وأن يعـرف مقـدار مملكتهـا قبـل وصــولها إليــه، لأن العــرش ســرير المملكــة {قَبْــلَ أَن يَــأْتُونِى مُسْلِمِينَ} أي مؤمنين، فإنهـا إذا أسـلمت لـم يحـل لـه أخـذ مالهـا {قَالَ عِفْرِيتٌ} أي قوي {مِّنَ ٱلْجِنِّ} كان مثل الجبل يضع قــدمه عند منتهى طرفه. وكان مسخراً لسليمان واسمه: ذكوان. وقيـل: صخر. وقيل: كوزن {أَنَآ ءَاتِيكَ بِهِ} وهو اسـم الفاعـل، أي أنـا آت

بعرشها {قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ} أي من مجلسك للقضاء وكان مجلس قضائه إلى انتصاف النهار {وَإِنِّى عَلَيْهِ} أي على الإتيان به {لَقَوِىٌّ أَمِينٌ} أي لقوي على حمله، أمين على ما فيه من الجواهر واللؤلؤ والذهب والفضة. {قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَٰبِ} المنزل على الأنبياء قبل سليمان كالتوارة.

قال ابن عباس وقتادة: هو آصف بن برخيا كاتب سليمان {أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ}.

قال ابن عباس: إن آصف قال لسليمان حين صلى: مد عينيك حتى ينتهي طرفك. فمد سليمان عينيه ونظر نحو اليمن، ودعا آصف، فبعث الله الملائكة، فحملوا السرير يجدون به تحت الأرض حتى نبع بين يدي سليمان قيل: كان الدعاء الذي دعا به يا حي يا قيوم كما روي ذلك عن عائشة قال بعضهم: أراد سليمان أن يظهر كرامة أمته ليعلم أن في أمم الأنبياء أهل الكرامات لئلا ينكروا من كرامات الأولياء. وقال محمد بن المنكدر: إنما الذي عنده علم هو سليمان نفسه. قال له: عالم من بني إسرائيل أنت النبي بن النبي، وليس أحد أوجه منك عند الله، فإن دعوت الله كان العرش عندك فقال: صدقت، ففعل ذلك، فجيء بالعرش في الوقت.

قال الرازي: وهذا القول أقرب والمخاطب به العفريت الذي كلمه وأراد سليمان عليه السلام إظهار معجزة فغالبه أولاً، ثم بين أنه يتحصل له من سرعة الإتيان بالعرض ما لا يتهيأ للعفريت. قيل: خرَّ سليمان ساجداً ودعا باسم الله الأعظم فغاب العرش تحت الأرض حتى ظهر عند كرسي سليمان وإنما هذا أقرب، لأن سليمان كان أعرف بالكتابة من غيره لأنه نبي وأن إحضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية فلو حصلت لآصف لاقتضى ذلك تفضيله على سليمان، ولو افتقر إليه في ذلك لاقتضى ذلك نقص حال سليمان في أعين الخلق، ولأن ظاهر قوله: {قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَءَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ} يقتضي أن يكون إتيان العرش بدعاء سليمان {فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ} أي رأى سليمان العرش حاضراً لديه {قَالَ} سليمان شاكراً لربه لما آتاه الله تعالى من هذه الخوارق: {هَٰذَا} أي إتيان العرش في هذه المدة القصيرة {مِن فَضْلِ رَبِّى} أي من إحسانه إلي من غير استحقاق له من قبلي {لِيَبْلُوَنِى} أي ليختبرني {أَءَشْكُرُ} فأعترف بكون ذلك فضلاً منه تعالى {أَمْ أَكْفُرُ} بأن أثبت لنفسي تصرفاً في ذلك أو أترك شكراً {وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ} فإن نفع الشكر عائد إلى الشاكر فإنه يخرج عن علقة وجوب الشكر عليه

وأنه يستحق المزيد، وأنه مشتغل بالمنعم. أما المعرض عن الشكر فهو مشتغل باللذات الحسية {وَمَن كَفَرَ} أي ترك شكر النعمة {فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ} عن شكره لا يضره تعالى كفرانه {كَرِيمٌ} أي لا يقطع عنه نعمه بسبب إعراضه عن الشكر.

{قَالَ} سليمان: {نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا} أي غيروا سريرها من هيئة، فزيدوا فيه وانقضوا منه. وروي أنه جعل أعلاه أسفله وجعل مكان الجوهر الأخضر أحمر، وبالعكس، فأراد سليمان عليه السلام اختبار عقلها {نَنظُرْ} بالجزم على أنه جواب الأمر.

وقرىء بالرفع على الاستئناف أي نعلم {أَتَهْتَدِى} أي أتعرف أن ذلك العرش عرشها أو أتعرف الجواب اللائق بالمقام {أَمْ تَكُونُ مِنَ لَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ} أي لا يعرفون ذلك {فَلَمَّا جَآءَتْ} أي بلقيس سليمان: {قِيلَ} لها من جهة سليمان {أَهَكَذَا عَرْشُكِ} أي أمثل هذا عرشك الذي تركته في قصرك وأغلقت عليه الأبواب وجعلت عليه حراساً؟ {قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ} أي كأن عرشي هو هذا. وقال عكرمة: كانت حكيمة لم تقل: نعم، خوفاً من أن تكذب، ولم تقل: لا، خوفاً من التكذيب. فعرف سليمان كمال عقلها حيث لم تقر، ولم تنكر. ولو قيل لها: أهذا عرشك؟ لقالت: نعم، لمعرفتها للعرش {وَأُوتِينَا لْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا} أي وأعطينا العلم بكمال قدرة الله تعالى وصحة نبوتك من قبل هذه المعجزة التي شاهدناها بما سمعناه من رسولنا المنذر من الآيات الدالة على ذلك {وَكُنَّا مُسْلِمِينَ} من ذلك الوقت. وهذا من تتمة كلام بلقيس كأنها ظنت أن سليمان أراد بذلك اختبار عقلها وإظهار معجزة لها {وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ لَّلَّهِ}. وهذا من كلام الله تعالى أي ومنع بلقيس عن إظهار الإسلام عبادتها القديمة للشمس ف «ما كانت تعبد» فاعل «صد» أو أن «ما كان» مجروراً ب «عن» مقدرة، وفاعل «صد» راجع إلى «سليمان»، أي وصرفها سليمان عن الذي كانت تعبده وهو الشمس. {إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ} تعليل لعبادة غيرالله، أي إنها كانت من قوم راسخين في الكفر، ولذلك لم تكن قادرة على إظهار إسلامها وهي بينهم إلى أن دخلت تحت ملك سليمان، أو استئناف أخبر الله تعالى أنها كانت من مجوس يعبدون الشمس فلا تعرف إلا عبادتها. وقرأ سعيد بن جيبر وأبو حيوة بفتح الهمزة على أن هذه الجملة مجرورة بحرف العلة، أو بدل من «ما كان كانت تعبد»، أي ومنعها عن إظهار دعواها الإسلام كونها من قوم كافرين أو وصرفها سليمان عن صيرورتها كافرة. {قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ} أي البلاط المتخذ من زجاج.

روي أن سيدنا سليمان أمر الشياطين قبل قدوم بلقيس بأن يحفروا على طريقها حفيرة ويجعلوا سقفها زجاجاً أبيض شفافاً يضعوا فيها ماء وسمكاً، وضفدعاً وغير ذلك من حيوانات الماء وصار الماء، وما فيه من هذا الزجاج، فمن أراد مجاوزته يمر فوق السطح الذي تحته الماء ولا يمس ه الماء، ومن لم يكن عالماً بالحال يظن هذا ماء مكشوفاً ليس له سقف يمنع من الخوض فيه، ووضع سيدنا سليمان عليه السلام سريره في صدر ذلك السطح، فجلس عليه.

قال وهب ومحمد بن كعب: والسبب في ذلك أن الجن قالوا لسيدنا سليمان: إن في عقل بلقيس شيئاً وإن رجليها كرجلي حمار، وإنها شعراء الساقين. وغرضهم في ذلك تنفيره عن تزوجها لأنهم ظنوا أنه سيتزوجها، وكرهوا ذلك لأن أمها كانت جنية، فخافوا أن تفشي له أسرار الجن، ولأنهم خافوا أن يأتي له منها أولاد فيسخِّرون الجن، فيدوم عليهم الاستخدام والذل، فأراد سليمان عليه سليمان أن يختبر عقلها بتنكير عرشها فإذا فيها ما يدل على كمال رزانة رأيها ورصانة فكرها، وأن ينظر إلى قدميها ببناء ذلك البلاط، لأنه أراد أن ينكحها ليعلم أن ما قالت الجن في حقها صدق أو كذب. {فَلَمَّا رَأَتْهُ} أي رأت ذلك الصرح {حَسِبَتْهُ لُجَّةً} أي ماءً غمراً {وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا} على عادة من أراد خوض الماء لأجل أن تصل إلى سليمان.

قال وهب بن منبه فلما رأت اللجة فزعت وظنت أنها قصد بها الغرق، وتعجبت من كون كرسيه على الماء، ورأت ما هالها، ولم يكن لها بد من امتثال الأمر، فرفعت ثيابها عن ساقيها، فرآهما فإذا هي أحسن النساء ساقاً وقدماً سليمة مما قالت الجن فيها، إلا أنها كانت كثيرة الشعر في ساقيها، فلما علم الحال صرف بصره عنها {قَالَ} عليه السلام حين رأى منها الدهشة والرعب: {إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوارِيرَ} أي إن الذي ظننته ماء سقف مملس من زجاج تحته ماء فلا تخافي واعبري عليه. {قَالَتْ} بعد أن دعاها سليمان إلى الإسلام وقد رأت حال العرش والصرح: {رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى} بالثبات على الكفر فيما تقدم من الزمان. وقيل: بسوء ظني بسليمان أنه يغرقني في اللّجة {وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ} أي ودخلت في دين الإسلام مصاحبة له في الدين، مقتدية به {لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ}. قيل: لما أراد أن يتزوجها وكره شعر ساقيها أمر الشياطين أن يتخذوا النورة والحمام لأجل إزالته، فكانتا من يومئذ، فلما تزوجها سليمان أحبها حباً كثيراً حتى بقيت على نكاحه إلى أن مات عنها، ورزق منها بولد اسمه داود وأقرها على ملكها وأمر

الجن، فبنوا لها بأرض اليمن ثلاثة قصور لم ير الناس مثلها ارتفاعاً وحسناً، وكان يزورها في الشهر مرة ويقيم عندها ثلاثة أيام، وكان يبكر من الشام إلى اليمن ومن اليمن إلى الشام، وانقضى ملكها بانقضاء ملك سليمان، فسبحان من لا يزول ملكه، {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ}، أي فريق مؤمن، وفريق كافر فالذي آمنوا، لأنهم عرفوا صحة حجة صالح فيكونون خصماء لمن لم يقبلها. والاختصام في باب الدين حق وإبطال للتقليد. {قَالَ} صالح للفرقة الكافرة: {يٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ} أي لما توعد صالح للمكذبين بالعذاب فقالوا على وجه الاستهزاء: ائتنا بعذاب الله فعند ذلك قال صالح: يا قوم قد أمكنكم التوصل إلى رحمة الله تعالى، فلماذا تعدلون عنه إلى استعجال عذابه؟ وكانوا لجهلهم يقولون: إنْ صدق إيعاد صالح بنزول العذاب تبنا حينئذ، فحينئذ يدفع الله العذاب عنا وإلا فنحن على ما كنا عليه، فخاطبهم صالح على حسب اعتقادهم وقال: {لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ} أي هلا تطلبون غفران الله قبل نزول العذاب بتوحيد الله وبالتوبة من الشرك {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}؟ بقبوله التوبة، فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشر، وإن قبول التوبة لا يمكن عند نزول العذاب. {قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ} أي تشاءمنا بك وبمن في دينك حيث تتابعت علينا الشدائد من القحط والاختلاف مذ اخترعتم دينكم. {قَالَ} صالح: {طَائِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ} أي السبب الذي منه يجيء شدتكم ورخاؤكم قدره تعالى إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم {بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ} بزينة الدنيا فلا تعرفون قدر نعم الله في حقكم.

وقال ابن عباس: أي أنتم تختبرون بالخير والشر. وقال محمد بن كعب: أي تعذبون {وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ} أي في الحجر {تِسْعَةُ رَهْطٍ} أي أشخاص. قال ابن عباس: أساميهم: رعمي، ورعيم، وهرمي، وهريم، وداب، وصواب، ورباب، ومسطع، وقدار بن سالف عاقر الناقة وأسماؤهم عن وهب قد نظمهم بعضهم في بيتين فقال: رباب وغنم والهذيل ومسطع عمير سبيط عاصم وقدار وسمعان رهط الماكرين بصالح إلا أن عدوان النفوس جوار {يُفْسِدُونَ فِى ٱلأَرْضِ} بالمعاصي {وَلاَ يُصْلِحُونَ} أي لا يمزجون ذلك الفساد بشيء من الصلاح.

{قَالُواْ تَقَاسَمُواْ}، أي قال بعضهم لبعض في أثناء المشاورة في أمر صالح عليه السلام غب ما أنذرهم بالعذاب أحلفوا {بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصٰدِقُونَ}.

وقرأ حمزة والكسائي «لتبيتنه» بتاء فوقية بعد اللام وبالرفع للجمع، و «لتقولن» بتاء فوقية وبالرفع للجمع. وقرأ عاصم «مهلك» بفتح الميم، وحفص بكسر اللام. والباقون بضم الميم مع فتح اللام فقط. والمعنى: أنهم توافقوا وحلفوا بالله: لندخلن على صالح ومن آمن به وهم أربعة آلاف ليلاً بغتة ونقتلهم جميعاً، ثم لنقولن لولي دم صالح: ما حضرنا قتلهم أو وقته أو مكانه فلا ندري من قتلهمْ وإنا لصادقون في إنكارنا لقتلهم. أي لو اتهمنا قوم صالح حلفنا لهم أنا لم نحضر. {وَمَكَرُواْ مَكْراً} بهذه الكيفية {وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} قيل: إنهم خرجوا إلى الشعب وقالوا: إذا جاء صالح يصلي في مسجده قتلناه، ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم، فبعث الله تعالى صخرة، فطبقت فم الشعب عليهم فهلكوا، وهلك الباقون بالصيحة. وقيل: جاءوا بالليل شاهرين سيوفهم وقد أرسل الله تعالى الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة، يرون الأحجار ولا يرون رامياً. {فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ} بصالح {أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ} أي أنا أهلكنا التسعة بالحجارة، وأهلكنا قومهم أجمعين بصيحة جبريل عليه السلام. وقرأ الكوفيون «أنا دمرناهم» بفتح الهمزة إما بدل من «عاقبة» على أنه فاعل «كان»، و «كيف» حال، أي فتفكر في أي وجه حدث تدميرنا إياهم. إما خبر لمبتدأ محذوف، أي هي أي العاقبة تدميرنا إياهم {فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً} أي خالية ساقطة.

وقرأ عيسى بن عمر «خاوية» بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف {بِمَا ظَلَمُواْ} أي ظلمهم بعبادتهم غير الله تعالى {إِنَّ فِى ذَٰلِكَ} أي التدمير العجيب {لآيَةً} أي لعبرة عظيمة {لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} أي يفهمون إشارات القرآن {وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} أي صالحاً ومن معه من المؤمنين {وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} أي المعاصي. وقتل الناقة وهم أربعة آلاف، وخرج صالح بمن آمن معه إلى حضرموت، فلما دخلها مات صالح فسمى حضرموت، ثم بنوا مدينة يقال لها: حاضوراء {وَلُوطاً} منصوب بمضمر معطوف على أرسلنا في صدر قصة صالح، أي وأرسلنا لوطاً {إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ} في «إذا» ظرف للإرسال لما فارق عمه إبراهيم عليه السلام : {أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ} أي الفعلة المتناهية في السماجة {وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ}، أي والحال أنكم تعلمون علماً يقيناً أنها قبيحة؟ {أَءِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً} أي لأجل الشهوة فقط فهو كالبهائم ليس فيها قصد إعفاف ولا قصد ولد {مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ} أي حال كونكم متجاوزين، النساء {بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} أي بل أنتم قوم سفهاء ماجنون. {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوۤاْ

أَخْرِجُواْ ءَالَ لُوطٍ} أي أخرجوا لوطاً وابنتيه زعورا وريثا وزوجته المؤمنة {مِّن قَرْيَتِكُمْ} سذوم {إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} أي يتنزهون عن الأقذار قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء {فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ ٱمْرَأَتَهُ} المنافقة {قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ} أي قدرنا عليها أن تكون من الباقين في العذاب.

وقرأ شعبة بتخفيف الدال. {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم} أي على كل من كان منهم خارج المدينة {مَّطَراً} هو طين محرق {فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ} مطرهم {قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ} على هلاك الكفار {وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰ} أي اصطفاهم الله بالإسلام من السابقين واللاحقين {ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ}. وقرأ أبو عمرو وعاصم بالياء التحتية أي ءألله الذي ذكرت شؤونه العظيمة خير أم ما يشركون به تعالى من الأصنام ؟ والباقون بالتاء على الخطاب أي ءألله خير أم آلهة تشركونها بالله تعالى يا أهل مكة؟ وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأها قال: «بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم».

{أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضَ} أي بل من خلقهما {وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً} أي وأنزل لأجل منفعتكم من السماء نوعاً من الماء هو المطر {فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ} أي بساتين {ذَاتَ بَهْجَةٍ} أي حسن يفرح به الناظر؟ {مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا} أي ما كان لم مقدرة أن تنبتوا شجر البساتين {أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ} أي أإله آخر كائن مع الله الذي ذكر بعض شؤونه. وقرىء أإلهاً مع الله. أي أتعبدون إلهاً آخر من الله {بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} أي بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحق والانحراف عن الاستقامة في كل أمر من الأمور. وقيل: قوم يماثلون بالله غيره {أَمَّن جَعَلَ ٱلأَرْضَ قَرَاراً} أي بل من جعل الأرض مسكناً فيستقر عليها الإنسان والدواب، {وَجَعَلَ خِلاَلَهَآ أَنْهَاراً} أي صيَّر أوساطها أنهار جارية ينتفعون بها، {وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِىَ} أي جبالاً ثوابت تمنعها أن تميد بأهلها {وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ} أي العذب والمالح، {حَاجِزاً} أي برزخاً معنوياً مانعاً الممازجة {أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ} في إبداع هذه البدائع؟ {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} كمال قدرته تعالى وحكمته، واستغنائه عن الشريك. {أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ} أي بل من يجيب الذي أحوجه مرض، أو فقر، أو نازلة إلى التضرع إلى الله تعالى، {وَيَكْشِفُ ٱلسُّوۤءَ} أي يدفع ما يحزن الإنسان مما يطرأ عليه {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلأَرْضِ} أي متوارثين سكناها ممن قبلكم فتعمرون الدنيا وتزينونها بأنواع الصنائع والحرف {أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ} في فعل ذلك؟ {قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ}.

قرأ أبو عمرو وهشام بالتحتية على الغيبة. والباقون بالخطاب، وعلى كل من القراءتين ف «الذال» مفتوحة مشددة لإدغام التاء فيها، و «ما» مزيدة، و «القلة» كناية عن العدم، أي أنكم ما تتعظون لا كثيراً ولا قليلاً. {أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَ ٱلْبَحْرِ} أي بل من يهديكم إلى مقاصدكم في ظلمات الليالي فيهما، أو مشتبهات الطرق فيهما؟ {وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْرًى بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ} أي قدام المطر.

وقرأ حمزة والكسائي وابن كثير «الريح» بالإفراد. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو «نشراً» بضم النون والشين، وابن عامر بضم النون وسكون الشين، وحمزة والكسائي بفتح النون وسكون الشين أي تجمع السحاب. وقرأ عاصم بالموحدة المضمومة وبسكون الشين أي طيبة {أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ}؟ أي ليس مع الله إله فعل ذلك {تَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}. أي تنزه الله عن وجود ما يشركونه بالله تعالى بعنوان كونه إلهاً. {أَمَّن يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ} أي بل من يبتدىء الخلق من النطفة، ثم يعيده بعد الموت بالبعث و «أم» في الجمل الخمس انتقال من التبكيت بما قبلها إلى التبكيت بوجه آخر أدخل في الإلزام بجهة من الجهات {وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وٱلأَرْضِ}؟ أي بأسباب سماوية وأرضية كالمطر والحر والبرد والنباتَ، والمعادن والحيوان {أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ}؟ أي إله آخر موجود مع الله حق يجعل شريكاً له في العبادة. {قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ} أي قل يا أشرف الخلق للمشركين: هاتوا برهانكم عقلياً أو نقلياً يدل على أن معه إلهاً {إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ} في دعواكم أن مع الله آلهة شتى.

{قُل} يا أشرف الخلق للمشركين الذين سألوك عن وقت قيام الساعة: {لاَّ يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوٰتِ وٱلأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلاَّ ٱللَّهُ}. ف «من» في محل نصب مفعول، والغيب بدل منها، و «الله» فاعل، أي لا يعلم الأشياء التي تحدث في السموات والأرض الغائبة عنا إلا الله تعالى، وإن جعل «من» فاعلاً ل «يعلم» و «الغيب» مفعوله كان اسم الجلالة مبتدأ خبره محذوف والاستثناء منقطع، أي لا يعلم الذي ثبت في السموات والأرض وهم الملائكة والإنس الغائب كوقت الساعة ونزول العذاب لكن الله يعلمه.

قال بعضهم: وللغيب خمس مراتب.

أحدها: غيب أهل الأرض في الأرض وفي السماء، وللإنسان إمكان تحصيل علمه وهو على نوعين: الأول: ما غاب في الأرض الصورية وسمائها، فالغائب في الأرض مثل غيبة شخص عنك، أو

غيبة أمر من الأمور فلك إمكان إحضار الشخص، والاطلاع على ذلك الأمر. والغائب في السماء مثل علم النجوم والهيئة، فلك إمكان تحصيله بالتعلم. والثاني: ما غاب في أرض المعنى وهي أرض النفس، فإن فيها مخبآت من الأوصاف والأخلاق فلك إمكان الوقوف عليها بطريق المجاهدة، والرياضة، والذكر، والفكر. وما غاب في سماء القلب فإن فيها مخبآت من العلوم والحكم والمعاني فلك إمكان الوصول إليه بالسير عن مقامات النفس في مقامات القلب.

وثانيها: غيب أهل الأرض في الأرض والسماء وليس للإنسان إمكان الوصول إليه بإرادة الله تعالى كما قال تعالى: {سَنُرِيهِمْ ءايٰتِنَا فِى ٱلاْفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ}.

وثالثها: غيب أهل السماء في السماء والأرض وليس لهم إمكان الوصول إليه إلا بتعظيم الله تعالى مثل الأسماء فإن الله تعالى كرم آدم بكرامة لم يكرم بها الملائكة، وذلك بتعليمه علم الاسماء كلها.

ورابعها: سبيل غيب لا سبيل لأهل السموات والأرض إلى علمه إلا من ارتضى له الله تعالى كما قال تعالى: {فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ} (الجن: 62،72) وبهذا يستدل على فضيلة الرسل على الملائكة، لأن الله تعالى اختصهم بإظهاره تعالى إياهم على غيبه دون الملائكة، ولهذا أسجدهم لآدم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله خلق آدم فتجلى فيه».

وخامسها: غيب انفرد الله بعلمه وهو قيام الساعة فلا يعلمه إلا الله تعالى كما قال تعالى: {وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} أي متى ينشرون من القبور. وقرىء بكسر الهمزة. {بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلاْخِرَةِ}. وقرأ أبو عمرو وابن كثير «بل أدرك» بسكون اللام وفتح الهمزة وسكون الدال على وزن «أكرم». والباقون بكسر اللام ووصل الهمزة وتشديد الدال وبعدها ألف، وأصله «تدارك» وبه قرأ أبيّ.

قال ابن عباس: أي بل اجتمع علمهم على أن الآخرة لا تكون، أي فلم يعتقدوها {بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا} أي من نفس الآخرة كمن تحير في أمر لا يجد عليه دليلاً، {بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ} أي لا يدركون دلائلها لاختلال بصائرهم والله تعالى وصف المشركين أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث، ثم وصفهم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة ثم وصفهم بأنهم يخبطون في شك، ثم وصفهم بأن قلوبهم عمي فهم كالبهائم لا يخطرون ببالهم حقاً ولا باطلاً ويستقر همهم على البطون والفروج. {وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} من

أهل مكة: {أَءِذَا كُنَّا تُرَاباً وَءَابَآؤُنَآ أَءِنَّا لَمُخْرَجُونَ} أي أنخرج من القبور أحياء إذا صرنا رميماً تراباً؟ {لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا} أي الإخراج من القبور كما كنا أول مرة {نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ}، أي من قبل مجيء وعد محمد {إِنْ هَٰذَآ إِلاَّ أَسَٰطِيرُ ٱلأَوَّلِينَ} أي ما هذا الذي تعدنا يا محمد إلا أحاديث الأولين التي لا حقيقة لها. {قُلْ} يا أشرف الخلق لأهل مكة: {سِيرُواْ فِى ٱلأَرْضِ} أي سافروا فيها أيها الجاهلون، {فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ} أي كيف كان آخر أمر المنكرين للبعث، المكذبين للرسل فيما دعوهم إليه من الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر، وهو هلاكهم بالعذاب الدنيوي، لأن في مشاهدة ذلك ما فيه كفاية لمن اعتبر {وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ} يا أكرم الرسل فيما مضى لإصرارهم على الكفر. {وَلاَ تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ} أي ولا تكن في ضيق قلب من مكرهم في المستقبل.

وقرأ ابن كثير بكسر الضاد. {وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ} أي العذاب الموعود {إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ} في إخباركم بمجيء العذاب؟ {قُلْ} لهم يا سيد الرسل: {عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ} ف «عسى ولعل، وسوف» بمنزلة الجزم في مواعيد الملوك، أي لا بد أن يكون بعض الذي تستعجلونه حلوله لحقكم، وهو عذاب يوم بدر واللام مزيدة {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ} أي إنه متفضل عليهم بتأخير عقوبتهم على ما يفعلونه من المعاصي {وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ} بتأخير العذاب لأنهم لا يعرفون حق النعمة فيه {وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ} أي ما تخفيه فليس تأخير العذاب لخفاء حالهم عليه تعالى. وقرأ ابن محيصن وابن السميقع، وحميد «تكن» بفتح التاء وضم الكاف، {وَمَا يُعْلِنُونَ} من الأفعال والأقوال.

{وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلأَرْضِ إِلاَّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ} أي وما من خافية فيهما إلا في لوح محفوظ ظاهر لمن يطالعه من الملائكة. {إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ} الذي تقرأ عليهم يا سيد الرسل {يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰءِيلَ} أي يبين لليهود والنصارى {أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} كالتشبيه والتنزيه وشأن عزير والمسيح {وَإِنَّهُ} أي القرآن {لَهُدًى} من الضلالة، {وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤمِنِينَ}، وذلك لأن بعض الناس لما تأمل القرآن فوجد فيه من الدلائل العقلية على التوحيد، والنبوة، والحشر، وبيان نعوت جلال الله تعالى. ووجد ما فيه من الشرائع مطابقة للعقول، ووجده مبرأ عن التناقض، ووجد القوى البشرية عاجزة عن جمع كتاب على هذا الوجه علم أنه ليس إلا من عند الله تعالى فكان القرآن معجزاً من

هذه الجهة، وكان هدى ورحمة من هذه الجهات. {إِن رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم} أي بين اليهود والنصارى، أي بين المصيب والمخطىء منهم {بِحُكْمِهِ} أي بالحق لأنه تعالى لا يحكم إلا بالعدل، أو بحكمته كما يدل عليه قراءة من قرأ «بحِكمه» بكسر الحاء وفتح الكاف جمع حكمة. {وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ} أي هو القادر الذي لا يمنع فلا يرد حكمه، العالم بالحكم فلا يكون إلا الحق. {فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ} أي ثق بالله الذي هذه أوصافه فإنها توجب على كل أحد أن يفوض جميع أموره إليه {إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ} أي الدين الظاهر، فالمحق حقيق بنصرة الله تعالى، ثم قطع الله تعالى طمع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عن بني إسرائيل بتبيين أحوالهم أنهم لا يلتفتون إلى شيء من الدلائل، فإن قطع الطمع عنهم يقوي القلب على إظهار المخالفة وعلى إظهار الدين كما ينبغي فقال: {إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلاَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ} أي إنهم لفرط إعراضهم عما يدعون إليه كالميت لا سبيل إلى إسماعه، وكالأصم الذي لا يسمع برفع الصوت ولا يفهم بالإشارة. {وَمَآ أَنتَ بِهَادِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ} أي ما أنت بمرشد من أعماه الله عن الهدى، وأعمى قلبه عن الإيمان.

وقرأ ابن كثير «ولا يسمع الصم» بالتحتية وفتحها وبفتح الميم ورفع «الصم». وقرأ حمزة «تهدي العمي» بالمضارع المفيد للخطاب وبنصب «العمي» {إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِأَايٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ} أي ما تسمع سماعاً يجدي السامع إلا من هو في علم الله أنهم يصدقون بالقرآن، لأنهم منقادون للحق {وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم} أي وإذا ثبت نزول العذاب على الكفار وذلك إذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر وهو يكون بموت العلماء وذهاب العلم ورفع القرآن {أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلأَرْضِ} من جبل الصفا بمكة وهي فصيل ناقة صالح عليه السلام فإنه لما عقرت أمه هرب فانفتح له حجر فدخل في جوفه، ثم انطبق عليه الحجر فهو فيه حتى يخرج بإذن الله تعالى في آخر الزمان. وعن علي رضي الله عنه: أنها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج كل يوم إلا ثلثها. وعن الحسن رضي الله عنه: لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام وفي الحديث: «إن طولها ستون ذراعاً بذراع آدم عليه السلام لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب». {تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا بِأَايٰتِنَا لاَ يُوقِنُونَ}.

قرأ الكوفيون بفتح أن بتقدير الباء، كما يدل عليه قراءة عبد الله بن مسعود ب «أن» بتصريح الباء أي تحدثهم بأن الناس كانوا لا يوقنون بآيات الله تعالى الناطقة بمجيء الساعة ومباديها. وقرأ

أبيّ «تنبئهم»، وإضافة الآيات إلى نـون العظمـة، لأنهـا حكايـة مـن الله تعالى لمعنى قولها لا لعين عبارتها. وقرأ الباقون بكسـر «إن» على الاستئناف، فعلى هذا فالوقف على تكلمهم تـام وعليـه أيضـاً يجوز أن يكون بمعنى تجرحهم مع إفادة معنى التكـثير ويـدل عليـه قراءة ابن عباس، وابـن جـبير، ومجاهـد، وابـن زرعـة، والحجـدري «تكلمهم» بفتح التاء وسكون الكاف وضم اللام. والمراد بـالجرح: الوسم بالعصا والخاتم.

روي أن الدابة تخرج من الصفا ومعها عصا موسـى، وخـاتم سليمان، فتضرب المؤمن بيـن عينيـه بعصـا موسـى عليـه السـلام فتنكت نكتة بيضاء، فتفشو تلك النكتة في وجهـه حـتى يضـيء لهـا وجهه، وتكتب بين عينيه مؤمن، وتنكـت الكـافر بالخـاتم فـي أنفـه فتفشو النكتة حتى يسود لهـا وجهـه وتكتـب بيـن عينيـه كـافر، ثـم تقول لهم: أنت يا فلان من أهل الجنة، وأنت يافلان من أهل النـار. {وَيَوْمَ نَحْشُرُ} للعذاب بعد الحشر الكلـي الشـامل لكافـة الخلـق {مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِأايٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ} أي واذكر لهم وقت جمعنا على وجه الإكراه من كل أمة من أمـم الأنبيـاء جماعـة كثيرة، مكذبين بكتابنا فهم يوقف أولهم حتى يجتمعـوا فـي موقـف التوبيخ والمناقشة، {حَتَّىٰ إِذَا جَآءُوا} إلى موقف السؤال والجواب {قَالَ أَكَذَّبْتُم بِأايٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَـا عِلْمـاً}؟ أي قـال اللـه تعـالى موبخاً لهم على التكذيب: أكذبتم بآياتي الناطقة بلقاء يـومكم هـذا بادىء الرأي، غير ناظرين فيها نظـراً يـؤدي إلـى العلـم بحقيقتهـا، وأنها حقيقة بالتصديق حتماً؟ {أَمَّا ذَا كُنتُمْ}؟ أي بل أيّ شيء كنتـم تعملون في الكفر؟ والمعنى: لم يكن لكم عمل غير الكفر. {وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم} أي نزل بهم العذاب الموعود وهـو كبهـم فـي النـار {بِمَا ظَلَمُواْ} أي بسبب تكـذيبهم بآيـات اللـه {فَهُـمْ لاَ يَنطِقُـونَ} بحجـة واعتـذار {أَلَـمْ يَـرَوْاْ أَنَّـا جَعَلْنَـا ٱلَّيْـلَ لِيَسْـكُنُواْ فِيـهِ وَٱلنَّهَـارَ مُبْصِراً}؟ أي ألم يتفكر أهل مكة ولم يعلموا أنا جعلنا الليل مظلماً ليستريحوا فيه بالقرار والنوم والنهار مضيئاً ليطلبوا فيه معايشهم، {إِنَّ فِى ذَلِكَ} أي في جعـل الليـل والنهـار كمـا ذكـر {لاَيٰتٍ} أي دلالات ظاهرة على التوحيد والبعث والنبوة {لِّقَـوْمٍ يُؤْمِنُـونَ} أمـا وجـه دلالتـه علـى التوحيـد، فلأن التقلـب مـن النـور إلـى الظلمـة وعكسه لا يحصل إلا بقـدرة قـاهرة عاليـة، وأمـا وجـه دلالتـه علـى الحشر، فلأنه لما ثبت قدرة القادر على هـذا التقليـب ثبـت قـدرته على التقليب من الحياة إلى الموت مرة، ومن الموت إلـى الحيـاة مرة أخرى. وأما وجه دلالته على النبوة فلأن هـذا التقليـب لمنـافع الخلق وأن في بعثة الأنبياء إلى الخلق منافع عظيمـة فقـد ثبـت أن

هذه الكلمة كافية في إقامة الدلالة على تصحيح الأصول الثلاثة. {وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلأَرْضِ}، أي واذكر لهم وقت نفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية، فإذا سمع الخلق شدة صوت ذلك النفخ بحيث لا تتحمله طبائعهم يفزعون عنده ويموت كل من كان حياً ذلك الوقت لم يسبق له موت أو كان ميتاً، لكنه حي في قبره كالأنبياء والشهداء. {إِلاَّ مَن شَآءَ ٱللَّهُ} أن لا يفزع.

قيل: هم الشهداء يتقلدون أسيافهم حول العرش، فإنهم أحياء عند ربهم لا يصل الفزع إليهم. وقيل: هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام. وقيل: الحور وخزنة النار وحملة العرش. وقيل: منهم موسى عليه السلام لأنه صعق مرة. وقال القشيري: والأنبياء داخلون في الشهداء لأن لهم الشهادة. {وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ} أي كل واحد من المبعوثين عند النفخة حضروا الموقف للسؤال والجواب، والحساب ذليلين مطيعين.

وقرأ حفص وحمزة «أتوه» بصيغة الفعل الماضي وهو بقصر الهمزة وفتح التاء. والباقون بصيغة اسم الفاعل فهو بمد الهمزة وضم التاء.

وقرىء «أتاه» باعتباره لفظ كل. {وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ} أي وتبصر الجبال وقت النفخة تظنها ثابتة في أماكنها. والحال أنها تمرمر السحاب التي تسيّرها الرياح سيراً سريعاً، فسير الجبال يوم القيامة لا يرى لعظمها كما أن سير السحاب لا يرى لعظمه {صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ} أي صنع الله الذي أحسن خلقه، وأتى به على الحكمة ذلك النفخ في الصور وما تفرع منه من الأمور صنعاً و «صنع» منصوب على أنه مصدر مؤكد لمضمون ما قبله، أي فإن نفخ الصور المؤدي إلى الفزع العام وحضور الكل الموقف وما فعل بالجبال، إنما هو من صنع الله لا يحتمل غيره {إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} أي إنه تعالى عالم بما يعمله أهل السعادة والشقاوة من الخير والشر. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بالتحتية على الغيبة. والباقون بالفوقية على الخطاب.

{مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا} أي من جاء يوم القيامة بكلمة الشهادة فله من الجزاء ما هو خير منها، باعتبار أن الثواب دائم، وأنه من فعل الله، وأنه حاصل من جهة الله تعالى، فإن المعرفة النظرية الحاصلة في الدنيا جزاؤها المعرفة الضرورية الحاصلة في الآخرة، ولذة النطر إلى وجه الله تعالى {وَهُمْ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ}.

وقرأ الكوفيون «فزع» بالتنوين فحينئذ كان «يومئذ» ظرفاً ل «آمنون»، أو المحذوف هو صفة ل «فزع» أي والذين جاءوا بالحسنات آمنون من فزع كائن، يوم إذ وقعت هذه الأحوال العظيمة، وعلى هذا فالفزع على نوعين فزع من خوف العقاب، وفزع شديد مفرط الشدة لخوف النار أما ما يلحق الإنسان من الرعب عند مشاهدة الأهوال فلا ينفك منه أحد. وقرأ الباقون بإضافة «فزع»، وقرأ نافع والكوفيون بفتح الميم من «يومئذ» وهو فتحة بناء لإضافة «يوم» المبني. والباقون بكسرها وهو كسرة إعراب. وهذا يقتضي الأمن جميع فزع ذلك اليوم. {وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ} أي بالشرك بالله {فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ} أي ألقوا في النار على وجوههم، وتقول لهم خزنة جهنم وقت كبهم على وجوههم في النار: {هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}؟ أي ما تجزون الآن إلا جزاء أعمالكم من الشرك والمعاصي في الدنيا، ثم أمر الله تعالى نبيه أن يقول لأهل مكة تنبيهاً لهم على أنه قد أتم أمر الدعوة: {إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ} وهي مكة {ٱلَّذِى حَرَّمَهَا} أي جعلها حرماً لا يسفك فيها دم إنسان، ولا يصاد صيدها، ولا يقطع حشيشها الرطب.
قرأ الجمهور «الذي» صفة ل «رب».
وقرأ ابن عباس وابن مسعود «التي» صفة ل «البلدة» {وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ} خلقاً وتصرفاً من غير أن يشاركه شيء في شيء من ذلك، {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ} أي بأن أثبت على ملة الإسلام، وبأن أكون من المنقادين لها. وهذا إشارة إلى أن المسلم الحقيقي من يستعمل الشريعة مثل استعمال النبي صلى الله عليه وسلم {وَأَنْ أَتْلُوَ ٱلْقُرْءَانَ} أي أمرت أن أقرأ عليكم القرآن بطريق تكرير الدعوة، وأن أواظب على تلاوته لتنكشف لي حقائقه، {فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ} أي فمن اهتدى باتباعه إياي في العبادة والإسلام، وتلاوة القرآن فإنما منافع اهتدائه راجعة إليه لا إلي، {وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ}، أي ومن ضل بمخالفتي فيما ذكر فقل في حقه: إنما أنا من المنذرين فلا علي شيء من وبال ضلاله. {وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ} على ما أعطاني من نعمة العلم والنبوة. وعلى ما وفقني من القيام بأداء الرسالة. {سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِ} أي سيريكم الله تعالى في الدنيا آياته الباهرة كخروج الدابة وسائر أشراط الساعة {فَتَعْرِفُونَهَا} أي فتعرفون أنها آيات الله تعالى حين لا تنفعكم المعرفة، {وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}.

وقرأ نافع وابن عامر، وحفص بالتاء على الخطاب أي وما ربك بغافل عما تعلم أنت من الحسنات، وما تعملون أنتم أيها الكفرة من السيئات فيجازي كلاً منكم بعمله. والباقون بالياء على الغيبة أن وما ربك بغافل عن أعمالهم فسيعذبهم فلا يحسبوا أن تأخير عذابهم لغفلته تعالى عن أعمالهم المسببة للعذاب.

سورة القصص

وتسمى أيضاً سورة موسى، مكية، وقيل: إلا قوله تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءانَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ} فإنها نزلت بالجحفة بين مكة والمدينة وهي ثمان وثمانون آية، وألف وأربعمائة وإحدى وأربعون كلمة، وخمسة آلاف وثمانمائة حرف

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. طسٓمٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ} أي إن آيات هذه السورة آيات الكتاب الذي بيَّن بفصاحته أنه من كلام الله، وبيَّن صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وبيَّن خبر الأولين والآخرين وبيَّن كيفية التخلص عن شبهات أهل الضلال. {نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}، أي نقرأ عليك بواسطة جبريل بعض خبر موسى وفرعون ملتبساً بالحق لأجل قوم يصدقون بك وبالقرآن، فإنهم المنتفعون به. {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِى ٱلأَرْضِ} أي تجبَّر في مملكته أرض مصر، {وَجَعَلَ أَهْلَهَا} أي أهل مملكته {شِيَعاً} أي أصنافاً في استخدامه، يستعمل كل صنف في عمل من بناء وحرث وحفر وغير ذلك من الأعمال الشاقة، ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية. {يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ} وهم بنو إسرائيل. قال ابن عباس: إن بني إسرائيل لمَّا كثروا بمصر استطالوا على الناس وعملوا المعاصي ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر، فسلط الله عليهم القبط فاستضعفوهم إلى أن أنجاهم الله على يد نبيه موسى عليه. {يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ} كثيراً صغاراً. وذلك لأن الأنبياء الذين كانوا قبل موسى عليه السلام بشروا بمجيئه عليه السلام، وفرعون كان قد سمع ذلك، فلهذا كان يذبح أبناء بني إسرائيل عند الولادة. وهذا الوجه أولى بالقبول. قال وهب: قتل القبط في طلب موسى عليه السلام تسعين ألفاً من بني إسرائيل. قوله: {يَسْتَضْعِفُ} حال من فاعل «علا» أو خبر ثانٍ لأن «أو» بدل اشتمال من «علا».

وقوله: {يُذَبّحُ} بدل اشتمال من «يستضعف». {وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ} قيل: أي يستخدمهن كباراً {إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ} في كفره بدعائه إلى غير عبادة الله وقتل خلق كثير من أولاد الأنبياء {وَنُرِيدُ} بإرسال موسى {أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلأَرْضِ}، أي أن نتفضل على من قهروا في أرض مصر وهم بنو إسرائيل بإنجائهم من بأس فرعون. وقوله تعالى: {وَنُرِيدُ} الخ معطوف على قوله: {إِنَّ فِرْعَوْنَ} الخ لأنهما وقعا تفسيرين لنبأ موسى وفرعون أو حال من «طائفة» بتقدير المبتدأ، أي ونحن نريد {وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً} أي قادة إلى الخير متقدمين في أمور الدين بعد أن كانوا أتباعاً مسخرين لآخرين، {وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ} لملك فرعون وأرضه وما في يده، {وَنُمَكّنَ لَهُمْ فِى ٱلأَرْضِ} أي ننفذ أمرهم في أرض مصر والشام يتصرفون فيها ما يشاءون، {وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَحْذَرونَ} أي ونري، رؤية بصرية، فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يخافونه من المستضعفين من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود من بني إسرائيل. وقرأ حمزة والكسائي «ويرى» بالياء المفتوحة وبفتح الراء مع الإمالة ورفع ما بعده.

{وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ} أي ألهمنا أم موسى يوحانذ بنت لاوى بن يعقوب أن أرضعي هذا الصبي، {فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ} أي اشتد خوفك عليه من الذبح بأن يفطن به جيرانك ويسمعون صوته عند البكاء {فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ} أي بحر النيل {وَلاَ تَخَافِى} من هلاكه بالغرق ونحوه. {وَلاَ تَحْزَنِى} بسبب فراقه {إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ} من قريب لتكوني أنت المرتضعة له {وَجٰعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ} إلى أهل مصر والشام.

قال ابن عباس: إن أم موسى لما تقاربت ولادتها بأن أحست بالطلق أرسلت إلى قابلة وكانت مصافية لأم موسى وقالت لها: لينفعني اليوم حبك إياي، فجلست القابلة تعالجها، فلما نزل موسى إلى الأرض هالها نور بين عينيه فارتعش كل مفصل منها، ودخل حب موسى قلبها فقالت: يا هذه ما جئتك إلا لقتل مولودك ولكني وجدت لابنك هذا حباً شديداً، فاحفظي ابنك، فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاء إلى بابها ليدخل على أم موسى فقالت أخته: يا أماه هذا الحارس بالباب فلفته بخرقة ووضعته في تنور مسجور، فطاش عقلها، فلم تعقل ما تصنع، فدخل، فإذا التنور مسجور، ورأى أم موسى لم يتغير لها لون ولم يظهر لها لبن فقال: لم دخلت القابلة عليك؟ قالت: إنها حبيبة لي دخلت للزيارة، فخرج من عندها فرجع إليها عقلها فقالت لأخت

موسى: أين الصبي؟ قالت: لا أدريٰ فسمعت بكاء في التنور، فانطلقت إليه وقد جعل الله النار عليه برداً وسلاماً، فأخذته، ثم إن أم موسى عليه السلام لما رأت جد فرعون في طلب الولد خافت على ابنها، فقذف الله في قلبها أن تتخذ له تابوتاً، ثم تقذف التابوت في النيل، فذهبت إلى نجار من قوم فرعون، فاشترت منه تابوتاً صغيراً فقال لها: ما تصنعين به؟ فقالت: لي ابن أخبؤه فيه، فلما انصرفت ذهب النجار إلى الذباحين ليخبرهم بذلك، فلما جاءهم، أمسك الله لسانه وجعل يشير بيده، فضربوه وطردوه، فلما عاد إلى موضعه رد الله عليه نطقه فذهب مرة أخرى ليخبرهم، فأخذ الله لسانه وبصره فجعل لله تعالى إنه إن رد عليه بصره ولسانه لا يدلهم عليه فعلم الله تعالى منه الصدق، فرد الله عليه ذلك وانطلقت أم موسى وألقته في النيل، وكان لفرعون بنت لم يكن له ولد غيرها وكان بها برص شديد، وكان فرعون قد شاور الأطباء والسحرة في أمرها، فقالوا: أيها الملك لا تبرأ هذه إلا من قبل البحر يوجد منه شبه الإنسان، فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها، فتبرأ من ذلك وذلك في يوم كذا في شهر كذا حين تشرق الشمس، فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون إلى مجلس له كان على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم، وأقبلت بنت فرعون في جواريها حتى جلست على شاطىء النيل، إذ أقبل النيل بالتابوت تضربه الأمواج وتعلق بشجرة، فقال فرعون: ائتوني به فابتدروه بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه، فعالجوا فتح الباب، فلم يقدروا عليه، وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه، فنظرت آسية فرأت نوراً في جوف التابوت لم يره غيرها، فعالجته، ففتحته، فإذا هي بصبي صغير، وإذا نور بين عينيه، فألقى الله محبته في قلوب آسية وفرعون، فأخرجوه من التابوت وعمدت بنت فرعون إلى ريقه فلطخت به برصها فبرئت في الحال، فقبلته وضمته إلى صدرها، فقالت الغواة من قوم فرعون: أيها الملك، إنا نظن أن هذا هو الذي نحذر منه رمي في البحر خوفاً منك، فهمَّ فرعون بقتله، فاستوهبته آسية من فرعون، فوهبه لها، فترك قتله، وتبنته فقيل لآسية: سميه فقالت: سميته موشى بالشين المعجمة لأنا وجدناه في الماء والشجر فإن معنى موماء ومعنى شا شجر فأصل موسى بالمهملة موشى بالمعجمة وذلك قوله تعالى: {فَـ لْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَـوْنَ} أي أخذت موسى جواري فرعون من بين الماء والشجر يوم الإثنين، وذهبن به إلى امرأة فرعون {لِيَكُونَ} أي موسى {لَهُمْ عَدُوّاً} من بعدما يجيء إليهم بالرسالة {وَحَزَناً} بذهاب ملكهم.

وقرأ حمزة والكسائي بضم الحاء وسكون الزي. والباقون بفتحهما. {إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِئِينَ} فيما كانوا عليه من الكفر والظلم، فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم. وقال الحسن: معنى «كانوا خاطئين» أي كانوا لا يشعرون أن موسى هو الذي يذهب بمكلهم. {وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ} وهي آسية لفرعون حين أخرجته من التابوت وهمَّ فرعون بقتله لقول الغواة: {قُرَّةُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ} أي هذا الغلام قرة عين لي ولك يا فرعون.

قال ابن عباس: لما قالت آسية ذلك قال فرعون: يكون لك وأما أنا فلا حاجة لي فيه. قال ابن إسحاق: إن الله تعالى ألقى محبته عليه السلام في قلبه لأنه كان في وجهه ملاحة فكل من رآه أحبه، ولأنها حين فتحت التابوت رأت النور، ولأنها لما فتحته رأته يمتص أصبعه، ولأن ابنة فرعون لما لطخت برصها بريقه زال. {لاَ تَقْتُلُوهُ} خاطبته بلفظ الجمع تعظيماً لأجل أن يعاونها فيما تريده {عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا} فنصيب منه خيراً لو كان له أبوان معروفان {أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً}، إذا لم يعرف له أبوان وكانت آسية لا تلد {وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ}. وهذا ابتداء كلام من الله تعالى أي وهم لا يشعرون أن هلاكهم في يدته وبسببه. وهذا قول مجاهد وقتادة والضحاك ومقاتل.

وقال ابن عباس: أي هم لا يشعرون إلى ماذا يصير أمر موسى عليه السلام. وقال آخرون: هذا من تمام كلام امرأة فرعون، أي بنو إسرائيل وأهل مصر لا يشعرون أنا التقطناه وأنه ليس منا. {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغاً}، أي وصار قلب يوحانذ صفراً من العقل لفرط الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد فرعون. وقيل: أي خالياً من الحزن لغاية وثوقها بوعد الله تعالى أو لسماعها أن فرعون تبناه، {إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ} أي إنها كادت لتظهر بأمر موسى من فرط الدهشة أو من شدة الفرح بتبني امرأة فرعون. وقال ابن عباس: كادت تخبر بأن الذي وجدتموه ابني بعد أن نسب إلى فرعون، وقال أيضاً في رواية عكرمة كادت تقول: وا ابناه من شدة حزنها عليه حين رأت الموج يرفع ويضع.

وقال الكلبي: ذلك حين سمعت الناس يقولون لموسى بعد ما شب أنه ابن فرعون {لَوْلاَ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا} أي لولا حفظنا قلبها بإلهام الصبر لأبدت قصة موسى، لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ} أي من المصدقين بوعد الله تعالى برده إليها بأن يكون من المرسلين، أو من الواثقين بحفظ الله تعالى لا بتبني امرأة فرعون وتعطفها {وَقَالَتْ} أم موسى {لأُخْتِهِ} الشقيقة مريم وقال

الضحاك: اسمها كلثمة. وقال السهيلي: اسمها كلثـوم : {قُصِّـيهِ} أي فتشي خبره وانظري إلى أين وقع، {فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ} أي فأبصرت مريم ذلك الغلام كائنة من مكان بعيد اختفاء عـن النـاس {وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} بغرضها وبأنها أخت موسى.

{وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ} أي منعناه أن يرتضـع مـن المرضـعات الـتي أحضرها فرعون من قبل مجيء أمه. قال الضحاك: كانت أمـه قـد أرضعته ثلاثة أشهر حتى عرف ريحها.

وروي أن موسى مكث ثمان ليال لا يقبل ثدياً وهو يصبح، فقالوا لأخت موسى بعد نظرها له وقربها منه هـل عنـدك مرضـعة تـدلينا عليها لعله يقبل ثـديها؟ {فَقَـالَتْ}، أي أخـت موسـى لآل فرعـون عند عدم قبوله ثدي أحد من المرضـعات {هَـلْ أَدُلُّكُـمْ عَلَـىٰ أَهْـلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ} أي يضمنون رضـاعه يقومـون بجميـع مصـالحه لأجلكم {وَهُمْ لَهُ نَـٰصِحُونَ} أي وهم لا يمنعونه ما ينفعه فـي تربيتـه وإغذائه، ولا يخونكم فيه.

قال السدي: لما قالت مريم ذلك أخـذوها وقـالوا: إنـك قـد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله. فقالت: ما أعرفهٰ وقالت: إنمـا أردت أنهم للملك ناصحون فتخلصت منهم بذلك. وقيل: قالوا لهـا: من هم؟ قالت أمي. قالوا: أولأمك ابن؟ قالت: نعم هارون. قـالوا: صدقت، فأتينا بها فانطلقت إلى أمها وأخبرتها بحـال ابنهـا وجـاءت بها إليهم، فلما وجد الصبي ريح أمه قبل ثديها، وجعـل يمصـه حـتى امتلأت جنباه رياً. فقالوا: أقيمي عندنا، فقالت: لا أقدر على فـراق بيتي إن رضيتم أن أكفله في بيتي وإلا فلا حاجـة لـي بـه وأظهـرت عدم الرغبة فيه نفياً للتهمة، فرضوا بذلك، فرجعت به إلى بيتها.

قال الضحاك: لما قبل ثديها قال هامان: إنك لأمهٰ قالت: لا، قال: فما حالك قبل ثديك من بين النسوةٰ قالت: أيهـا الملـك، إنـي امرأة طيبة الريح حلوة اللبن مـا شـم ريحـي صـبي إلا أقبـل علـى ثديي. قالوا: صدقت، لم يبق أحـد مـن آل فرعـون إلا أهـدى إليهـا وأتحفها بالذهب والجواهر. {فَرَدَدْنَٰهُ} أي موسـى {إِلَـىٰ أُمِّـهِ كَـىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا} أي تطيب نفسها بوصول موسى إليها وتربيتهـا لـه فـي بيتها، {وَلاَ تَحْزَنَ} على موسى بفراقه {وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ} في رده إليها وجعله من المرسلين {حَقٌّ وَلَـٰكِـنَّ أَكْثَرَهُـمْ لاَ يَعْلَمُـونَ}، أن المقصود الأصلي من رده إليها علمها بأن وعد الله حق لا خلـف فيه بمشاهدة بعضه، وقياس بعضه عليه، فهذا هـو الغـرض الـديني وما سواه من قرة العين وذهاب الحـزن تبـع، فمكـث موسـى عنـد أمه إلى أن فطمته، وأمر فرعون بـإجراء أجرتهـا لكـل يـوم دينـار، فأتت به فرعون واستمر عنده يأكل من مأكوله ويشرب مـن مـائه

ويلبس من ملبوسه إلى أن كمل، {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ} أي كمال قوته الجسمانية {وَ ٱسْتَوَىٰ} أي تكامل عقله {ءَاتَيْنَٰهُ حُكْماً وَعِلْماً} أي أعطيناه علم الحكماء والعلماء، {وَكَذَٰلِكَ} أي ومثل ذلك الذي أعطينا موسى من الحكم والعلم {نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ} أي الصالحين بالعلم والحكمة، {وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا} أي ودخل موسى مدينة منف في وقت اشتغال أهلها عند نصف النهار. ومَنْف: بفتح الميم وسكون النون أصلها مآفة، ومعناها بلغة القبط ثلاثون، لأنها أول مدينة عمرت بعد الطوفان نزلها مصر بن حام في ثلاثين رجلاً فسميت مافت، ثم عربت منف. قيل: إن موسى عليه السلام لما بلغ أشده وآتاه الله العلم في دينه ودين آبائه علم أن فرعون وقومه على الباطل فتكلم بالحق، وعاب دينهم، واشتهر ذلك منه حتى آل الأمر إلى أن خافوه، وخافهم. وكان له من بني إسرائيل شيعة يقتدون به، ويسمعون منه، وبلغ في الخوف بحيث ما كان يدخل مدينة فرعون إلا خائفاً، فدخلها يوماً وقت كونهم قائلين {فَوَجَدَ فِيهَا} أي المدينة {رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ} أي يلازمان مقدمات القتل من الضرب والخنق {هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ} أي ممن تابع موسى على دينه وهم بنو إسرائيل {وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ} أي ممن خالف موسى في دينه وهم القبط فالقبطي: الذي سخر الإسرائيلي كان طباخ فرعون استسخره لحمل الحطب إلى مطبخه واسمه: فليثون أوفاتون: {فَ ٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ} أي طلب الإسرائيلي من موسى أن ينصره على القبطي وأن يخلصه منه، {فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ} أي دفعه بأطراف الأصابع. وقيل: بقبضها.

وقرأ ابن مسعود فلكزه موسى وقال بعضهم الوكز: في الصدر، واللكز: في الظهر. {فَقَضَىٰ عَلَيْهِ} أي أنهى موسى حياة القبطي وخفيي هذا على الناس فلم يعرف به أحد لما هم فيه من الغفلة فندم موسى عليه السلام عليه فدفنه في الرمل {قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ} أي هذا القتل من عمل الشيطان لأني لم أومر به أو هذا المقتول من جند الشيطان {إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ} أي ظاهر العداوة والإضلال.

{قَالَ} مناجياً مع الله تعالى: {رَب إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى} بقتل القبطي من غير أمر، فإن فرعون إذا عرف ذلك قتلني به {فَ ٱغْفِرْ لِى} أي فاستره علي ولا توصل خبره إلى فرعون {فَغَفَرَ لَهُ} أي فستره عن الوصول إلى فرعون {إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ} أي المبالغ في ستر ذنوب عباده وفي رحمتهم {قَالَ} موسى: {رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ} أي أقسم بإنعامك

علي بالقوة والمعرفة فلن أكون معيناً لأحد من المشركين، بل أكون معاوناً للمسلمين أي إني وإن أسأت في هذا القتل الذي لم أومر به فلا أترك نصرة المسلمين على المجرمين، ونصرة المؤمن واجبة في جميع الشرائع. قال الفراء: وفي قراءة عبد الله فلا تجعلني ظهيراً للمجرمين {فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ} أي فصار موسى في المدينة التي قتل فيها القبطي خائفاً من أن يظهر أنه هو القاتل فيطلب بذلك القتل يترقب أي ينتظر نصرة الله إياه، {فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنْصَرَهُ بِٱلأَمْسِ} أي فإذا الإسرائيلي الذي استعان بموسى على القبطي {يَسْتَصْرِخُهُ} أي يطلب من موسى نصرته بصياح على قبطي آخر يريد أن يستخدم الإسرائيلي {قَالَ لَهُ} أي للقبطي: {مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ} في تسخير هذا الإسرائيلي {فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا} أي فلما أراد موسى أن يأخذ عدوه وعدو الإسرائيلي بسطوة لخلاصة من عدوهما، لأن القبطي لم يكن على دينهما، ولأن القبط أعداء بني إسرائيل {قَالَ} أي القبطي، وكان عرف القصة من الإسرائيلي أو كان توهم من زجر موسى للإسرائيلي أنه هو الذي قتل الرجل بالأمس: {يٰمُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى} اليوم {كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً} قبطياً {بِٱلأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِى ٱلأَرْضِ} أي ما تريد يا موسى إلا أن تفعل ما تريده في أرض مصر من ضرب وقتل، من غير نظر في العواقب {وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ} أي المتورعين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وانتشر حديث هذه الواقعة في المدينة، وانتهى إلى فرعون وهموا بقتله {وَجَآءَ رَجُلٌ} هو مؤمن من آل فرعون اسمه: سمعان، وكان ابن عم فرعون {مِّنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ} أي من آخرها {يَسْعَىٰ} أي يسرع في مشيه {قَالَ يٰمُوسَىٰ إِنَّ ٱلْمَلأَ} أي أولياء المقتول {يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ} أي يأمر بعضهم بعضاً بقتلك فاتفقوا على أن يحتالوا فيك ليهلوك {فَٱخْرُجْ} من هذه المدينة {إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّصِحِينَ} أي المشفقين {فَخَرَجَ} موسى عليه السلام {مِنْهَا} أي المدينة {خَآئِفاً} على نفسه من آل فرعون {يَتَرَقَّبُ} أي ينتظر لحوق الطالبين ويكثر الالتفات وينظر هل يلحقه أحد يطلبه {قَالَ} عند ذلك {رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ} أي خلصني منهم واحفظي من لحوقهم.

وهذا يدل على أن قتله عليه السلام لذلك القبطي لم يكن ذنباً {وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ} أي لما قصد الذهاب إلى مدين لأنها ليست تحت ملك فرعون ولأنه وقع في نفسه أن بينه وبين أهل مدين قرابة لأنهم من ولد مدين بن إبراهيم عليه السلام، وهو

منهم ولم يكن له علم بالطريق، بل اعتمد على فضل الله تعالى {قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ}، وهي من إضافة الصفة للموصوف أي الطريق الوسط، وكان لمدين ثلاث طرق، فأخذ موسى الطريق الوسطي، وأخذ الطلاب الآخريين.

وقال ابن إسحاق: خرج موسى من مصر إلى مدين بغير زاد ولا مركوب وبينهما مسيرة ثمانية أيام ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر ونبات الأرض وما وصل إلى مدين حتى وقع خف قدميه.

{وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ} أي لما وصل إلى بئر مدين {وَجَدَ عَلَيْهِ} أي فوق شفيرها {أُمَّةً} أي جماعة {مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ} مواشيهم وكانوا أربعين رجلاً {وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ} أي تحبسان غنمهما عن الماء من ضعفهما حتى يفرغ القوم.

وقال ابن إسحاق اسم الكبرى صفوراء والصغرى ليا. {قَالَ} موسى لهما: {مَا خَطْبُكُمَا} أي ما شأنكما لا تسقيان غنمكما؟ {قَالَتَا لَا نَسْقِى} أي لا نقدر أن نسقي غنمنا {حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ}.

قرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم بفتح الياء وضم الدال، أي حتى يرجعوا من سقيهم. والباقون بضم الياء وكسر الدال أي حتى يصرفوا مواشيهم عن الماء {وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ} لا يستطيع أن يسقي، وليس له أحد يعينه غيرنا، {فَسَقَىٰ لَهُمَا} أي فسقى موسى غنمهما لأجلهما. قيل: عمد موسى إلى بئر على رأسه صخرة لا يرفعها إلا عشرة رجال فنحاها بنفسه، واستقى الماء من ذلك البئر {ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ} أي انصرف موسى {إِلَى ٱلظِّلِّ} أي ظل سمرة فجلس فيه ليستريح من حر الشمس، وهو جائع لم يذق طعاماً في سبعة أيام {فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} أي رب إني بسبب ما أنزلت إلي خير الدين، صرت فقيراً في الدنيا وذلك لأن موسى كان عند فرعون في ثروة، فقال ذلك رضاً بهذا البدل وفرحاً به، وشكراً له.

روي أنهما لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس وأغنامهما حفل بطان قال لهما: ما أعجلكما؟ قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً، رحمنا فسقى لنا. فقال لأحداهما: اذهبي فادعيه لي وهي الكبرى عند الأكثرين {فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا} واسمها صفوراء {تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ} أي مائلة عن الرجال رافعة كمها على وجهها {قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا} مواشينا.

روي أن موسى عليه السلام أجابها، فانطلقا وهي أمامه فألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، ففعلت حتى أتيا دار شعيب عليه السلام.

{فَلَمَّا جَآءَهُ} أي جاء موسى شعيباً {وَقَصَّ} موسى {عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ} أي فراره من فرعون. {قَالَ} شعيب له: {لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ} من أهل مصر فإن فرعون لا سلطان له في أرضنا.

قال الضحاك: لما دخل على شعيب قال له: من أنت يا عبد الله؟ فقال: أنا موسى بن عمران بن يصهر بن فاهت بن لاوى بن يعقوب. وذكر له جميع أمره من لدن ولادته، وأمر القوابل والمراضع والقذف في اليم، وقتل القبطي، وأنهم يطلبونه ليقتلوه. فقال شعيب: لا تخف نجوت من القوم الظالمين، أي لأنا لسنا في مملكة فرعون.

وروي أن موسى لما دخل على شعيب فإذا الطعام موضوع، فقال شعيب: تناول يا فتى فقال موسى عليه السلام: أعوذ بالله. قال شعيب: ولم ذلك؟ قال: لأنا من أهل البيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً ولا نأخذ على المعروف عوضاً. فقال شعيب: عادتي وعادة آبائي إطعام الضيف، فجلس موسى فأكل وإنما كره أكل الطعام خشية أن يكون ذلك أجرة له على عمله. {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا} وهي التي دعته إلى أبيها، وهي التي تزوجها موسى {يٰأَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ} اتخذه أجيراً لرعي أغنامنا {إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلأَمِينُ}. روي أن شعيباً أخذته الغيرة فقال: وما أعلمك بقوته وأمانته؟ فذكرت ما شاهدته منه عليه السلام من كيفية السقي ورفع الصخرة من فم البئر، ومن غض بصره حال ذودهما الماشية، وحال سقيه لهما، وحال مشيه أمامها إلى أبيها. {قَالَ} أي شعيب لموسى عند ذلك: {إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَاتَيْنِ} أي الحاضرتين {عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَانِىَ حِجَجٍ} أي مشروطاً على أن تأجرني نفسك في رعي غنمي ثماني سنين {فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً} من السنين في العمل {فَمِنْ عِندِكَ} أي فالتمام من عندك بطريق التفضل لا من عندي بطريق الإلزام عليك، {وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ} بإلزام أتم الأجلين، ولا أكلفك الاحتياط الشديد في كيفية الرعي بل أساهلك فيها بقدر الإمكان، {سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ} في حسن المعاملة وغيره، وإنما قال شعيب: إن شاء الله، للتبرك ولتفويض أمره إلى معونته تعالى، لا لتعليق صلاحه بمشيته تعالى.

{قَالَ} موسى: {ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ} أي ذلك الشرط ثابت بيننا جميعاً لا يخرج عنه واحد منا، {أَيَّمَا ٱلأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَىَّ} أي أيّ أحد الوقتين وفيتكه بأداء الخدمة فيه فلا إثم علي فكما لا إثم علي في قضاء الأكثر لا إثم علي في قضاء الأقصر

فقط. {وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ} من الشرط الجاري بيننا {وَكِيلٌ}، أي شاهد، ولما تم العقد بينهما أمر شعيب ابنته أن تعطي موسى عصاً يدفع بها السباع عن غنمه وفي بعض الأخبار أن موسى لما عقد العقد مع شعيب وأصبح من الغدو أراد الرعي، قال له شعيب عليه السلام: اذهب بهذه الأغنام فإذا بلغت مفرق الطريق، فخذ على يسارك ولا تأخذ على يمينك، وإن كان الكلأ بها أكثر فإن بها تنينا عظيماً فأخشى عليك وعلى الأغنام منه، فذهب موسى بالأغنام فلما بلغ مفرق الطريق أخذت الأغنام ذات اليمين فاجتهد موسى على أن يردها فلم يقدر، فسار على أثرها فرأى عشباً كثيراً، ثم إن موسى عليه السلام نام والأغنام ترعى وإذا بالتنين قد جاء فقامت عصا موسى، فقاتلته حتى قتلته، وعادت إلى جنب موسى وهي دامية فلما استيقظ موسى، رأى العصا دامية والتنين مقتولاً فارتاح لذلك، وعلم أن لله تعالى في تلك العصا آية، وعاد إلى شعيب وكان ضريراً فمس الأغنام، فإذا هي أحسن حالاً مما كانت فسأله عن ذلك فأخبره موسى بالقصة، ففرح بذلك وعلم أن لموسى وعصاه شأناً، فأراد أن يجازي موسى على حسن رعيه إكراماً له وصلة لابنته فقال: إني وهبت لك من السخال التي تضعها أغنامي في هذه السنة كل أبلق وبلقاء، فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك الماء التي تسقي الغنم منه، ففعل، ثم سقى الأغنام منه فما أخطأت واحدة منها إلا وضعت حملها ما بين أبلق وبلقاء، فعلم شعيب أن ذلك رزق ساقه الله تعالى إلى موسى وامرأته فوفى له بشرطه، {فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلأَجَلَ} أي أتمه {وَسَارَ} نحو مصر لصلة رحمه، وزيارة أمه وأخيه {بِأَهْلِهِ} أي بزوجته وابنه منهما والخادم بإذن من شعيب عليه السلام، {ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَاراً} أي رأى من جهة جبل الطور عن يسار الطريق ناراً ولما عزم على السير.

قال لزوجته: إطلبي من أبيك أن يعطينا بعض الغنم فطلبت من أبيها ذلك {قَالَ لأَهْلِهِ ٱمْكُثُوۤاْ} أي انزلوا ههنا {إِنِّيۤ ءَانَسْتُ نَاراً}.

وقرأ حمزة «لأهله» في الوصل بضم الهاء. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء {لَّعَلِّيۤ ءَاتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ} أي من عند النار بخبر الطريق، وقد كان موسى تحيَّر في الطريق {أَوْ جَذْوَةٍ} أي عود غليظ {مِّنَ ٱلنَّارِ}. وقرأ عاصم بفتح الجيم وحمزة بضمها. والباقون بالكسر {لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} أي لكي تدفأوا بها.

روي أنه أظلم عليه الليل في الصحراء وهبت ريح شديدة، فرقت ماشيته وأصابهم مطر، فوجدوا برداً شديداً، فعند ذلك أبصرنا بعيدة، فسار إليها يطلب من يد له على الطريق {فَلَمَّآ

أَتٰهَا} أي النار التي أبصرها، {نُودِىَ مِن شَـٰطِىءِ ٱلْـوَادِى ٱلأَيْمَـنِ} أي أتاه النداء مـن الشـاطىء الأيمـن بالنسـبة إلـى موسـى {فِـى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ} فإنه حصل لموسى عليه السلام في تلك البقعـة ابتداء الرسالة، وتكليم الله تعالى إياه والجار والمجـرور متعلـق ب «نودي» {مِنَ ٱلشَّجَرَةِ} أي من جهة الشجرة، وهي شجرة عنـاب أو شوك. وهذا بدل اشتمال من شاطىء {أَن يٰمُوسَـىٰ} ف «أن» مفسرة {إِنِّى أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ} والعامة على كسر همـزة إنـي على تضمين النداء معنى القول. وقرىء بالفتح فهي معمولة لفعل مضمر تقديره أي يا موسى اعلم أني أنا الله،

{وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ} من يـدك. وهـذا معطـوف علـى «أن يـا موسى» مفسر أيضاً ل «نودي»، فألقاها فصارت ثعباناً، فتحركت رافعـة رأسـها {فَلَمَّـا رَءَاهَـا تَهْتَـزُّ كَأَنَّهَـا جَـآنٌّ} أي شـبيهة بالحيـة الصغيرة في سرعة حركتها مع غاية عظم جئتهـا ولـم تـدع شـجرة ولا صخرة إلا ابتلعت حتى إن موسى سمع صريرِ أسنانها، وقعقعـة الشجر، والصخر في جوفها {وَلَّىٰ مُدْبِراً} هارباً منها {وَلَمْ يُعَقِّبْ} أي لم يرجع، ولم يلتفت إليها قال الله: {يٰمُوسَىٰ أَقْبِلْ} إليها {وَلاَ تَخَفْ} منها {إِنَّكَ مِنَ ٱلآمِنِينَ} من شرها، فأخذها موسى فإذا هي عصاً كما كانت قال الله له: { سْلُكْ يَـدَكَ فِـى جَيْبِـكَ} أي أدخـل كفك اليمين في طوق قميصك وأخرجها {تَخْرُجْ بَيْضَآءَ} لهـا ضـوء كضوء الشمس {مِنْ غَيْرِ سُوۤءٍ} أي عيـب {وَ ضْلُمْ إِلَيْـكَ جَنَاحَـكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ} أي أدخل الكف اليمين التي حصـل فيهـا البيـاض فـي جيبك، فتعود إلى حالتها، فيزول عنك الفزع الذي حصل لك. وقيل: من أجل الخوف إذا أرهبت بها الناس.

وقال ابن عباس: إن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يضم يده إلى صدره ليذهب عنه الخوف عند معاينة الحيـة، فمعنـى من أجل الرهب، أي إذا أصابك الخوف فافعل ذل ك تجلـداً وضـبطاً لنفسك.

وقال مجاهد: وكل من فزع فضم جناحه إليه ذهب عنه الفزع. {فَذَانِكَ بُرْهَانٰنِ مِن رَّبِّـكَ إِلَـىٰ فِرْعَـوْنَ وَمَلَئِـهِ} أي فالعصـا واليـد حجتـان نيرتـان، كائنتـان مـن اللـه تعـالى، واصـلتان إلـى فرعـون وقومه، {إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ} أي خارجين عن عبوديـة اللـه، فكانوا أحقاء بأن نرسلك إليهم بهاتين المعجزتين الباهرتين. {قَـالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسـاً} هـو القبطـي {فَأَخَـافُ أَن يَقْتُلُـونِ} بمقابلتها، فيفوت المقصود بقتلي {وَأَخِـى هَـرُونُ هُـوَ أَفْصَـحُ مِنِّـى لِسَاناً} أي أبين مني كلاماً، {فَأَرْسِلْهِ مَعِىَ رِدْءاً} أي معيناً.

وقرأ نافع «رداً» بتنوين الدال وحذف الهمزة، {يُصَدِّقُنِى} أي أرسل معي أخي حتى يعاضدني على إظهار الحجة فربما حصل المقصود من تصديق فرعون. والمراد بتصديق هارون تلخيصه بلسان فصيح وجوه الدلائل. وجوابه عن الشبهات، ومجادلته الكفار.

وقرأ عاصم وحمزة بالرفع صفة ل «ردأ». ويروى عن أبي عمرو أيضاً. والباقون بالجزم وهو المشهور عن أبي عمرو {إِنِّى أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ} بالرسالة، لأن لساني لا يطاوعني عند المحاجة بسبب العقدة التي حصلت بسبب الجمرة. {قَالَ} الله تعالى: {سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ} أي سنقوي ظهرك بهارون ونعين أمرك به. {وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً} أي غلبة بالحجة في الحال، وغلبة في المملكة في ثاني الحال. {فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَايٰتِنَآ}. فالآية التي هي قلب العصا حية تمنع من وصول ضرر فرعون إلى موسى وهارون عليهما السلام، لأنهم إذا علموا أنه متى ألقاها صارت حية عظيمة، وإن أراد إرسالها إليهم أهلكتهم زجرهم ذلك عن الإقدام عليهما بسوء فصارت مانعة من وصلوهم إليهما بالقتل وغيره. {أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ} على فرعون وقومه بالبرهان: والدولة. وقوله: {بِئَايٰتِنَا} متعلق ب «لا يصلون» أو ب «الغالبون» {فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِأَايٰتِنَا} وهي العصا واليد، ففي كل منهما آيات عديدة {بَيِّنٰتٍ} أي واضحات الدلالة على صحة رسالة موسى من الله تعالى. {قَالُواْ مَا هَٰذَآ} أي الذي جئتنا به، {إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى} أي موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر، أو سحر كذب هو من تلقاء نفسك، لا إن الذي أظهرته معجزة صادرة من الله تعالى وإنما أنت تفتري على الله تعالى. {وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا} أي الذي تدعو إليه من التوحيد والذي تدعيه من الرسالة عن الله تعالى واقعاً {فِى ءَابَآئِنَا ٱلأَوَّلِينَ} وقد كذبوا فإنهم سمعوا بذلك على أيام يوسف عليه السلام.

{وَقَالَ} لهم {مُوسَىٰ} وقرأ ابن كثير بغير واو: {رَبِّى أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ}، أي ربي عالم بمن جاء بالرسالة من عنده، وبمن تكون له العاقبة المحمودة في الدنيا وهي أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان، وتلقي الملائكة بالبشرى عند الموت. فالدنيا خلقت مزرعة للآخرة ومجازاً إليها. والمقصود بالذات هو الثواب للمطيعين العابدين فيكون الثواب هو العاقبة الأصلية ولا اعتداد بعاقبة السوء، لأنها من نتائج أعمال الفجار ويكون العقاب إنما قصد بالتبعية، {إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ} أي يظفر المشركون بالنجاة والمنافع كما قال

القائل من بحر الطويل: فليتك تحلو والحياة مريـرة وليتـك ترضـى والأنام غضاب وليت الذي بيني وبينك عـامر وبينـي وبيـن العـالمين خراب {وَقَالَ فِرْعَـوْنُ}، بعـدما جمـع السـحرة لمعارضـة موسـى فكان من أمرهم ما كان: {يٰأَيُّهَا ٱلْملأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْـرِى فَأَوْقِدْ لِى يٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ} أي بعد اتخاذه لبناً ولم يقل فرعون. اطبخ لي الآجر لأنه أول من عمل الآجر فهو يعلـم صـنعته لهامـان. {فَ ٱجْعَل لِّى} منه {صَرْحاً} أي قصراً عالياً {لَّعَلِّيۤ أَطَّلِـعُ إِلَـىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ} أي أنظـر إليـه {وَإِنِّـى لأَظُنُّـهُ} أي موسـى عليـه السـلام {مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ} في ادعاء وجود إله غيري فليس فـي السـماء مـن إله.

واعلم أن عادة فرعون متى ظهرت حجة موسى يدفعها بشبهة يروجها على أغمار قومه، وهي قوله: لا دليل على وجود إله غيري، فلا أثبته بل أظن موسـى كاذبـاً فـي دعـواه، وذلـك نفـى إلـه غيـر نفسه. وقوله: ولا تكليف على الناس إلا أن يطيعوا ملكهم وينقادوا لأمـره، فهـذا هـو ادعـاؤه الإلهيـة لا ادعـاؤه كـونه خالقـاً للسـماء والأرض، ومن مكر فرعون ودهائه أنه لما دل سـيدنا موسـى عليـه السلام فرعون بقوله: رب السمٰوات والأرض أوهـم فرعـون ببنـاء أغمار قومه أن موسى قـال: إن إلهـه فـي السـماء وأمـر فوعـون وزيره ببناء الصرح. قيل: لما أمر فرعون ببناء الصرح جمع هامـان العمال حتى اجتمع عنده خمسون ألف بنَّاء سوى الأتباع والأجـراء، وأمر بطبخ الآجر والجص، ونجر الخشب، وسبك المسـامير، فبنـوا الصرح ورفعوه حتى ارتفع ارتفاعاً لم يبلغـه بنـاء أحـد مـن الخلـق فلما فرغوا منه ارتقى فرعـون فـوقه راكبـاً علـى الـبراذين، فـأمر بنشابة، فضـرب نحـو السـماء، فـردت إليـه وهـي ملطوخـة بالـدم فقال: قد قتلت إله موسى فبعـث اللَّـه جبريـل عليـه السـلام عنـد غروب الشمس، فضربه بجناحه، فقطعه ثلاث قطع: قطعة وقعـت على عسكر فرعون فقتلت منـه ألـف رجـل، وقطعـة وقعـت فـي البحر، وقطعة وقعت في المغرب. ولم يبق أحد من عماله إلا وقـد هلك {وَ سْتَكْبَرَ هُـوَ وَجُنُـودُهُ فِـى ٱلأَرْضِ} أي أرض مصـر {بِغَيْـرِ ٱلْحَـقِّ} أي ملتبسـين بغيـر اسـتحقاق، {وَظَنُّـوۤاْ} أي فرعـون وجمـوعه القبـط {أَنَّهُـمْ إِلَيْنَـا} أي إلـى حكمنـا {لاَ يُرْجَعُـونَ} بالنشور.

وقرأ نافع وحمزة والكسائي بفتح الياء وكسر الجيم فهو من الرجـوع. وقـرأ البـاقون بضـم اليـاء وفتـح الجيـم فهـو مـن الرجـع {فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُ} عقب ما بلغوا أقصى الغايات فـي العتـو، وفـي هذا استحقار لهم واستقلال لعددهم، وإن كانوا كبيراً كثيراً وتعظيم

لشأن الأخذ فشبههم اللَّه تعالى بحصيات أخذهن آخذ في كفه، فطرحهن في البحر وذلك قوله تعالى: {فَنَبَذْنٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ} أي فألقيناهم في البحر.

قيل: هو بحر يسمى أسافاً من وراء مصر حكاه ابن عساكر {فَٱنظُرْ} يا أشرف الخلق {كَيْفَ كَانَ عٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ} أي كيف صار آخر أمر المشركين وبينه لقومك ليعتبروا به. {وَجَعَلْنٰهُمْ أَئِمَّةً} أي رؤساء {يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ} أي إلى ما يؤدي إلى النار من الكفر والمعاصي.

وقرأ أبو عمر ونافع وابن كثير «أيمة»، بإبدال الهمزة الثانية ياء {وَيَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ لاَ يُنصَرُونَ} فلا يمكن التخلص من العقاب الذي سينزل بهم، لأنهم بلغوا أقصى النهايات في باب المعاصي حتى صاروا قدوة للضلال.

{وَأَتْبَعْنٰهُم فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً} أي إبعاداً من الرحمة، ولا تزال تلعنهم الملائكة والمؤمنون خلفاً عن سلف، {وَيَوْمَ القِيٰمَةِ هُمْ مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ} أي من المطرودين عن الرحمة ومن الموسومين بعلامة منكرة كزرقة العيون وسواد الوجوه {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتٰبَ} أي التوراة {مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلأُولَىٰ} هم أقوام نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام {بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ}، أي حال كون الكتاب أنواراً لقلوب الناس، فإنه يستبصر به في باب الدين {وَهُدًى} إلى كل خير، فإن الكتاب يستدل به والمتمسك به يفوز بمطلوبه من الثواب {وَرَحْمَةً} لأن الكتاب من نعم اللَّه تعالى على من تعبد به فكل من عمل به ينال رحمة اللَّه تعالى: {لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} أي ليكونوا على حال يرجى منه التذكر.

وروى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما أهلك اللَّه تعالى قرناً من القرون بعذاب من السماء ولا من الأرض منذ أنزل التوراة غير أهل القرية التي مسخها قردة».

{وَمَا كُنتَ} يا أفضل الخلق {بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ} أي في المكان في شق الغرب من جبل الطور، وهو المكان الذي وقع فيه ميقات موسى عليه السلام الذي رأى فيه النار، {إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلأَمْرَ} أي حين أوحينا إلى موسى أمر الرسالة حيث أمرنا بالإتيان إلى فرعون وقومه {وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ} لموسى وما جرى عليه {وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُوناً} أي ولكنا خلقنا بين زمانك وزمان موسى أمماً كثيرة، {فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ} فتغيرت الأحكام، وخفيت عليهم الأخبار لا سيما على آخرهم، فاقتضى الحال إظهار الأحكام الجديدة، فأوحينا إليك، فإخبارك عن هذه الأشياء من غير حضور لها دلالة ظاهرة على نبوتك، {وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِى أَهْلِ

مَدْيَنَ} أي وما كنت يا سيد الرسل مقيماً في أهل مدين من شعيب والمؤمنين به {تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايٰتِنَا} أي تقرأ على أهل مدين آياتنا الناطقة بالقصة على طريق التعلم منهم. ويقال: وما كنت مقيماً في أهل مدين وقت تلاوتك القرآن على قومك أهل مكة، تخبرهم قصة أهل مدين مع موسى، ومع شعيب حتى تنقلها بطريق المشافهة، وإنما أتتك بطريق الوحي الإلهي فإخبارك لأهل مكة إنما هو عن وحي لا عن مشاهدة للمخبر عنه، وذلك قوله تعالى: {وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} إياك، وموحين إليك تلك الآيات ونظائرها {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا} أي وما كنت يا سيد الخلق بجانب جبل زبير حين ناديناً موسى ليلة المناجاة والتكليم لما أتى الميقات مع السبعين لأخذ التوراة. ويقال: إذ ناديناً أمتك. قال وهب: لما ذكر اللّه لموسى فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال: رب أرنيهم. قال: إنك لن تدركهم وإن شئت أسمعتك أصواتهم. قال: بلى يا رب. فقال اللّه تعالى: يا أمة محمد، فأجابوه من أصلاب آبائهم، فأسمعه اللّه تعالى أصواتهم، ثم قال: أجبتكم قبل أن تدعوني، {وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} أي ولكن أرسلنا بالقرآن لرحمة عظيمة كائنة منا لك وللناس.

وقرأ عيسى بن عمر بالرفع أي لكن هي رحمة. {لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ} أي لكي تخوف بالقرآن من العقاب على المعصية قوماً لم يأتهم رسول مخوف قبلك لوجودهم في فترة بينك وبين عيسى، وهي خمسمائة وخمسون سنة أو بينك وبين إسماعيل بناء على القول بأن دعوة موسى وعيسى كانت مختصة ببني إسرائيل {لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} أي يتعظون بإنذارك {وَلَوْلآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءايٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ} أي ولولا أنهم قائلون بلسان الحال إذا عوقبوا يوم القيامة بسبب اكتسابهم في كفرهم أنواع المعاصي، لِمَ لَم ترسل إلينا رسولاً مع الكتاب قبل هذا العذاب، فيتسبب عن إرسال رسولك أن نتبع كتابك، ونصدق بكل ما أتى به رسولك؟ ما أرسلناك إليهم وإنما أرسلنا الرسول قطعاً لمعاذيرهم بالكلية، أي لكي لا يكون لهم حجة علينا،

{فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا} أي فلما جاء الرسول بالكتاب المعجز أهل مكة {قَالُواْ} أي كفار مكة تعنتاً: {لَوْلآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ} أي هلا أعطي محمد مثل ما أعطي موسى من الكتاب المنزَّل جملة واحدة ومن قلب العصا حية، ومن اليد البيضاء وغير ذلك قال تعالى رداً عليهم: {أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ} أي ألم يكفر كفار مكة من قبل القول بما أعطى

موسى من الكتاب كما كفروا بهذا القرآن، فإن كفار قريش كانوا منكرين لجميع النبوات، فلما طلبوا من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم معجزات سيدنا موسى عليه السلام رد اللَّه تعالى عليهم بذلك القول، لأنه لا غرض لهم من هذا الاقتراح إلا التعنت {قَالُواْ} أي كفار مكة: {سِحْرَانِ تَظَهَرَا}.
وقرأ الكوفيون بكسر السين وسكون الحاء والمعنى: أن ما أوتي محمد وما أتي موسى سحران تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر. وقرأ الباقون «ساحران» بصيغة اسم الفاعل، أي محمد وموسى ساحران أعان كل منهما صاحبه على سحره.
روي أن مشركي مكة بعثوا رهطاً إلى يهود المدينة ليسألهم عن شأن محمد صلى الله عليه وسلم فسألوهم عنهم فقالوا: إنا نجده في التوراة بصفته فلما رجع الرهط إليهم وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا: إن موسى كان ساحراً كما أن محمداً ساحر فقال تعالى في حقهم: أولم يكفروا بما أوتي موسى {وَقَالُواْ} أي كفار مكة {إِنَّا بِكُلٍّ} من التوراة والقرآن أو من محمد وموسى {كَٰفِرُونَ} غير مصدقين {قُلْ} لهم تعجيزاً لهم وتوبيخاً: {فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ}، أي إذا لم تؤمنوا بهذين الكتابين وقلتم فيهما ما قلتم فأتوا بكتاب من عند اللَّه هو أوضح في هداية لخلق منهما، {أَتَّبِعْهُ} أي فإن أتيتم به أتبعه {إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ}. أي في قولهم أن التوراة والقرآن سحران مختلفان {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ} أي فإن لم يمكنهم أن يأتوا بكتاب أفضل منهما فاعلم أنهم ليس لهم مستند وإنما لهم محض هواهم الفاسد. {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ ٱتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ} أي لا أضل منه لأنه أضل من كل ضال، {إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ} لأنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى، والأعراض عن الآيات الهادية إلى الحق، {وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ} أي أنزلنا القرآن منجماً يتصل بعضه ببعض ليكون ذلك أقرب إلى تنبيه كفار مكة، فإنهم كل يوم يطلعون على فائدة، فيكونون عند ذلك أقرب إلى التذكر أو جعلنا القرآن أنواعاً من المعاني من قصص وعبر ونصائح، {لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} فيؤمنون بما في القرآن. {ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِ} أي من قبل مجيء القرآن {هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ} وهم مؤمنو أهل الكتاب {وَإِذَا يُتْلَىٰ}، أي القرآن {عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ} أي القرآن {ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ}، أي من قبل قراءة القرآن علينا {مُسْلِمِينَ}، أي مخلصين لله بالتوحيد مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم {أُوْلَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ} بإيمانهم بمحمد قبل بعثته وبعد بعثته {بِمَا صَبَرُواْ}

على طعن الكفار وأذاهم متى بينوا صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتابهم ودخلوا في دينه.

قال مقاتل: هؤلاء لما آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم شتمهم المشركون فصفحوا عنهم فلهم أجران: أجر على الصفح، وأجر على الإيمان.

وقال السدي: إن اليهود عابوا عبد اللَّه بن سلام وشتموه وهو يقول: سلام عليكم. {وَيَدْرَؤُنَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ} أي ويدفعون بالطاعة المعصية وبالعفو الأذى، وبالامتناع من المعاصي فإن نفس الامتناع حسنة {وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ}. وقال سعيد بن جبير: وهم أربعون رجلاً قدموا مع جعفر من الحبشة على النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة قالوا له: يا نبي اللّه، إن لنا أموالاً فإن أذنت انصرفنا فجئنا بأموالنا، فواسينا بها المسلمين، فأذن لهم، فانصرفوا، فأتوا بأموالهم، فواسوا بها المسلمين، فنزلت هذه الآيات الثلاث.

{وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ} أي ما لا ينفع في دين ودنيا {أَعْرَضُواْ عَنْهُ} أي اللغو {وَقَالُواْ} للاغين: {لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ} أي لنا ديننا ولكم دينكم، {سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ} وهو سلام إعراض وفراق، لا سلام تحية فلا نقابلكم بمثل ما فعلتم بنا، {لاَ نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ}. أي لا نطلب صحبتهم ولا نجازيهم بالباطل على باطلهم فإن المشركين كانوا يسبون مؤمني أهل الكتاب ويقولون: تباً لكم تركتم دينكم فيعرضون عنهم ولا يردون عليهم. {إِنَّكَ} يا أشرف الخلق {لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ}. قال الزجاج: أجمع المسلمون على أن هذه الآية نزلت في أبي طالب، وذلك أن أبا طالب قال عند قرب موته: يا معشر بني عبد مناف أطيعوا محمداً وصدقوه، تفلحوا، وترشدوا فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا عم تأمرهم بالنصح لأنفسهم وتدعها لنفسك قال: فما تريد يا ابن أخي؟ قال: أريد منك كلمة واحدة فإنك في آخر يوم من أيام الدنيا أن تقول: لا إله إلا اللّه أشهد لك بها عند اللَّه تعالى.

قال: يا ابن أخي قد علمت أنك صادق ولكن أكره أن يقال جزع: عند الموت ولولا أن يكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة ومسبة بعدي لقلتها ولأقررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدة وجدك ونصحك، ولكني سوف أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب، وهاشم، وعبد مناف، ثم مات اه. وهذه الآية لا دلالة في ظاهرها على كفر أبي طالب، لأن اللّه هو الذي هداه بعد أن أيس منه النبي صلى الله عليه وسلم. أما الأحاديث الدالة على عذابه

ودخوله النار، فهو إما لترك النطق بالشهادتين أو لغيره، وذلك إن لم يعتد بما نطق به من الشهادة، فالعذاب يكون لترك النطق بالشهادة وإن اعتد به فالعذاب يكون في مقابلة ترك فرض آخر ومما يدل على أنه آمن برسول اللّه صلى الله عليه وسلم أنه قد وصى قريشاً عند موته باتباع رسول الله. وقال: واللّه لقد دانت له العرب والعجم فلا يسبقنكم إليه سائر العرب فيكونوا أسعد به منكم، فعلى هذا قد حصل منه التصديق بقلبه. وعن عبد اللّه بن ثعلب العذري أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دعا بني عبد المطلب فقال: لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد وما اتبعتم أمره فاتبعوه وأعينوه ترشدوا، وأنه قال: ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً رسولاً كموسى صح ذلك في الكتب، وأنه قال عند قرب موته مخاطباً لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم: ودعوتني وعلمت أنك صادق ولقد صدقت وكنت قبل أمينا ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذاك مبينا واعلم أنه لو ترك شخص النطق بالشهادتين بعد المطالبة لا لإباء عن الإسلام ولا لعناد له، بل لخوف من ظالم أو من ملامة، أو مسبة عند من يعظم ذلك، وقلبه مطمئن بالإيمان فلا يكون كافراً بينه وبين اللّه، بل لو تكلم بالكفر والحالة هذه لا يضره.

وقال الحليمي: لا خلاف أن الإيمان ينعقد بغير كلمة لا إله إلا اللّه حتى لو قال: لا إله غير اللّه ولا إله ما عدا اللّه، أو ما سوى اللّه، أو ما من إله إلا اللّه، أو لا إله إلا الرحمٰن، أو لا رحمٰن إلا اللّه أو إلا البارىء فهو كقوله: لا إله إلا اللّه اه. وكذا قال: محمد نبي اللّه أو مبعوثه أو نحو ذلك، أو ما يؤدي إلى ذلك باللغات العجمية صح إسلامه وحكم بكونه مسلماً وفي الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: «آدم ومن دون تحت لوائي وإن عبد المطلب يعطي نور الأنبياء وجمال الملوك».

وعن جعفر بن محمد الصادق قال: ويحشر عبد المطلب له نور الأنبياء وجمال الملوك، ويحشر أبو طالب في زمرته، أي إنما يعطى عبد المطلب نور الأنبياء، لأنه كان على التوحيد، ولأنه مستقل لا تابع، وهو من أهل الفترة وإنما يعطى جمال الملوك، لأنه كان سيد قريش في زمانه فهو في ذلك ملحق بالملوك الذين عدلوا وما ظلموا، ومما يدل على أن أبا طالب مؤمن ما روي عن إسحاق بن عبد اللّه بن الحرث قال: قال العباس لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم: أترجو لأبي طالب خيراً؟ قال: «كل الخير أرجو من ربي» رجاؤه صلى الله عليه وسلم محقق ولا يرجو كل

الخير إلا لمؤمن. وما روي عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: «إذا كان يوم القيامة شفعت لأبي وأمي وعمي أبي طالب، وأخ كان لي في الجاهلية». أورده المحب الطبري أي وهو الأخ من الرضاعة. وفي الحديث: «إني ادخرت شفاعتي جعلتها لمن مات من أمتي لا يشرك باللَّه شيئاً». اه. وما أخبر صلى الله عليه وسلم أن أبا طالب أخرج من طمطام النار وغمراتها إلى ضحضاح، منها وخفف عنه من عذابها وجعل أخف أهل النار عذاباً ألبس نعلين من النار، فما مست النار إلا تحت قدميه، ولو كان كافراً لكان عذاب الكفر فوق عذاب الكبائر قطعاً، ولو وجد مؤمن من عاص أخف عذاباً من أبي طالب لزم الخلف في قوله صلى الله عليه وسلم حيث جعله أخف أهل النار على الإطلاق فوجب أن يكون عذابه كعذاب عصاة المؤمنين في مقابلة كبيرة كذا في رسالة السيد رسول البر زنجي. {وَقَالُواْ} أي أهل مكة: {إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ} أي إن نوحد اللَّه معك يا محمد نطرد من مكة.

روي أن الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف قال لرسول اللَّه صلى الله عليه وسلم إنا نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب أن يتخطفونا من أرضنا، أي أن يجتمعوا على محاربتنا ويخرجونا من مكة. فرد اللَّه تعالى عليهم بقوله تعالى: {أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً ءَامِناً} أي ألم نجعل مكانهم حرماً ذا أمن {يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ} أي يحمل إليه من كل ناحية ألوان كل شيء من الثمرات.

وقرأ نافع بالتاء الفوقية. {رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا} فإذا كان حالهم ما ذكر مع كونهم عبدة أصنام، فكيف يخافون أن نسلط عليهم الكفار إن ضموا إلى حرمة؟ البيت، حرمة الإيمان ف «رزقاً» إما مصدر مؤكد ل «يجبى» أو مفعول له، أو حال من «ثمرات» بمعنى مرزوق. {وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} إنا جعلنا الحرم آمناً وإنا سقنا إليه الرزق من كل جهة {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا} أي وكثير من أهل قرية كانت حالهم كحالهم في إدرار الرزق حتى طغوا بالنعمة في زمن حياتها فأهلكناهم وخربنا ديارهم {فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ} أي من بعد هلاكهم {إِلاَّ قَلِيلاً} أي إلا في زمن قليل يسكنها المسافرون ومارو. الطريق {وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ} أي المالكين لها بعد هلاك أهلها، {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ} أي مهلك أهل القرى، {حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا} أي في أعظمها {رَسُولاً}. فعاد اللَّه أن يبعث الرسل في المدن، لأن أهل أفطن وغيرهم يتبعهم {يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا} الدالة على الحق

والداعية إليه بالترغيب والترهيب، وذلك لقطع المعذرة {وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ} أي وما كنا مهلكين لأهل القرى بعدما بعثنا في أشرافهم رسولاً يدعوهم إلى الحق في حال من الأحوال إلا حال كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا، وبالكفر بآياتنا.

{وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا} أي وما أعطيتم يا معشر قريش من أسباب الدنيا كالمال والخدم، فهو شيء عادته أن ينتفع به ويتزين به أيام حياتكم. وقرىء «فمتاعاً الحياة» بنصب الكلمتين على المصدر، وعلى الظرف أي يتمتعون متاعاً في الحياة الدنيا. {وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ} أي فمنافع الآخر لمن آمن باللّه وبرسوله أعظم وأدوم مما لكم في الدنيا، فنصيب كل أحد في الآخرة بالقياس إلى منافع الدنيا كلها كالذرة بالقياس إلى البحر فكيف قلتم تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا. {أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} أي ألا تتفكرون فلا تعقلون أن الدنيا فانية والآخرة باقية {أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاَقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ}؟ أي أفمن وعدنا وعداً بالجنة فهو مدرك الموعود به من غير شك كمن أعطيناه المال والخدم في الدنيا، ثم هو يوم القيامة نحضره للعذاب؟

قال محمد بن كعب: نزلت هذه الآية في حمزة وعلي، وفي أبي جهل. وقال غيره: في حمزة أو عثمان بن عفان وفي أبي جهل. {وَيَوْمَ يُنَٰدِيهِمْ} معطوف على يوم القيامة {فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ}؟ أي ويوم ينادي اللّه المشركين فيقول توبيخاً لهم: أين الذين عبدتموهم من دوني، وأثبتم لهم شركة في استحقاق العبادة، تزعمون أنهم يشفعون لكم، أين هم لينصروكم من هذا الذي نزل بكم؟ {قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ} أي الذين ثبت عليهم مدلول قوله تعالى: {لاَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ} (السجدة:31) {رَبَّنَا هَٰؤُلاۤءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا}.

قال أبو علي: «الذين أغوينا» خبر لاسم الإشارة، و «أغويناهم» مستأنف. والمعنى: هؤلاء هم الذين أضللناهم فصاروا أتباعاً آثروا الكفر على الإيمان، فضلوا باختيارهم ضلالاً مثل ضلالنا باختيارنا وكنا سبباً في كفرهم فقبلوا منا وما أكرهناهم عليه {تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ} منهم ومن عقائدهم وأعمالهم {مَا كَانُوۤاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ} أي ما كانوا يطيعوننا، وإنما كانوا يطيعون أهواءهم، {وَقِيلَ} للكفار تبكيتاً لهم: { ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ} أي استغيثوا بآلهتكم التي عبدتموها في الدنيا لتنصركم وتدفع عنكم {فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ} أي فاستغاثوا بهم فلم يجيبوهم ولا انتفعوا بهم

{وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ} أي أبصر المشركون العذاب لو أنهم يبصرون شيئاً، فإنهم لما خاطبهم اللَّه تعالى بقوله: { ٱدْعُواْ شُرَكَاءكُمْ} اشتد الخوف عليهم حتى يصيروا بحيث لا يبصرون شيئاً. أو المعنى: لما قيل: { ٱدْعُواْ شُرَكَاءكُمْ} دعوا الأصنام مراراً كثيرة حتى كان الأصنام يشاهدون العذاب لو كانوا من الأحياء المهتدين. أو المعنى: وعلم الكفار حقيقة هذا العذاب في الدنيا لو كانوا يهتدون.

قال الرازي: وهذه الوجوه عندي خير من الوجوه المبنية على أن جواب «لو» محذوف. {وَيَوْمَ يُنَٰدِيهِمْ} عطف ما قبله سئلوا أولاً: عن إشراكهم. وثانياً: عن جوابهم للرسل الذين نهوهم عن ذلك {فَيَقُولُ} اللَّه تعالى: {مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ} إليكم بما دعوكم {فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلأَنبَآءُ يَوْمَئِذٍ} أي فخفيت عليهم الأخبار يوم إذ سئلوا عن ذلك {فَهُمْ لاَ يَتَسَآءَلُونَ} أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب النافع، لأنهم يتساوون جميعاً في العجز عن الجواب المنجي لفرط الدهشة، فلا نطق ولا عقل. {فَأَمَّا مَن تَابَ} من الشرك {وَءَامَنَ} بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم {وَعَمِلَ صَٰلِحاً} أي خالصاً فيما بينه وبين اللَّه {فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ} أي فليطمع في الفلاح والنجاة من العذاب {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ} أن يخلقه {وَيَخْتَارُ} ما يشاء اختياره. {مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ} أي ليس لهم الاختيار المؤثر عنهم، وليس لهم أن يختاروا على اللَّه أن يفعل.

قال العلماء: لا ينبغي لأحد أن يقوم على أمر من أمور الدنيا إلا حتى يسأل اللَّه تعالى الخيرة في ذلك بأن يصلي صلاة الاستخارة بالكيفية المشهورة، وأهل الرضا حطوا الرحال بين يدي ربهم، وسلموا الأمور إليه بصفاء التفويض، فلا يرضيهم، إلا ما يرضيه ولا يريدون إلا ما يريده، فيمضيه، وروي أن هذه الآية نزلت في ش أن الوليد بن المغيرة حين قال: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ويقصد بذلك الوليد بن المغيرة، أو أبا مسعود الثقفي، فأجاب اللَّه تعالى عنه بقوله تعالى: {وَرَبُّكَ} إلخ، والمعنى: لا يبعث اللَّه تعالى الرسل باختيار المرسل إليهم. {سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ} أي تنزيهاً له تعالى عن أن يزاحم اختياره تعالى اختيار. والمقصود أن يعلم العبد أن الإعزاز والإذلال مفوَّض إليه تعالى ليس لأحد في الخلق، والاختيار شركة له تعالى {وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ} من عداوة رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم {وَمَا يُعْلِنُونَ} من الطعن في الرسول بألسنتهم.

{وَهُوَ ٱللَّهُ لاۤ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ} أي وهو المستحق للعبادة لا أحد يستحقها إلا اللّه. {لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلأُولَىٰ وَٱلآخِرَةِ} لأن الثواب غير واجب عليه، بل هو تعالى، يعطيه فضلاً وإحساناً منه تعالى، فله الحمد في الدنيا والآخرة لأنه معطي النعم كلها، فيحمده المؤمنون في الآخرة فرحاً بفضله، والتذاذاً بحمده بقولهم: الحمد للّه الذي أذهب عنا الحزن، الحمد للّه الذي صدقنا وعده {وَلَهُ ٱلْحُكْمُ} النافذ في كل شيء من غير مشاركة فيه لغير في الدنيا والآخرة {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} بالخروج من القبور. {قُلْ} يا أفضل الخلق لأهل مكة: {أَرَأَيْتُمْ} أي أخبروني {إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَداً} أي دائماً {إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ} ، بإسكان الشمس تحت الأرض، أو تحريكها حول الأفق غير المرئي {مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ} يخرجكم من مشقة الظلام؟ {أَفَلاَ تَسْمَعُونَ} هذا الكلام الحق سماع تفهم تطيعون من يفعل ذلك {قُلْ} لهم: {أَرَءَيْتُمْ} أي أخبروني {إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ} بإسكان الشمس في وسط السماء أو تحريكها على مدار فوق الأفق {مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ} ، استراحة عن متاعب الأشغال؟ {أَفلاَ تُبْصِرُونَ} ، هذه المنفعة الظاهرة ولا تنتظرون بقلوبكم ما أنتم عليه من الخطأ {وَمِن رَّحْمَتِهِ} أي نعمته تعالى {جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ} لأغراض ثلاثة {لِتَسْكُنُواْ فِيهِ} أي في أحدهما وهو الليل، {وَلِتَبتَغُواْ مِن فَضْلِهِ} في الآخر، وهو النهار بأنواع المكاسب. ففي هذا مدح للسعي في طلب الرزق كما ورد في الحديث: «الكاسب حبيب اللّه وهو لا ينافي التوكل». {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} أي لكي تشكروا على المنفعتين معاً. {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ} أي أذكر يوم ينادي اللّه المشركين يوم القيامة {فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} ؟ أي أين الذين ادعيتم إلهيتهم لتخلصهم من الهلاك؟ {وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً} أي أخرجنا من كل أمة نبياً يشهد عليهم بما كانوا عليه في كل زمان، فيدخل فيه الأحوال التي في أزمنة الفترات، وفي الأزمنة التي حصلت بعد سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم {فَقُلْنَا} لهم: {هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ} على صحة ما كنتم تدينون به {فَعَلِمُوۤاْ} أي كل أمة يومئذ {أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ} أي أن حقيقة الإلهية للّه تعالى لا يشاركه فيها أحد {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} أي زال عنهم ما كانوا يعبدون في الدنيا بالكذب .

{إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ}. وروى أبو إمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كان قارون من السبعين المختارين الذين سمعوا كلام اللّه تعالى» قيل هو ابن عم موسى

وعن ابن عباس كان ابن خالته، ثم قيل: إنه كان يسمى المنور ولحسن صورته وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة، إلا أنه نافق كما نافق السامري {فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ} ، أي طلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت أمره، كما قاله القفال، وقال ابن عباس: تكبر عليهم اه ، ثم حسد موسى على رسالته، وهارون على إمامته في الذبح فكفر بعدما آمن بهما بسبب كثرة ماله. ويروى أن موسى عليه السلام لما قطع البحر جعل الحبورة والقربان لهارون فقال قارون: يا موسى لك الرسالة، ولهارون الحبورة وهي إمامة الذبح ولست في شيء ولا أصبر أنا على هذا. فقال موسى عليه السلام: والله ما صنعت ذلك لهارون، ولكن جعله الله له. فقال: لا والله لا أصدقك أبداً حتى تأتيني بآية أعرف بها أن الله جعل ذلك لهارون فأمر موسى عليه السلام بني إسرائيل أن يجيء كل رجل منهم بعصا، فجاءوا بها، فحزمها موسى، فألقاها في قبة له، فباتوا يحرسون عصيهم، فأصبحت عصا هارون تهتز لها ورق أخضر، وكانت من شجر اللوز، فقال موسى: يا قارون أما ترى ما صنع الله لهارون. فقال قارون: والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر. فاعتزل قارون ومعه ناس كثير من أتباعه من بني إسرائيل، فما كان يأتي موسى عليه السلام ولا يجالسه {وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ} أي وأعطينا قارون من الأموال المدخرة الذي أن مفاتيح صناديقه لتثقل الجماعة الكثيرة الأقوياء وأخرج الدينوري عن خيثمة قال: قرأت في الإنجيل أن مفاتيح كنوز قارون وقر ستين بغلاً كل مفتاح منها على قدر إصبع، لكل مفتاح منها كنز {إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ} أي المؤمنون من بني إسرائيل {لاَ تَفْرَحْ} بكثرة المال فالفرح بالدنيا من حيث إنها دنيا مذموم مطلقاً. {إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ} بزخارف الدنيا {وَ ٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَاكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلأٰخِرَةَ} أي اطلب ثواب الله تعالى بسبب المال بأن تصرفه إلى ما يؤديك إلى الجنة كصدقة وصلة رحم، وإطعام جائع، وكسوة عار ونفقة على محتاج {وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا} أي لا تترك العمل في الدنيا للآخرة، وخذ ما تحتاجه من الدنيا وأخرج الباقي كما في الحديث: «اغتنم خمساً: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك». {وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ} أي وأحسن إلى عباد الله تعالى إحساناً كإحسان الله تعالى إليك فيما أنعم إليك، فيدخل في الإحسان الإعانة بالمال والجاه، وطلاقة الوجه وحسن اللقاء وحسن الذكر. {وَلاَ تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلأَرْضِ} أي لا تطلب الفساد بعمل المعاصي

في الأرض {إِنَّ ٱللَّـهَ لاَ يُحِـبُّ ٱلْمُفْسِـدِينَ} أي أنـه تعـالى يعـاقب المفسدين بسوء أفعالهم. {قَـالَ} قـارون مجيبـاً لناصحه: {إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيۤ} أي أنمـا أعطيـت هـذا المـال حـال كـوني متصفاً بالعلم الذي عندي، وفضلت به على الناس بالمـال والجـاه، فكان ذلك لفضل علمي بالتوراة، واستحقاقي لذلك، أي لأنـه أقـرأ بني إسرائيل للتوراة كما قاله قتادة ومقاتل والكلبي ا ه.

وقال سعيد بن المسيب والضحاك: كان موسى عليه السلام أنزل عليه علـم الكيميـاء مـن السـماء، فعلّـم قـارون ثلـث العلـم، ويوشع ثلثه، وكالب ثلثه، فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه، فكان يأخذ الرصاص فيجعله فضة، والنحـاس فيجعلـه ذهبـاً، وكان ذلك سبب كثرة أمواله. {أَوَلَمْ يَعْلَـمْ أَنَّ ٱللَّـهَ قَـدْ أَهْلَـكَ مِـن قَبْلِهِ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَـنْ هُـوَ أَشَـدُّ مِنْـهُ قُـوَّةً وَأَكْثَـرُ جَمْعـاً} أي أعَلِـم قارون ما ادعاه، ولم يعلم أن اللـه قـد أهلـك مـن هـو أقـوى منـه، وأغنى، وأكثر جماعة حتى لا يغتر بكثرة مـاله وقـوته؟ {وَلاَ يُسْـأَلُ عَـن ذُنُـوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُـونَ}، أي لا يسـأل اللـه عـن صـفة ذنـوب المجرميـن وعـددها إذا أراد أن يعـاقبهم لأنـه تعـالى عـالم بكـل المعلومات، {فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ} أي فخـرج قـارون يـوم السبت متزيناً مع أتباعه كانوا أربعة آلاف على زيه، وكان عن يمينه ثلاثمائـة غلام، وعـن يسـاره ثلاثمائـة جاريـة بيـض عليهـن الحلـي والديباج، وكانت بغلته شهباء سرجها من ذهب وكان علـى سـرجها الأرجوان بضم الهمزة والجيم، وهو قطيفة حمراء وكانت خيولهم وبغالهم متحلية بالديباج الأحمر، ومعهم ألوان السلاح.

وقال ابن زيد: خرج في تسعين ألفاً عليهم المعصفرات وهو أول يوم رؤي فيه المعصفر. {قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيـدُونَ ٱلْحَيَـوٰةَ ٱلـدُّنْيَا} من المؤمنين جرياً على طريقـه الجبلـة البشـرية مـن الرغبـة فـي السعة {يـا} للتنـبيه {يٰلَيْـتَ لَنَـا مِثْـلَ مَـآ أُوتِـىَ قَـٰرُونُ} مـن هـذه الأموال وهذه الزينة {إِنَّهُ} أي قارون {لَذُو حَظٍّ عَظِيـمٍ}. أي لـذو بخت وافر من الدنيا. {وَقَـالَ ٱلَّـذِينَ أُوتُـواْ ٱلْعِلْـمَ} بـأحوال الـدنيا والآخرة للراغبين في الدنيا: {وَيْلَكُمْ} أي ضيق الله عليكـم الـدنيا. وهذا زجر عن ذلك التمني {ثَـوَابُ ٱللَّـهِ} فـي الآخـرة {خَيْـرٌ لِّمَـنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحاً} مـن هـذه النعـم، لأن الثـواب منـافع عظيمـة وخالصة عن شوائب المضار، ودائمـة، وهـذه النعـم العاجلـة علـى الضد من هذه الصفات الثلاثـة. {وَلاَ يُلَقَّاهَـآ إِلاَّ ٱلصَّـٰبِرُونَ} أي ولا يعطى هذه الطريقة التي هي الإيمان والعمل الصالح إلا الصابرون على أمر الله، والمرازي. أو ولا يعطى الجنـة الـتي هـي الثـواب إلا الصابرون على مخالفات النفس وموافقات الشريعة.

{فَخَسَفْنَا بِهِ} أي بقارون {وَبِدَارِهِ ٱلأَرْضَ}. روي أن قارون كان يؤذي نبي الله موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التي بينهما حتى نزلت الزكاة، فصالحه عن كل ألف دينار على دينار، وعن كل ألف درهم على درهم، وعن كل ألف شاة على شاة، وكذلك سائر الأشياء، ثم رجع إلى بيته فحسبه، فوجده شيئاً كثيراً، فلم تسمح نفسه بذلك، فجمع بني إسرائيل وقال: إن موسى يريد أن يأخذ أموالكم، فقالوا: أنت سيدنا وكبيرنا، فمرنا بما شئت. قال: نبرطل فلانة البغي كي تقذف موسى بنفسها فإذا فعلت ذلك رفضه بنو إسرائيل، فدعوها، فجعل قارون لها طشتاً من ذهب مملوءاً ذهباً، فلما كان يوم عيد قام موسى خطيباً فقال: يا بني إسرائيل من سرق قطعناه، ومن زنى وهو غير محصن جلدناه، وإن كان محصناً رجمناه. فقال قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا قال: إن بني إسرائيل يقولون: إنك فجرت بفلانة قال موسى: ادعوها فلما جاءت قال لها موسى: يا فلانة أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء، وسألها بالذي فلق البحر لبني إسرائيل، وأنزل التوراة ألا تصدقين فتداركها الله بالتوفيق، فقالت: كذبوا بل جعل لي قارون جعلاً على أن أقذفك بنفسي، فخرَّ موسى ساجداً يبكي وقال: يا رب، إن كنت رسولك فاغضب لي. فأوحى الله تعالى إليه إني أمرت الأرض أن تطيعك فمرها بما شئت. فقال: يا بني إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمن كان معه فليلزم مكانه، ومن كان معي فليعتزل عنه، فاعتزلوا جميعاً غير رجلين، ثم قال موسى: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى الركب، ثم قال: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط، ثم قال: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق، وهم في كل ذلك يتضرعون إلى موسى ويقول له: قارون بالله والرحم، وموسى عليه السلام لا يلتفت إليه لشدة غضبه، ثم قال: يا أرض خذيهم. فانطبقت الأرض عليهم، فأصبحت بنو إسرائيل يتناجون بينهم؛ إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه، فدعا الله تعالى حتى خسف بداره وأمواله. {فَمَا كَانَ لَهُ} أي لقارون {مِن فِئَةٍ} أي جماعة {يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ ٱللَّهِ} أي غيره يدفع العذاب عنه {وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ} أي من الممتنعين بأنفسهم من عذاب الله تعالى، {وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُ بِٱلأَمْسِ} أي وصار الذين تمنوا مثل رتبة قارون من الدنيا من زمان قريب، {يَقُولُونَ} متنبهين على خطأهم في تمنيهم لمَّا شاهدوا الخسف {وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ} أي أعجب أنا، لأن الله يوسع المال على من يشاء من عباده؛ وهو مكر منه تعالى كما

كان لقارون ويقتر على من يشاء؛ وهو نظر منه تعالى فإن القوم لما شاهدوا ما نزل بقارون من الخسف تندموا على تمنيهم حيث علموا أن بسط الرزق لا يكون لكرامة الرجل على الله، ولا تضييقه لهوانه عنده فتعجبوا من أنفسهم كيف وقعوا في مثل هذا الخطأ و «وي» اسم فعل بمعنى: أعجب أنا، والكاف للتعليل.

وقال أبو الحسن و «وي» اسم فعل، والكاف حرف خطاب و «أن» على إضمار اللام. وقيل: «وي» اسم فعل، و «كأن» للتحقيق أي أعجب أنا وقد علمت أن كلاً من البسط والقبض بمقتضى مشيئته تعالى، وليس البسط للكرامة والقبض للهوان {لَوْلاَ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا} بالإيمان والرحمة {لَخَسَفَ بِنَا} كما خسف بقارون {وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ}.

وقيل «وي» كلمة للزجر، والكاف حرف خطاب، و «أن» معمولة لمحذوف أي انزجر عن تمنيك.

واعلم أنه لا ينجو المكذبون برسول الله من عذاب الله {تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلآخِرَةُ} أي الجنة {نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِى ٱلأَرْضِ} أي نعطيها لمن لا يريدون غلبة وتكبراً {وَلاَ فَسَاداً} أي ظلماً على العباد كدأب فرعون وقارون، {وَ ٱلْعَٰقِبَةُ} الحميدة وهي الجنة {لِلْمُتَّقِينَ} أي الذين يتقون ما لا يرضاه الله تعالى من الأفعال والأقوال.

{مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ} أي من جاء يوم القيامة متصفاً بالحسنة، المقبولة، الأصلية، المعمولة {فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا} أي فله بمقابلتها ثواب خير منها ذاتاً، وصفة، وقدراً بالمضاعفة. ومثل المعمولة ما في حكمها كما لو تصدق عن غيره، فخرج بالمعمولة ما لو همَّ بحسنة فلم يعملها لمانع، فإنها يجازى عليها من غير تضعيف، وخرجت الحسنة المأخوذة في نظير الظلامة فلا تضاعف له، وخرج بالأصلية الحسنات الحاصلة بالتضعيف فلا تضاعف {وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ} وهي ما يذم فاعلها شرعاً {فَلاَ يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} أي الإجزاء مثل ما كانوا يعملون {إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ} أي إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن والعمل بما فيه من الأحكام لرادك إلى مكة. فإنه صلى الله عليه وسلم خرج من الغار ليلاً وسار في غير الطريق مخافة الطلب، فلما أمن رجع إلى الطريق، ونزل بالجحفة بين مكة والمدينة، وعرف الطريق إلى مكة، فاشتاق إليها وذكر مولده ومولد أبيه، فنزل جبريل وقال له: أتشتاق إلى بلدك ومولدك؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «نعم». فقال جبريل: إن الله تعالى يقول: {يَعْمَلُونَ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءانَ لَرَادُّكَ

إِلَىٰ مَعَادٍ} أي مكة غالباً عليهم {قُل} يا أشرف الخلق للمشركين: {رَّبِّيۤ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ} وما يستحقه من الثواب والإعزاز بالإعادة إلى مكة {وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ} وما يستحقونه من العقاب والإذلال في بلدهم يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك نفسه والمشركين، {وَمَا كُنتَ تَرْجُوۤاْ أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} أي وما كنت قبل مجيء الرسالة إليك ترجو إنزال القرآن عليك، وكونك نبياً فإنزاله عليك ليس عن ميعاد وكونك نبياً ليس عن تطلب سابق منك ولكن أنزل إليك القرآن وتجعل نبياً لأجل الترحم من ربك {فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَٰفِرِينَ} أي معيناً لهم بالإجابة إلى طلبتهم {وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ} أي لا تركن إلى أقوال الكافرين فيصدوك عن اتباع آيات الله بعد وقت إنزالها عليك وإيجاب العمل بها {وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ} أي ادع الناس إلى دين ربك {وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ} بإعانتهم في الأمور، لأن من رضي بطريقتهم أو مال إليهم كان منهم، {وَلاَ تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ} أي لا تعتمد على غير الله ولا تتخذ غيره وكيلاً في أمورك {لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ} لا نافع ولا ضار ولا معطي ولا مانع إلا هو {كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ} أي معدوم في حد ذاته فإن وجوده كلا وجود، لأن وجوده ليس ذاتياً {إِلاَّ وَجْهَهُ} أي ذاته تعالى.

وقيل: معنى كونه هالكاً: كونه قابلاً للهلاك والمستثنى من الهلاك والفناء ثماينة أشياء نظمها السيوطي في قوله: ثمانية حكم البقاء يعمها من الخلق والباقون في حيز العدم هي العرش والكرسي ونار وجنة وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم {لَهُ ٱلْحُكْمُ} النافذ في الخلق {وَإِلَيْهِ} أي إلى جزائه بالعدل عند البعث {تُرْجَعُونَ}.

سورة العنكبوت

مكية، تسع وستون آية. وألف وتسعمائة وإحدى وثمانون كلمة. وأربعة آلاف وخمسمائة وخمسة وتسعون حرفاً

{بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ. الٓمٓ . أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوۤاْ أَن يَقُولُوۤاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ} أي أظن الذين نطقوا بكلمة الشهادة أنهم يتركون غير ممتحنين بمجرد ذلك النطق، لا بل يمتحنون ليتميز الراسخ في الدين من غيره. نزلت هذه الآية في عمار بن ياسر، وعياش بن أبي ربيعة، والوليد، وسلمة بن هشام. وكانوا

يعذبون بمكة، فكانت صدورهم تضيق بذلك. والمقصود: الأقصى من الخلق العبادة والمقصد الأعلى في العبادة حصول محبة الله وكل من كان قلبه أشد امتلاء من محبة الله فهو أعظم درجة عند الله، لكن القلب ترجمان وهو اللسان وله مصدقات، هي الأعضاء ولها مزكيات فإذا قال الإنسان باللسان: آمنت فقد ادعى محبة الله في الجنان فلا بد له من شهود، فإذا استعمل الأركان في الإتيان بما عليه من أركان الإسلام حصل له على دعواه شهود مصدقات، فإذا بدل نفسه وماله في سبيل الله وزكى أعماله بترك ما سوى الله زكى شهوده الذين صدقوه فيما قاله، فحينئذ يحرر اسمه في جرائد المحبين ويقرر قسمه في أقسام المقربين {وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}، أي ابتلينا الماضين كسيدنا إبراهيم ألقى في النار وكقوم نشروا بالمناشير في دين الله فلم يرجعوا عنه {فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ} أي فليظهرن الصادقين في قولهم آمنا من الكاذبين في ذلك، فمن الناس من لا يصبر في البلاء ولا يشكر في النعماء، فهو من الكاذبين، ومنهم من يصبر في حال البلاء ويشكر في حال النعماء، فهذه صفة الصادقين، ومنهم من لا يستمتع في العطاء بل يؤثر في حال الرخاء، ويستريح إلى البلاء، ويستعذب مقاساة العناء، وهذا أجل الكبراء {أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا} أي بل أحسب المشركون أنهم يفرون منا ويفوتون عذابنا فلا نقدر على مجازاتهم بعصيانهم. {سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ} أي بئس الذين يحكمونه حكمهم ذلك {مَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لآتٍ}، أي من كان يطمع في ثواب الله فليعمل عملاً صالحاً، فإن الوقت المضروب له لجاء لا شك في مجيئه {وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ}، فيسمع ما قالوه، ويعلم ما يعملونه، فللعبد أمور ثلاثة من أصناف حسناته عمل قبله، فهو لا يرى ولا يسمع وإنما يعلم، وعمل لسانه فهو يسمع، وعمل أعضائه وهو يرى فإذا أتى بهذه الأشياء يجعل الله لمسموعه ما لا أذن سمعت، ولمرئيه ما لا عين رأت، ولعمل قلبه ما لا خطر على قلب أحد، {وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِ} أي ومن صبر على الشدة في محاربة الكفار وفي مخالفة النفس فإن منفعة صبره له لا لله تعالى. {إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ} فلا حاجة له إلى طاعتهم، وإنما أمرهم بطاعة الله توجيهاً لهم للثواب بمقتضى رحمته.

{وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ}، أي بأحسن جزاء أعمالهم فتكفير السيئات في مقابلة الإيمان والجزاء بالأحسن في مقابلة

العمل الصالح، فالمؤمن يدخل الجنة بإيمانه، وتكفر سيئاته به فلا يخلد في النار فحينئذ يكون الجزاء الأحسن غير الجنة، وهو ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر أن يكون هو رؤية الله تعالى. {وَوَصَّيْنَا ٱلإِنْسَـٰنَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً} أي أمرنا الإنسان بالبر بوالديه والعطف عليهما لأنهما سبب وجود الولد {وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَآ} أي وإن أمراك أن تشرك بي ما ليس لك بإلهيته علم فلا تطعهما في الإشراك فقوله: {مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} إشارة إلى أن ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعه، وإن لم يعلم بطلانه فكيف بما علم بطلانه؟

روي أن حمية بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس لما سمعت بإسلام ولدها سعد بن أبي وقاص الزهري، وهو من السابقين إلى الإسلام قالت له: يا سعد بلغني إنك قد صبأت فوالله لا يظلني سقف بيت من الضح والريح، وإن الطعام والشراب علي حرام حتى تكفر بمحمد، فأبى سعد وكان أحب أولادها إليها ولبثت هي ثلاثة أيام لا تنتقل من الضح، ولا تأكل، ولا تشرب حتى غشي عليها وقال لها: والله لو كان لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما كفرت بمحمد عليه السلامُ فإن شئت فكلي، وإن شئت فلا تأكلي فلما رأت ذلك أكلت، ثم جاء سعد إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بما كان من أمرها فأنزل الله تعالى: {وَإِن جَٰهَدَاكَ} الآية. {إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ} أي عاقبتكم إلى، وإن كان اليوم مجالستكم بالآباء والأولاد والأقارب. {فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} فلا تظنوا أني غائب عنكم وآباؤكم حاضرون، فتوافقون الحاضرين في الحال فإني حاضر معكم أعلم ما تفعلون، ولا أنسى فأنبئكم بجميعه فأجازيكم عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر. {وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ} أي لنجعلهم في عداد المجردين الذين لا فساد لهم {وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ} أي في دين الله {جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ} مع ضعفها وانقطاعها {كَعَذَابِ ٱللَّهِ} الأليم الدائم في الآخرة حتى كفر. نزلت هذه الآية في المنافقين كعياش بن أبي ربيعة المخزومي فإنهم قالوا للمؤمنين: إيماننا كإيمانكم فإذا همّ الكفار بالضرب بالسياط جعلوا ذلك الأذى صارفاً لهم عن الإيمان كما أن عذاب الله في النار دائماً صارف للمؤمنين عن الكفر {وَلَئِنْ جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ} وهو فتح مكة وغنيمتها {لَيَقُولُنَّ} أي عياش وأصحابه، {إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ} أي في الإيمان وإنما أكرهنا حتى قلنا ما قلنا فأشركونا في الغنيمة، لأننا على دينكم قال تعالى تكذيباً لهم في قولهم: أنا على دينكم. {أَوَ لَيْسَ

ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ} من الإخلاص في الإيمان والنفاق فيه، ثم أسلم عياش وأصحابه بعد ذلك وحسن إسلامهم {وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} بالإخلاص، فثبتوا على الإسلام عند البلاء {وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ} بترك الإيمان عند البلاء، أي ليجزينهم بما لهم من الإيمان والنفاق. {وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} وهو الوليد ابن المغيرة، وأبو جهل وأصحابهما {لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ} كعلي وسلمان وأصحابهما : { ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا} أي ديننا في عبادة الأوثان {وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ} أي ذنوبكم عنكم يوم القيامة.

وقرأ الحسن وعيسى بكسر لام الأمر، وهو لغة الحجاز وليس هذا أمراً في الحقيقة وردَّ الله عليهم بقوله: {وَمَا هُمْ} أي الكفار {بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُمْ} أي من ذنوب المؤمنين {مِّن شَىْءٍ} يوم القيامة {إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ} في مقالتهم {وَلَيَحْمِلُنَّ} أي الكفرة {أَثْقَالَهُمْ} أي أوزار ما اقترفته أنفسهم كاملة، {وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ} أي وأوزار الذين يضلونهم مع أوزارهم، {وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} في قولهم ولنحمل خطاياكم فإنه صادر من اعتقادهم أن لا خطيئة في الكفر، ومن اعتقادهم أن لا حشر، ويقال لهم: أما قلتم أن لا حشر؟ ويقال لهم: احملوا خطاياهم فلا يحملون فيسألون. ويقال لهم: لِمَ افتريتم؟

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً} يدعوهم إلى التوحيد فلم يجيبوه.

قال ابن عباس: كما عمر نوح عليه السلام ألفاً وخمسين سنة بعث على رأس أربعين سنة، ولبث في قومه تسعمائة وخمسين سنة، وعاش بعد الطوفان ستين سنة {فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ} أي الماء الكثير المحيط بهم والمرتفع على أعلى جبل أربعين ذراعاً، {وَهُمْ ظَٰلِمُونَ} أي والحال أنهم مصرون على كفرهم. {فأَنْجَيْنَٰهُ} أي نوحاً {وأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ} أي ومن ركب في السفينة معه عليه السلام، من أولاده وأتباعه وكانوا ثمانين {وَجَعَلْنَٰهَآ} أي السفينة {ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ} أي علامة دالة على قدرة الله تعالى وعلمه، ووحدته ليتعظوا بها؛ وذلك أن السفينة اتخذت قبل ظهور الماء ولولا إعلام الله نوحاً بذلك لما اشتغل بها، فلا تحصل لهم النجاة، وأن الله أمر نوحاً بأخذ قوم معه وأقواتهم، ثم إن الماء غيض قبل نفاد الزاد، ولولا ذلك لما حصل لهم النجاة.

قال أبو السعود: عاش نوح بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفاً ومائتين وأربعين سنة {وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ} أي وأرسلناه حين تكامل عقله وترقى من رتبة الكمال إلى درجة التكميل حيث تصدى لإرشاد الخلق إلى طريق الحق { ٱعْبُدُواْ

ٱللَّهَ} وحده {وَ ٱتَّقُوهُ} أن تشركوا به شيئاً فقوله: { ٱعْبُدُواْ ٱللَّـهَ} إشارة إلى إثبات الإله الواحد. وقوله: {وَ ٱتَّقُوهُ} إشارة إلـى نفـي عيره وأيضاً ف «اعبدوا الله» إشارة إلى الإتيان بالواجبات فيدخل فيه الاعتراف بالله، واتقوه إشـارة إلـى الامتنـاع عـن المحرمـات، فيدخل فيه الامتناع مـن الشـرك {ذٰلِكُـمْ} أي عبـادة اللـه وتقـواه {خَيْـرٌ لَّكُـمْ} عقلاً واعتبـاراً {إِن كُنتُـمْ تَعْلَمُـونَ} الـدلائل والاعتبارات، فـإن ضـد عبـادة الله تعطيـل، وضـد تقـواه تشـريك، وكلاهما شـر عقلاً واعتبـاراً أمـا عقلاً: فلأن الممكـن لا بـد لـه مـن مـؤثر واجـب الوجـود، ثـم إن شـريك الـواجب إن لـم يكـن واجـب الوجود فكيف يكـون شـريكاً، وإن كـان كـذلك لـزم وجـود واجـبين فيشتركان في الوجوب ويختلفان في الإلهية، وما به الاشتراك غير ما به الامتياز، فيلزم الـتركيب فيهمـا فلا يكونـان واجـبين لكونهمـا مركبين، فيلزم التعطيل. وأما اعتباراً: فلأن الشرف إمـا أن يكـون ملكاً أو قريب ملك، فالإنسان لا يكون ملكاً للسـموات والأرضـين، فأعلى درجاته أن يكـون قريـب الملـك فلا يكـون قربـه إلا بعبـادة، فالمعطـل لا ملـك ولا قريـب ملـك لعـدم اعتبـاره بوجـود ملـك فلا مرتبة له أصلاً، ثم من يكون سيده لا نظير له يكون أعلا رتبة ممـن يكون لسيده شركاء خسيسـة، فـإن مـن يقـول: إن ربـي لا يمـاثله شيء أعلى مرتبـة ممـن يقـول: سـيدي صـنم منحـوت. فثبـت أن عبادة الله وتقواه خير للناس.

{إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثٰناً} أي أحجاراً لا تستحق العبادة. {وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً} أي وتكذبون كذباً حيث تسـمونها آلهـة، وتـدعون أنها شفعاؤكم.

وقرىء «تخلقون» بتشديد اللام للتكثير في الخلق الذي بمعنى الكذب. وقرىء «تخلقـون» بحـذف إحـدى التـاءين مـن «تخلـق» بمعنى: تكذب. وذكر سيدنا إبراهيم بطلان مـذهبهم بـأبلغ الوجـوه، وذلك لأن المعبود إنما يعبد لأحد أمور أربعة:

إما لكونه مستحقاً للعبادة بذاته كالعبد يخدم سيده الذي اشتراه.

وإما لكونه نافعاً فـي الحـال كمـن يخـدم غيـره لخيـر يوصـله إليـه كالمستخدم بأجرة.

وإما لكونه نافعاً في المستقبل كمن يخدم غيـره راجيـاً منـه أمـراً في المستقبل.

وإما لكونه خائفاً منه.

{إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ} من الأوثان {لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً} أي لا يقدرون على أن يرزقوكم شيئاً من الـرزق، {فَـٱبْتَغُواْ عِنـدَ ٱللَّـهِ ٱلـرِّزْقَ} أي فـاطلبوا مـن اللـه تعـالى كـل الـرزق

{وَ ٱعْبُدُوهُ} لكونه مستحقاً للعبادة لذاته، {وَ ٱشْكُرُواْ لَهُ} لكونه سابق النعم بالخلق ومعطي النعم بالرزق {إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} فيرجى الخير منه لا من غيره. {وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ} أي وإن تكذبوني فيما أخبرتكم به من أنكم إليه تعالى ترجعون بالبعث فلا تضرونني بتكذبيكم، فإن من قبلكم من الأمم قد كذبوا من قبلي من الرسل وهم شيث، وإدريس، ونوح عليهم السلام فلم يضرهم تكذيبهم شيئاً. {وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلاَّ ٱلْبَلاَغُ ٱلْمُبِينُ}، أي إلا ذكر المسائل وإقامة البرهان عليه. {أَوَلَمْ يَرَوْاْ} أي ألم ينظر هؤلاء القوم ولم يعلموا علماً جارياً مجرى الرؤية في الظهور؟ {كَيْفَ يُبْدِىءُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ} أي يخلقهم، ولم يكونوا شيئاً مذكوراً، ويخلقهم من نطفة من غذاء هو ماء وتراب وهذا القدر كاف في حصول العلم بإمكان الإعادة، فإن الإعادة، مثل البدء {ثُمَّ يُعِيدُهُ} ؟ أي الخلق كما بدأهم {إِنَّ ذٰلِكَ} أي الإعادة {عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ} إذ لا يفتقر فعله تعالى إلى شيء أصلاً {قُلْ} يا إبراهيم لقومك: {سِيرُواْ فِى ٱلأَرْضِ} أي سيِّروا فكركم في الأرض، وأجيلوا ذهنكم في الحوادث الخارجة عن أنفسكم، {فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ} أي فانظروا إلى الأشياء المخلوقة ليحصل لكم علم بأن الله بدأ خلقاً، {ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِىءُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلآخِرَةَ} بعد النشأة الأولى التي شاهدتموها {إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ}، فإن من علم قدرته تعالى على جميع الأشياء لا يتصور أن يتردد في وقوع الإعادة بعدما أخبر الله به، {يُعَذِّبُ} بعد النشأة الآخرة {مَن يَشَآءُ} أن يعذبه وهم المنكرون لها، {وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ} أن يرحمه وهم المصدقون بها {وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ}، أي فإن تأخر عنكم ذلك فلا تظنوا أنه فات إليه تعالى إيابكم وعليه حسابكم، وعنده يدخر ثوابكم وعقابكم، {وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلأَرْضِ وَلاَ فِى ٱلسَّمَآءِ} بممتنعين منه تعالى أي لو صعدتم إلى محل السماك في السماء أو هبطتم إلى موضع السموك في الماء لا تخرجون من قبضة قدرة الله.

وهذا خطاب لقوم فيهم النمروذ الذي حاول الصعود إلى السماء {وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ} أي قريب ينفعكم، {وَلاَ نَصِيرٍ} أي مانع يمنعكم من عذاب الله {وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ} أي بدلائله التكوينية والتنزيلية الدالة على ذاته، وصفاته، وأفعاله {وَلِقَآئِهِ} أي بالبعث بعد الموت، {أُوْلَٰئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}. وذلك لأن لله تعالى في كل شيء آية دالة على وحدانيته، فإذا أشرك أحد كفر بآيات الله، وإذا أنكر الحشر كفر بلقاء الله وأخرج نفسه عن محل رحمة الله، وإذا

جعل له آلهة لم يقر بالحاجة إلى طريق متعين فييأس من رحمة الله، ولما أنكر الحشر وقال: لا عذاب عذبه الله تحقيقاً للأمر عليه فعدم الرحمة يناسب الإشراك، والعذاب الأليم يناسب إنكار الحشر {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ}، أي قال بعضهم لبعض: لا تجيبوا إبراهيم عن براهينه الدالة على التوحيد والنبوة والحشر، واقتلوه بسيف أو نحوه فتستريحوا منه عاجلاً، أو حرقوه بالنار، فإما أن يرجع إلى دينكم إذا أوجعته النار، وإما أن يموت بها إذا أصرَّ على دينه، فقذفوه في النار {فَأَنْجَاهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ} أي بجعلها برداً روي أنه في ذلك اليوم لم ينتفع أحد بنار {إِنَّ فِى ذٰلِكَ لآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} أي في إنجاء الله تعالى إبراهيم من النار لعبرات لقوم يصدقون بقدرة الله، فإن الله حفظ إبراهيم من حرها، وجعلها خامدة في زمان يسير فلا تؤذيه، ولكن أحرقت وثاقه، وأنشأ في وسطها بستاناً.

{وَقَالَ} إبراهيم بعد إنجائه من النار {إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ}. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي برفع «مودة» غير منونة، وجر «بينكم»، ونافع وابن عامر وأبو بكر بنصب «مودة» منونة ونصب «بينكم»، وحمزة وحفص بنصب «مودة» غير منونة، وجر «بينكم». ونقل عن عاصم أنه رفع «مودة» غير منونة، ونصب «بينكم» لإضافته إلى المبني فالرفع خبر «إن» أي إنّ الذين اتخذتموهم أوثاناً صلة بينكم، والنصب مفعول له، وخبر «إن» محذوف أي إن الذين اتخذتموه أوثاناً معبودة لكم لأجل المودة لا ينفعونكم {فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا}. والمعنى: إن اتخاذكم أصناماً مودة بينكم ليس إلا في الحياة الدنيا، وقد أجريتم أحكامه حيث فعلتم لي ما فعلتم لأجل مودتكم له انتصاراً مني، أي لما خرج إبراهيم من النار عاد إلى عذل الكفار، وقال: إذا بينت لكم فساد مذهبكم وما كان لكم جواب فليس هذا إلا تقليداً، فإن بين بعضكم محبة طبيعية فلا يريد أحدكم أن يفارقه صاحبه في الأحوال، وبينكم وبين آبائكم صلة فورثتموهم، وأخذتم مقالتهم، ولزمتم ضلالتهم. {ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ} فيقول العابد: ما هذا معبوديٰ ويقول المعبود: ما هؤلاء عبدتيٰ {وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً} فيقول المعبود لذاك: أنت أوقعتني في العذاب حيث عبدتني ويقول العابد: لهذا أنت أوقعتني فيه حيث أضللتني بعبادتك ويريد كل واحد أن يبعد صاحبه باللعن ولا يتباعدون، بل هم مجتمعون في النار كما هم مجتمعون في هذه الدار كما قال تعالى: {وَمَأْوَاكُمُ ٱلنَّارُ} أي هي منزلكم فلا ترجعون منه أبداً {وَمَا لَكُمْ مِّن نَّـٰصِرِينَ} يخلصونكم من تلك النار، كما

خلصني ربي من النار التي ألقيتموني فيها. {فَـأامَنَ لَـهُ لُـوطٌ} أي صدقه لوط في جميع مقالاته فقـال لإبراهيـم: صـدقت يـا إبراهيـم ولوط هو ابن أخيـه هـاران {وَقَـالَ} إبراهيـم: {إِنِّـى مُهَـاجِرٌ إِلَـىٰ رَبِّى} أي إني خارج من قومي إلى مكان أمرني ربي بالتوجه إليـه. روي أنه هاجر من كوثي سواد الكوفة مـع لـوط وسـارة ابنـة عمـه إلى حران، ثم منها إلى الشام، فنزل فلسطين، ونزل لوط سذوم. وكان عمر إبراهيم إذ ذاك خمساً وسبعين سـنة. {إِنَّـهُ هُـوَ ٱلْعَزِيـزُ ٱلْحَكِيمُ} فيمنع أعدائي عن إيذائي ولا يأمرني إلا بما فيـه صـلاحي. {وَوَهَبْنَا لَهُ} بعد إسماعيل بأربع عشرة سنة {إِسْحَٰقَ} من عجـوز عاقر، {وَيَعْقُوبَ} نافلـة، {وَجَعَلْنَـا فِـى ذُرِّيَّتِـهِ} أي ذريـة إبراهيـم {ٱلنُّبُوَّةَ} فكل الأنبياء بعده من ذريته، {وَ ٱلْكِتَٰبَ} ، فلم ينزل بعده كتاب إلا على أولاده، {وَءَاتَيْنَاهُ أَجْـرَهُ} علـى هجرتـه {فِـى ٱلـدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ} . فإن الله بـدل جميـع أحـواله فـي الدنيا بأضـدادها فبـدل وحـدته فـي النـار بكـثرة ذريتـه حـتى ملأت الدنيا، وبدل أقاربه الضالين المضلين بأقارب مهتدين هادين، وبـدل ذلته وخموله بالجاه، وكثرة المال حتى قيل: إنه كان لـه اثنـا عشـر ألـف كلـب حـارس بـأطواق ذهـب، وكـانت الصـلاة عليـه مقرونـة بالصلاة على سائر الأنبياء إلى يوم القيامـة، فصـار معروفـاً بشـيخ المرسلين، وكان في الآخرة باقيـاً علـى مـا ينبغـي، {وَلُوطـاً} أي وأرسلنا لوطاً إلى قومه {إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ} أي اللواطـة، {مَـا سَـبَقَكُمْ بِهَـا} أي بتلـك الفاحشـة {مِـنْ أَحَـدٍ مِّـنَ ٱلْعَٰلَمِينَ} كلهم من الإنس والجن،

{أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ} أي أدبار الرجال، {وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ} أي سـبيل الولـد بـالإعراض عـن الحـرث وإتيـان مـا ليـس بحـرث ويقال: وتقطعـون علـى مـن مـر بكـم مـن الغربـاء {وَتَـأْتُونَ فِـى نَـادِيكُمُ ٱلْمُنْكَـرَ} أي وتعملـون فـي مجلسـكم الجـامع لأصـحابكم المنكر: كالجماع، والضراط، وحل الأزار، والحذف بالبندق، ومضـغ العلك والفرقعة.

قيل: إنهم كانوا يجلسون في مجالسهم وعند كل رجل منهم قصعة فيها حصى فإذا مر بهم عابر سبيل حذفوه فأيهم أصابه كـان يأخذ ما معه ويلوطه، ويغرمه ثلاثة دراهم قاض بـذلك. {فَمَـا كَـانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِـنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ} في قولك: بمجيء عذاب الله علينا إن لم نؤمن، أي إن لوطاً كـان مداوماً على إرشاد قومه فقالوا أولاً استهزاء: ائتنا بعذاب الله. ثم لمّا كثر منه ذلك ولم يسكت عن فعلهم قالوا: أخرجوا آل لوط من قريتكم. ثم إن لوطاً لما يئس منهم طلب النصرة مـن اللـه {قَـالَ

رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ} أي بإنزال العذاب على هؤلاء المفسدين وهم الذين ابتدعوا الفاحشة وأصروها، واستعجلوا العذاب بطريق الاستهزاء {وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ} أي لما جاء جبريل ومن معه من الملائكة إلى إبراهيم بالبشارة بالولد والنافلة {قَالُواْ} لإبراهيم: {إِنَّا مُهْلِكُوۤاْ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ} أي قرية سذوم {إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ} بإصرارهم على أنواع المعاصي. {قَالَ} إبراهيم: {إِنَّ فِيهَا} أي في تلك القرى {لُوطاً} فكيف تهلكونها؟ {قَالُواْ} أي الرسل من الملائكة: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا} أي من لوط وغيره {لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ} ابنتيه زاعورا ورينا {إِلاَّ ٱمْرَأَتَهُ} المنافقة واعلة {كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ} أي من المنغمسين في العذاب بسبب أن للدال على الشر نصيباً كفاعله، وهي كانت تدل القوم على أضياف لوط {وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِىءَ بِهِمْ} أي جاءه ما أحزنه بمجيئهم على صورة البشر بأحسن صورة خلق الله فخاف عليهم من قومه، {وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً} أي ضاق بتدبير أمرهم طاقته، وعجز عن مدافعة قومه، {وَقَالُواْ} للوط: {لاَ تَخَفْ} علينا {وَلاَ تَحْزَنْ} لأجلنا فإنا ملائكة، {إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ} مما يصيبهم من العذاب. ونصب «أهلك» معطوف على محل الكاف {إِلاَّ ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ} أي من الباقين في الهلاك ومن الرائحين الماضي ذكرهم، {إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ} هي سذوم {رِجْزاً} أي عذاباً مزعجاً {مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ} أي بسبب فسقهم المستمر.

وقرأ ابن عامر بفتح النون وتشديد الزاي {وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ} أي القرية {ءَايَةً بَيِّنَةً} أي علامة ظاهرة {لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} وهي آثار ديارهم الخربة وظهور الماء الأسود على وجه الأرض، وهي بين القدس والكرك، {وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَٰهُمْ شُعَيْباً} أي وأرسلنا إلى مدين نبيهم شعيباً. {فَقَالَ يٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَ ٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلآخِرَ} أي اعملوا لليوم الآخر وإنما قال شعيب بلفظ الرجاء لأن عبادة الله يرجى منها الخير في الدارين، {وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى ٱلأَرْضِ مُفْسِدِينَ} أي لا تعملوا المعاصي في الأرض. ويمكن أن يقال نصب «مفسدين» على المصدر كما يقال: قم قائماً، أي قياماً {فَكَذَّبُوهُ} فيما أخبرهم به، لأن شعيباً كأنه قال: الله واحداً فاعبدوه، والحشر كائن فارجوه، والفساد محرم فلا تقربوه. وهذه الأشياء فيها إخبارات. فالتكذيب راجع إلى الإخبارات الضمنية. {فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ} أي التي ترجف الأرض والأفئدة إذ قيل: إن جبريل صاح فتزلزلت الأرض من صيحته ورجفت قلوبهم منها، {فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} أي فصاروا في مجمعهم ميتين لا

يتحركون، {وَعَاداً وَثَمُودَ} أي وأهلكنا قوم هود وقوم صالح. {وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ} أي وقد ظهر لكم يا أهل مكة إهلاكنا إياهم من جهة منازلهم الكائنة في الحجر واليمن إذا نظرتم إليها عند مروركم عليها. {وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ} أي عبادتهم غير الله {فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ} أي عن عبادة الله، {وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ} أي عاقلين، ألبَّاء، صحيحي النظر.

{وَقَٰرُونَ} أي وأهلكناه وهو ابن عم موسى {وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ} وزير فرعون {وَلَقَدْ جَآءَهُمْ مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ}، أي بالحجج الظاهرات، {فَ ٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلأَرْضِ} عن الإيمان بالآيات، وعن عبادة الله {وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ} أي فارين من عذاب الله، {فَكُلاًّ} أي كل واحد من المذكورين {أَخَذْنَا بِذَنبِهِ} ، أي عاقبناه بسبب ذنبه، {فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً} أي حجارة محمَّاة يقع على واحدٍ منهم وينفذ من الجانب الآخر وهم قوم لوط وعاد {وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ}؛ هو هواء متموج، فإن الصوت سببه وصول الهواء المتموج إلى الصماخ وهم قوم شعيب وصالح {وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلأَرْضَ} أي غمرناه في التراب وهو قارون ومن معه {وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا} بالماء وهم قوم نوح وفرعون وقومه فحصل العذاب بالعناصر الأربعة: النار والريح والتراب والماء. والإنسان مركب منها وبسببها بقاؤه فإذا أراد الله هلاك الإنسان جعل ما منه وجوده سبباً لعدمه وما به بقاؤه سبباً لفنائه، {وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ} بالهلاك {وَلَٰكِن كَانُوۤاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} ، بالإشراك، أي وما كان الله يضعهم في غير موضعهم فإن موضعهم الكرامة لكنهم ظلموا أنفسهم حيث وضعوها مع شرفهم في عبادة الوثن مع خسته، {مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ} فإن أدنى مراتب البيت أن لا يصير سبب افتراق، فبيت العنكبوت: يصير سبب انزعاج العنكبوت، فإنه إذا داوم في زاوية لا يخرج منها، فإذا نسج على نفسه بيتاً يتبعه صاحب الملك بتنظيف البيت منه، ويمسحه بالمسوح الخشنة المؤذية لجسم العنكبوت، فكذلك العابد ينبغي أن يستحق الثواب بسبب العبادة أو لا يستحق العذاب به، والكافر يستحق العذاب بسبب عبادته، وأن بيت العنكبوت إذا هبت ريح لا يرى منه عين ولا أثر بل يصير هباء منثوراً، فكذلك أعمالهم للأوثان. وهذا إشارة إلى إبطال الشرك الخفي أيضاً فإن من عبد الله رياء فقد اتخذ ولياً غير الله فمثله مثل العنكبوت تتخذ نسجها بيتاً فلا يقيها من حر ولا برد، {لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} شيئاً من

الأشياء لجزموا أن مثلهم كمثل العنكبوت وأن أضعف ما يعتمد به في الدين دينهم.

{إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ} أي إن الله يعلم الذين يعبدونهم من غير الله من شيء: صنم، أو إنسي، أو جني، {وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} أي وهو قادر على إهلاكهم لكنه حكيم يمهلهم ليكون الهلاك عن بينة.

وقرأ عاصم وأبو عمرو «يدعون» بالتحتية. والباقون بالفوقية.

{وَتِلْكَ ٱلأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ} أي نبينها لهم تقريباً لما بعد من أفهامهم، {وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلاَّ ٱلْعَٰلِمُونَ} أي وما يفهم صحتها وفائدتها إلا المتدبرون في الأشياء على ما ينبغي {خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلأَرْضَ بِٱلْحَقِّ} أي متقناً مراعياً للمصالح {إِنَّ فِى ذٰلِكَ} أي في خلقهما {لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ} أي لدلالة للمؤمنين على شؤونه تعالى، واختص المؤمنون بالذكر، لأنهم المنتفعون بتلك الآية {ٱتْلُ مَا أُوْحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ} تقرباً إلى الله تعالى بقراءته وتذكيراً للناس وحملاً لهم على العمل بما فيه من الأحكام، ومحاسن الآداب، ومكارم الأخلاق. {وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ} أي داوم على إقامتها {إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَ ٱلْمُنْكَرِ}، أي تنهى عن التعطيل والإشراك، فالتعطيل هو إنكار وجود الله والإشراك إثبات ألوهية لغير الله. فالعبد أول ما يشرع في الصلاة يقول: الله أكبر. فبقوله: الله، ينفي التعطيل. وبقوله: أكبر، ينفي التشريك. لأن الشرك لا يكون أكبر من الشريك الآخر فيما فيه الاشتراك فإذا قال: {بِسْمِ اللَّهِ} (الفاتحة: 1)، نفى التعطيل، وإذا قال: {ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ} (الفاتحة: 1) نفى الإشراك، لأن الرحمن من يعطي الوجود بالخلق، والرحيم من يعطي البقاء بالرزق، فإذا قال: { ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ} (الفاتحة: 2) أثبت خلاف التعطيل، وإذا قال: رب العالمين أثبت خلاف الإشراك، فإذا قال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} (الفاتحة: 5) نفى التعطيل والإشراك، وكذا إذا قال: {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} (الفاتحة: 5) وإذا قال: {ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ} (الفاتحة: 6) نفى التعطيل لأن طالب الصراط له مقصد، والمعطل لا مقصد له. وإذا قال: { ٱلْمُسْتَقِيمَ} (الفاتحة: 6) نفى الإشراك، لأن المستقيم هو الأقرب، والمشرك يعبد الأصنام، ويظنون أنهم يشفعون لهم وعبادة الله من غير واسطة أقرب وعلى هذا إلى آخر الصلاة، فإذا قال فيها: أشهد أن لا إله إلا الله فقد نفى الإشراك، والتعطيل. ومعنى نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر أنها سبب للانتهاء عنهما، لأنها مناجاة الله تعالى فلا بد أن تكون مع إقبال تام على طاعته وإعراض كلي عن معاصيه. {وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ} أي ذكر الله إياكم

بالمغفرة والثواب أكبرمن ذكركم إياه بالصلاة. وقيل: ذكركم الله بسائر أنواعه أفضل من الطاعات التي ليس فيها ذكر الله. وقيل: المراد بالذكر نفس الصلاة أي وللصلاة أكبر من سائر الطاعات {وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} من الذكر ومن سائر الطاعات فيجازيكم به أحسن المجازاة، {وَلاَ تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلاَّ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلاَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ} أي ولا تخاصموا اليهود والنصارى إلا بالأحسن أي بعدم استخفاف آرائهم، وبعدم نسبة آبائهم إلى الضلال لأنهم جاءوا بكل حسن غير الاعتراف بالنبي صلى الله عليه وسلم، فإنهم آمنوا بإنزال بالكتب وإرسال الرسل، وبالحشر، ففي مقابلة إحسانهم يجادلون بالأحسن إلا الذين أشركوا منهم بإثبات الولد لله وبالقول بثالث ثلاثة، فتجادلون بالأخشن من تهجين مقالتهم وتبيين جهالتهم كالمشرك الذي جاء بالمنكر من غيرهم. فاللائق أن يجادل بالأخشن ويبالغ في تهجين مذهبه وتوهين شبهه. {وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا} من القرآن {وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ} من التوراة والإنجيل.

روي أنه كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول صلى الله عليه وسلم: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: {بِٱلَّذِى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا} الآية» وفي رواية: «وقولوا: آمنا بالله وبكتبه وبرسله. فإن قالوا باطلاً لم تصدقوهم وإن قالوا حقاً لم تكذبوهم». {وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ} لا شريك له في الألوهية، {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} أي مطيعون لا لغيره {وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ} أي كما أنزلنا سائر الكتب على من تقدمك أنزلنا عليك القرآن {فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ} وهم الأنبياء {يُؤْمِنُونَ بِهِ} أي بالقرآن، {وَمِنْ هَٰؤُلاۤءِ} أي من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه {مَن يُؤْمِنُ بِهِ} أي بالقرآن {وَمَا يَجْحَدُ بِاٰيَٰتِنَآ} أي بالقرآن الذي ظهرت دلالته على المعاني، وعلى كونه من عند الله تعالى {إِلاَّ ٱلْكَٰفِرُونَ} ككعب بن الأشرف وأصحابه، وأبي جهل وأصحابه {وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَٰبٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ} أي وما كنت يا أشرف الخلق تقرأ كتاباً قبل أنزالنا القرآن إليك، ولا تكتب الكتاب بيدك. والأصح أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يحسن الخط والشعر، ولكن كان يميز بين جيد الشعر ورديئه، {إِذاً لاَّرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ} أي لو كنت قارئاً أو كاتباً لشك اليهود والنصارى، لأن في كتابهم أنك أمي لا تقرأ ولا تكتب. {بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ} أي بل القرآن آيات واضحات ثابتة في قلوب الذين أعطوا العلم بالقرآن، فليس مما يشك فيه

لكونه محفوظاً من غير أن يلتقط من كتاب بحيث لا يقدر على تحريفه بخلاف غيره من الكتب، فإنه لا يقرأ إلا في المصاحف. والمعنى: إن المؤمنين يقرأون القرآن بالحفظ عن قلب تلقياً منك، وبعضهم من بعض وأنت تلقيته عن جبريل عن اللوح المحفوظ، فلم تأخذه من كتاب بطريق تلقيه منه. {وَمَا يَجْحَدُ بِأايٰتِنَآ إِلاَّ ٱلظَّٰلِمُونَ} أي المتجاوزن للحدود في الشر من اليهود والنصارى، والمشركين.

{وَقَالُواْ} أي الظالمون: {لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايٰتٌ مِّن رَّبِّهِ} أي هلا أنزل على محمد آيات، مثل ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى عليهم السلام.

وقرأ نافع وأبو عمر، وابن عامر، وحفص «آيات» بالجمع. والباقون بالإفراد {قُلْ إِنَّمَا ٱلأَيٰتُ عِندَ ٱللَّهِ} ينزلها أو لا ينزلها فلا تتعلق بي {وَإِنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} أي لست إلا رسولاً مخوفاً لأهل المعصية بالنار بلغة تعلمونها، وليس لي عليه تعالى حكم بشيء {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتٰبَ} الدال على نبوتك {يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ} في كل زمان ومكان، فهو معجزة ظاهرة باقية أتم من كل معجزة، وقد وصل إلى المشرق والمغرب، وسمعه كل أحد بخلاف قلب العصا ثعباناً فإنه لم يبق لنا منه أثر، ولم يره من لم يكن في ذلك المكان {إِنَّ فِى ذٰلِكَ} أي الكتاب، {لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} أي فإن الكتاب رحمة على العباد ليعلموا بها الصادق، فإن إظهار المعجزة على يد الصادق رحمة من الله فلو لم يظهر الكتاب لبقي الخلق في ورطة تكذيب الصادق، أو تصديق الكاذب، لأنه لو لم تكن هذه المعجزة لزم أن لا يتميز النبي عن المتنبىء وبهذا الكتاب يتذكر كل من يكون من المؤمنين ما بقي الزمان {قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً} بأني رسلوه.

روي أن كعب بن الأشرف وغيره، قالوا: يا محمد من يشهد لك أنك رسول الله. فنزلت هذه الآية. {يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ} من الأمور التي منها شأني وشأنكم {وَٱلَّذِينَ ءامَنُواْ بِٱلْبٰطِلِ}، وهو ما سوى الله، {وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْخٰسِرُونَ} لأنهم ضيعوا الأدلة السمعية الموجبة للإيمان. {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ} على طريقة الاستهزاء بقولهم: متى هذا الوعد؟ ونحو ذلك. نزلت هذه الآية في النضر بن الحرث حين قال: فأمطر علينا حجارة من السماء إن كنت من الصادقين. {وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى} لوقت عذابهم {لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ} وقت استعجالهم {وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً} فإتيان العذاب بغتة حكمة، لأنه لو كان وقته معلوماً عندهم لكان كل أحد يعتمد على علمه بوقته فيفجر معتمداً على التوبة

قبل الموت، {وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} بإتيانه، ويظنون أنه لا يأتيهم أصلاً. {يَسْتَعْجِلُونَكَ بِ لْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِ لْكَٰفِرِينَ}، أي يستعجلونك بالعذاب في الدنيا، والحال أن العذاب سيحيط بهم يوم يأتيهم، {يَوْمَ يَغْشَٰهُمُ لْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ} أي يوم يلحقهم العذاب من جميع جهاتهم، فنار جهنم تنزل من فوق ولا تنطفىء بالدوس عليها بوضع القدم {وَيِقُولُ} قرأ نافع والكوفيون بالياء أي الله تعالى أو بعض ملائكته بأمره، والباقون بالنون: {ذُوقُواْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} أي ذوقوا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا.

قال تعالى: {يٰعِبَادِىَ لَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَ عْبُدُونِ} أي إن تعذرت العبادة عليكم في بعض الأرض فهاجروا ولا تتركوا عبادتي بحال.

وقرأ بفتح الياء ابن عامر والباقون بتسكينها، {كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ لْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} أي كل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت، فراجعة إلى حكمنا وجزائنا بحسب أعمالها لما أمر الله تعالى المؤمنين بالمهاجرة صعب عليهم ترك الأوطان ومفارقة الأخوان فقال لهم: إن ما تكرهون لا بد من وقوعه، فإن كل نفس ذائقة مشاق الموت، والموت مفرق الأحباب، فالأولى أن يكون ذلك في سبيل الله، فيجازيكم عليه، فلا تخافوا من بعد الوطن، أو المعنى: إذا تعلقتم بي فموتكم رجوع إلي وليس بموت كما قال صلى الله عليه وسلم: «المؤمنون لا يموتون بل ينقلون من دار إلى دار». وقرأ أبو بكر بالياء التحتية {وَ لَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ لصَّٰلِحَٰتِ} أي الطاعات {لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ لْجَنَّةِ غُرَفاً} أي لننزلنهم بيوتاً عالية من الجنة.

وقرأ حمزة والكسائي «لنثوينهم» بالمثلثة، أي لنقيمنهم في علال من الجنة {تَجْرِى مِن تَحْتِهَا لأَنْهَـٰرُ} أي ففي موضع الأنهار بساتين كبار، وزروع، ورياض، وأزهار فيشرفون عليها من تلك العلالي. {خَٰلِدِينَ فِيهَا} أي في الغرف {نِعْمَ أَجْرُ لْعَٰمِلِينَ} أي نعم أجر العاملين الأعمال الصالحة، هذا الأجر .

{ لَّذِينَ صَبَرُواْ} على شدائد المهاجرة، وعلى أمر الله والمرازي {وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} أي الذين لم يتوكلوا فيما يأتون ويذرون إلا على الله تعالى {وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا} أي وكثيراً من الدواب لا تطيق حمل رزقها لضعفها، ولا تدخر شيئاً لساعة أخرى. روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أمر المؤمنين الذين كانوا بمكة بالمهاجرة إلى المدينة قالوا: كيف نقدم بلدة ليس لنا فيها معيشة؟ فنزلت هذه الآية {ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا}

أي الدابة على ضعفها، وهي لا تدخر {وَإِيَّاكُمْ} مع قوتكم، لأن رزق الكل بأسباب هو تعالى وحده المسبب لها فلا تخافوا الفقر بالمهاجرة {وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ} فيسمع قولكم هذا، ويعلم ضمائركم وحاجتكم، ويسمع إذا طلبتم الرزق، ويعلم مقدار حاجتكم إذا سكتم، {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ} أي أهل مكة {مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضَ} على هذا النظام {وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ} لإصلاح الأقوات، ومعرفة الأوقات وغير ذلك من المنافع؟ {لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ} إذ لا سبيل لهم إلى إنكار ذلك {فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ} أي فيكف يصرفون عن الإقرار بتفرده تعالى في الإلهية مع إقرارهم بتفرده تعالى في الخلق والتسخير. {ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ} أي الله يوسع المال ويقتر على من يشاء في أي وقت يوافق الحكمة، فيفعل كلاً من البسط والتضييق في وقته ومحله. {إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ} فيعلم مقادير الأرزاق ومقادير الحاجات، ألا ترى أن الملوك يفاوتون في الرزق بين عمالهم بحسب ما يعلمون بأحوالهم فما ظنك بملك الملوك العالم بكل شيء. {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ} أي كفار مكة {مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا}، أي يبوستها؟ {لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ} معترفين بأنه تعالى الموجد للممكنات بأسرها، ثم إنهم يشركون به تعالى بعض مخلوقاته {قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ} على أن أظهر حجتك عليهم {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ} شيئاً من الأشياء فلذلك لا يعلمون بمقتضى قولهم، هذا فيشركون به تعالى أخس مخلوقاته ولا يعرفون فساد هذا التناقض، {وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ} أي إن الدنيا سريعة الزوال، فالاشتغال بلذاتها كاشتغال الصبيان بلهوهم وعبثهم، فإنهم يجتمعون عليه، ويفرحون به ساعة، ثم يتفرقون عنه، فالإعراض عن الحق لهو، والإقبال على الباطل لعب. {وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ} أي إن الحياة الثانية لهي الحياة الدائمة التي لا موت فيها {لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} أن الحياة المعتبرة هي حياة الآخرة لما آثروا عليها الدنيا {فَإِذَا رَكِبُواْ} أي كفار مكة {فِى ٱلْفُلْكِ} في البحر ولقوا شدة {دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ} صورة حيث لا يدعون غير الله تعالى بالنجاة، وألقوا الأصنام التي حملوها معهم في البحر وقالوا: يا رب، لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد عنهم إلا الله تعالى {فَلَمَّا نَجَّاهُمْ} من البحر {إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} أي عادوا إلى ما كانوا عليه من حب الدنيا وأشركوا بالله الأوثان {لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ} من عرض الدنيا {وَلِيَتَمَتَّعُواْ} أي وليتلذذوا بمتاع الدنيا.

وقرأ ورش، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم بكسر اللام وهي إما لام العاقبة والمآل، وإما لام الأمر على سبيل التهديد. والباقون بالتسكين فهي لام الأمر {فَسَوْفَ يَعلَمُونَ} فساد عملهم حين يرون العذاب {أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ءامِناً وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ}، أي ألم ينظر كفار مكة ولم يشاهدوا أنا جعلنا بلدهم مكة حرماً مصوناً من النهب. والحال أنه يختلس من حولهم قتلاً وسبياً مع كون أهل مكة قليلين قارين في مكان، غير ذي زرع أبعد ظهور الحق بالباطل خاصة من الأديان يصدقون وبنعمة الله التي أعطاهموها يكفرون والمعنى: إنكم يا أهل مكة في أخوف ما كنتم دعوتم الله تعالى، وفي آمن ما حصلتهم عليه كفرتم بالله وهذا متناقض، لأن دعائكم في وقت الخوف على سبيل الإخلاص لم يكن إلا لقطعكم بأن النعمة من الله لا غير، وقد اعترفتم بأن تلك النعمة العظيمة من الله، كيف تكفرون بها وقد قطعتم في حال الخوف إنه لا أمن من الأصنام حيث ألقيتموها في البحر كيف آمنتم بها في حال الأمن؟

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُ} فالله تعالى لا يمكن أن يكون له شريك فمن جعل الشريك لملك مستقل في الملك كان ظالماً يستحق العقاب منه، فكيف إذا جعل الشريك لمن لا يمكن أن يكون له شريك؟ ومن كذب صادقاً يجوز عليه الكذب كان ظالماً، فكيف من كذب صادقاً لا يجوز عليه الكذب؟ فإذاً ليس أحد أظلم ممن يكذب على الله بالشرك، ويكذب الله في تصديقه نبيه صلى الله عليه وسلم، ويكذب النبي في رسالة ربه، ويكذب القرآن المنَّزل من الله إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، {أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ} أي ألا يستحقون الإقامة في جهنم، وقد فعلوا افتراء على الله تعالى، وتكذيباً بالحق الصريح أو يقال: ألم يعلموا أن في جهنم منزلاً للكافرين حتى اجترأوا هذه الجراءة {وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}، أي والذين جاهدوا في طاعتنا لنهديَنَّهم سبل ثوابنا. ويقال: والذين نظروا في دلائلنا لنحصل فيهم العلم بنا {وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ} أي لمعينهم في القول والفعل بالتوفيق والعصمة.

وهذا إشارة إلى درجة أعلى من الاستدلال كأن الله تعالى يقول: من الناس من يكون بعيداً لا يتقرب وهم الكفار ومنهم من يتقرب بالنظر والسلوك فيهديهم الله تعالى ويقربهم، ومنهم من يكون الله معه ويكون قريباً منه تعالى بعلم الأشياء منه تعالى ولا يعلمه من الأشياء فقوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ} إشارة إلى الأول.

وقوله: {وَ لَّذِينَ جُهَدُواْ فِينَا} إشارة إلى الثاني. وقوله: {وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ} إشارة إلى الثالث.

سورة الروم
مكية، ستون آية، وثمانمائة وثماني عشرة كلمة، وثلاثة آلاف وخمسمائة وأربعة وثلاثون حرفاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِيٓ أَدْنَى ٱلأَرْضِ} أي في أقرب أرض العرب منهم وهي أطراف الشام فالروم: اسم قبيلة وسميت باسم جدها، وهو روم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم، وسمي عيصو: لأنه كان مع يعقوب في بطن فعند خروجهما تزاحما، وأراد كل أن يخرج قبل أخيه فقال عيصو ليعقوب: إن لم أخرج قبلك خرجت من جنب أمي فتأخر يعقوب شفقه لها، فلذا كان أبا الأنبياء، وعيصو أبا الجبارين. {وَهُم} أي الروم {مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ} أي من بعد مغلوبهم {سَيَغْلِبُونَ} فارس {فِى بِضْعِ سِنِينَ}، وسبب نزول هذه الآية أنه كان بين فارس والروم قتال، وكان المشركون يودون أن تغلب فارس الروم، لأن فارس كانوا مجوساً أميين والمسلمون يودون غلبة الروم على فارس لكونهم أهل الكتاب، فبعث كسرى جيشاً إلى الروم، واستعمل عليهم رجلاً يقال له: شهريار، وجعل قيصر جيشاً، واستعمل عليهم رجلاً يدعى: بخنس فالتقيا بإذرعات وبصرى وهي أقرب الشام إلى أرض العرب، فغلبت فارس الروم، فبلغ ذلك المسلمين بمكة، فشق عليهم، وفرح به كفار مكة، وقالوا للمسلمين: إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون، وفارس أميون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم. فنزلت هذه الآية، فخرج أبو بكر الصدِّيق إلى كفار مكة، فقال: فرحتم بظهور إخوانكم فلا تفرحوا، فوالله لتظهرن الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم. فقال له أبيّ بن خلف الجمحي: كذبت يا أبا فضيل. فقال له أبو بكر: أنت أكذب يا عدو الله. فقال له: اجعل بيننا أجلاً أناحبك عليه، فناحبه على عشر قلائص، وجعلا الأجل ثلاث سنين، فأخبر به أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «البضع ما بين الثلاث إلى التسع». فزايده في الخطر ومادده في الأجل، فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين، ومات أبيّ من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه في أحد بعد رجوعه إلى مكة، ثم أقبل قيصر في خمسمائة ألف رومي إلى

الفرس، وظهرت الروم على فارس عند رأس سبع سنين من مناحبتهم، ومات كسرى وذلك يوم الحديبية، فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبيّ، وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: «تصدق به» وكان ذلك قبل تحريم القمار وهذه الآيات تدل على علم النبي صلى الله عليه وسلم بوقت الغلبة، لكن لم يأذن الله تعالى في إظهاره، لأن الكفار كانوا معاندين، فالمعاند يرجف بوقوع الواقعة قبل الوقوع ليحصل الخلف في الكلام، والوقت يمكن فيه الاختلاف.

وقرىء «غلبت» على البناء للفاعل و «سيغلبون» على البناء للمفعول. والمعنى: أن الروم غلبت على ريف الشام وسيغلبهم المسلمون وقد غزاهم المسلمون في السنة التاسعة من نزولها ففتحوا بعض بلادهم، {لِلَّهِ ٱلأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ} أي من قبل غلبة الروم على فارس ومن بعدها فكل من كون الروم مغلوبين أولاً وغالبين آخراً، ليس إلا بأمر الله تعالى وقضائه. {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَبِنَصْرِ ٱللَّهِ} أي ويوم إذ يغلب الروم على فارس يفرح المؤمنون بتغلّيب الله من له كتاب على من لا كتاب له، ويفرحون بغلبتهم المشركين ببدر.

قال السدي: فرح النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بظهورهم على المشركين يوم بدر، وظهور أهل الكتاب على أهل الشرك. والجار والمجرور متعلق ب «يفرح» {يَنصُرُ مَن يَشَآءُ} أي ينصر من عباده على عدوه من ضعيف وقوي. {وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ} أي وهو تعالى المبالغ في الغلبة والمبالغ في الرحمة {وَعْدَ ٱللَّهِ} مصدر مؤكد لنفسه، أي وعدهم الله بالنصر وبالفرج وعداً، {لاَ يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُ} أيّ وعد كان مما يتعلق بالدنيا والآخرة لاستحالة الكذب عليه تعالى. {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ} أهل مكة {لاَ يَعْلَمُونَ} وعده تعالى بنصرهم ووعد الله لا خلف فيه، {يَعْلَمُونَ} أي أكثرهم {ظَاهِراً مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا} من زخارفها وملاذها وسائر أحوالها الموافقة لشهواتهم، ولا يعلمون باطنها، وهي مضارها ومتاعبها وفناؤها، {وَهُمْ عَنِ ٱلآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ} أي وهم جاهلون بأمر الآخرة تاركون لعملها ولا يعلمون أن الدنيا مجاز إلى الآخرة {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيۤ أَنفُسِهِمْ} فلو تفكروا في أنفسهم لعلموا وحدانية الله، وصدقوا بالحشر.

أما دلالة الإنسان على الوحدانية، فلأن الله خلقهم على أحسن تقويم ولنذكر من حسن خلقهم جزءاً من ألف جزء، وهو أن الله تعالى خلق للإنسان معدة فيها غذاؤه لتقوى به أعضاؤه ولها منفذان أحدهما لدخول الطعام فيه. والآخر: لخروجه منه، فإذا

دخل الطعام فيها انطبق المنفذ الآخر بعضه على بعض بحيث لا يخرج منه ذرة، وتمسكه الماسكة إلى أن ينضج نضجاً صالحاً، ثم يخرج من المنفذ الآخر، وخلق تحت المعدة عروقاً دقاقاً، صلاباً كالمصفاة، فينزل منها الصافي إلى الكبد، وبنصب الثفل إلى الأمعاء ويكون مع الغذاء المتوجه من المعدة إلى الكبد فضل ماء مشروب ليرقق، وينذرف في العروق الدقاق المذكورة، وفي الكبد يستغنى عن ذلك الماء فيتميز عنه ذلك الماء وينصب من جانب حدبة الكبد إلى الكلية، ومعه دم يسير تغتذى به الكلية وغيرها، ويخرج الدم الخالص من الكبد في عرق كبير، ثم يتشعب ذلك النهر إلى جداول، والجداول إلى سواق والسواقي إلى رواضع، ويصل فيها إلى جميع البدن فهذه حكمة واحدة في خلق الإنسان، وهذه كفاية معرفة كون الله فاعلاً مختاراً، قادراً عالماً، ومن يكون كذلك يكون واحداً، وإلا لكان عاجزاً عند إرادة شريكه ضد ما أراده، وأما دلالة الإنسان على الحشر فذلك لأنه إذا تفكر في نفسه يرى قواه صائرة إلى الزوال، وأجزاءه مائلة إلى الانحلال، فله فناء ضروري فلو لم يكن له حياة أخرى لكان خلقه تعالى على هذا الوجه للفناء عبثاً، لأن من يفعل شيئاً للعبث لو بالغ في إتقانه يُضحك منه فإذا خلق الله الإنسان للبقاء ولا بقاء دون اللقاء فالآخرة لا بد منها. {مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بِـ لْحَقّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى} أي ما خلقها عبثاً بغير حكمة بالغة، وإنما خلقها مقرونة بالحق، مصحوبة بالحكمة الدالة على وجود صانعها، ووحدته، وقدرته، وعلمه بأجل معين قدره الله تعالى لبقائها إلى أن تنتهي إليه، وهو وقت قيام الساعة وقوله: {إِلاَّ بِـ لْحَقّ} إشارة إلى وجه دلالتها على الوحدانية. وقوله: {وَأَجَلٌ مُّسَمًّى} إشارة إلى معاد الإنسان فإن مجازاته بما عمل من الإساءة والإحسان هو المقصود بالذات {وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ} أي وإن كفار مكة لمنكرون بلقاء حسابه تعالى وجزائه بالبعث.

{أَوَلَمْ يَسيرُواْ فِى ٱلأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} أي أقعد كفار مكة في أماكنهم ولم يسيروا في أقطار الأرض فيشاهدوا كيف كان جزاء الأمم الذين كذبوا رسلهم كعاد وثمود، {كَانُواْ} أي من قبلهم {أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً} في الجسم، وأقدر منهم على التمتع بالحياة {وَأَثَارُواْ ٱلأَرْضَ} أي قلبوها للزراعة والغرس أكثر مما حرث أهل مكة {وَعَمَرُوهَآ} بفنون العمارات من الزراعة والغرس والبناء وغيرها {أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا} أي أكثر مما عمر أهل مكة كماً وكيفاً وزماناً {وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم

بِٱلْبَيِّنَاتِ} أي بالحجج الظاهرات وبالمعجزات فكذبوهم، فأهلكهم الله. {فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ} بإهلاكه إياهم {وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} بتكذيب الرسل {ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ}.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو «عاقبة» بالرفع على أنها اسم «كان»، و «السوأى» خبرها، وهي جهنم، أي ثم كان آخر أمر الذين عملوا السيئات نار جهنم. وقرأ الباقون بنصب «عاقبة» على أنها خبر «كان»، واسمها «السوأى» تأنيث الأسوأ، أو أن كذبوا أي ثم كان تكذيبهم واستهزاؤهم آخر أمر الذين أشركوا بالله وعملوا الفعلة السوأى، وهي اسم النار كما تقدم {أَن كَذَّبُواْ بِأايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ} بدل من «السوأى». وقيل: «كذبوا» إلخ تفسير ل «أساءوا» {ٱللَّهُ يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ} أي ينشئهم من النطفة، {ثُمَّ يُعِيدُهُۥ} بعد الموت بالبعث {ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} إلى موقف الحساب والجزاء. وقرأ أبو عمرو وشعبة بالياء على الغيبة. والباقون على الخطاب للمبالغة في الترهيب {وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ} أي وقت رجعهم إليه تعالى يسكت المشركون متحيرين وييأسون من كل خير، {وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ} يجيرونهم من عذاب الله تعالى كما كانوا يزعمونه، {وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ} أي وكان عبدة الأصنام بآلهتم متبرئين منهم يقولون: والله ربنا ما كنا مشركين، {وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ} بعد تمام الحساب {يَتَفَرَّقُونَ} أي جميع الخلق فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير. {فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ} أي فهم في جنة يسرُّون بكل مسرة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الجنة وما فيها من النعيم، وفي آخر القوم أعرابي فقال: يا رسول الله هل في الجنة من سماع؟ قال صلى الله عليه وسلم: «يا أعرابي إن في الجنة نهراً حافتاه الأبكار من كل بيضاء خوصانية يتغنين بأصوات لم يسمع الخلائق مثلها قط فذلك أفضل نعيم الجنة».

وروي أن في الجنة لأشجاراً عليها أجراس من فضة فإذا أراد أهل الجنة السماع، بعث الله تعالى ريحاً تحت العرش فتقع في تلك الأشجار، فتحرك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طرباً. {وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِأايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ} بالبعث بعد الموت {فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ} أي لا غيبة لهم عن العذاب ولا فتور له عنهم، أما من يؤمن ويعمل السيئات فليس دائم الحضور في العذاب، وليس من المحبورين غاية الحبور

في رياض بل له منزلة بين المنزلتين، {فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ} أي نزهوه تعالى عن صفات النقص، وصفوه بصفات الكمال في هذه الأوقات، واحمدوه؛ وإنما خصَّ بعض الأوقات بالأمر بالتسبيح، لأن الإنسان لا يمكنه أن يصرف جميع أوقاته إلى التسبيح لكونه محتاجاً إلى تحصيل مأكول ومشروب، وملبوس، ومركوب، وكما أن العبد ينزه الله في أول النهار، وآخره، ووسطه فإن الله يطهره في أوله وهو دنياه وفي آخره وهو عقباه وفي وسطه وهو حالة كونه في قبره وقوله تعالى: {وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى * ٱلسَّمَٰوَاتِ وَ لأَرْضَ} كلام معترضين بين المعطوف والمعطوف عليه وفيه لطيفة، وهو أن الله تعالى لما أمر العباد بالتسبيح كأنه بيَّن لهم أن تسبيحهم الله لنفعهم لا لنفع يعود على الله، فعليهم أن يحمدوا الله إذا سبحوه، ثم إن التنزيه المأمور به يشمل التنزيه بالقلب، وهو الاعتقاد الجازم واللسان وهو الذكر الحسن، وبالأركان وهو العمل الصالح فالإنسان إذا اعتقد شيئاً ظهر من قلبه على لسانه، وإذا قال ظهر صدقه في مقاله من أحواله، وأفعاله، واللسان، ترجمان الجنان، والأركان، برهان اللسان، لكن الصلاة أفضل أعمال الأركان، وهي مشتملة على الذكر باللسان، والقصد بالجنان: وهو تنزيه في التحقيق، فيجب حمل التسبيح على كل ما هو تنزيه، فيكون هذا أيضاً أمراً بالصلاح.

{يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ} كالإنسان من نطفة والطير من البيضة {وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ} أي يخرج النطفة والبيضة من الحيوان.

وقال بعضهم: يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، ويقال: يخرج اليقظان من النائم، والنائم من اليقظان، فإحياء الميت عنده تعالى كتنبيه النائم، وإماتة الحي كتنويم المنتبه. {وَيُحْيِ ٱلأَرْضَ} بالنبات {بَعْدَ مَوْتِهَا} أي بعد يبوستها {وَكَذَلِكَ} أي ومثل ذلك الإخراج {تُخْرَجُونَ} من قبوركم.

وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء وضم الراء {وَمِنْ ءَايٰتِهِ} الدالة على أنكم تبعثون {أَنْ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ} فإنا خلقنا من نطفة وهي من الغذاء، وهو من النبات، وهو من التراب. {ثُمَّ إِذَآ أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ} أي ثم بعد أطوار كثيرة فاجأتم وقت كونكم بشراً تتمتعون على وجه الأرض.

{وَمِنْ ءايٰتِهِ} الدالة على البعث والجزاء: {أَنْ خَلَقَ لَكُم} أي لأجلكم {مِّنْ أَنفُسِكُمْ} أي من جنسكم {أَزْوٰجاً} أي إناثاً {لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا} أي لتميلوا إليها، وتطمئنوا بها، {وَجَعَلَ بَيْنَكُم}

أي بين المرأة والزوج {مَّوَدَّةً} أي محبة {وَرَحْمَةً} أي شفقة ويقال: مودة للصغير على الكبير ورحمة للكبير على الصغير. {إِنَّ فِى ذَلِكَ} أي في خلقهم من تراب، وخلق أزواجهم من جنسهم وإلقاء المودة والرحمة بينهم {لأيٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} فيما خلق الله. {وَمِنْ ءَايٰتِهِ} الدالة على أمر البعث: {خَلْقُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ} من حيث إن خلقهما وما فيهما ليس إلا لمعاش البشر ومعاده، {وَ ٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ} أي لغاتكم العربية، والفارسية، وغير ذلك. والأصح أنه اختلاف كلامكم، فإن الأخوين إذا تكلما بلغة واحدة يعرف أحدهما من الآخر {وَأَلْوٰنِكُمْ} ببياض الجلد وسواده، وتوسطه. {إِنَّ فِى ذٰلِكَ} أي في خلق السموات والأرض، واختلاف الألسنة والألوان {لأيٰتٍ لِّلْعٰلَمِينَ}.

وقرأ حفص وحده بكسر اللام، أي لآيات عظيمة في أنفسها، كثيرة في عددها للمتصفين بالعلم. والباقون بفتح اللام في ذلك دلالة على كمال وضوح الآيات على أحد من الخلق كافة.

{وَمِنْ ءايٰتِهِ} الدالة على القدرة والعلم: {مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ} فالنوم بالنهار مما تعدّه العرب نعمة من الله، ولا سيما في أوقات القيلولة في البلاد الحارة {وَ ٱبْتِغَآؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ} فيهما. وهذا إشارة إلى أن العبد ينبغي أن لا يرى الرزق من كسبه وبحذقه بل يرى كل ذلك من فضل ربه، {إِنَّ فِى ذَلِكَ} أي في الليل والنهار {لأيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} سماع تفهم حيث يستدلون بذلك على شؤونه تعالى. {وَمِنْ ءايٰتِهِ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ}، أي ومن آياته الدالة على عظيم قدرته تعالى: إراءتكم للبرق {خَوْفاً} للمسافر من المطر أن يبل ثيابه {وَطَمَعاً} للمقيم في المطر أن يسقي حروثه، {وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً}. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون. {فَيُحْيِ بِهِ} أي بذلك الماء {ٱلأَرْضَ} بالنبات {بَعْدَ مَوْتِهَا} أي بعد يبوستها {إِنَّ فِى ذَلِكَ} أي المطر {لأيٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} أي لدلالات على الفاعل المختار لمن له عقل، وإن لم يتفكر تفكر تاماً.

{وَمِنْ ءَايٰتِهِ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلأَرْضُ بِأَمْرِهِ} أي ومن آياته الدالة على القدرة استمرار السماء والأرض على ما هما عليه بإرادته تعالى له، {ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ} أي ثم إذا دعاكم الله على لسان إسرافيل بعد انقضاء الأجل من الأرض وأنتم في قبوركم دعوة واحدة بأن قال: أيها الموتى اخرجوا فاجأتم الخروج منها وقول: {مّنَ ٱلأَرْضِ} متعلق ب «دعاكم». {وَلَهُ} خاصة {مَن فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ} من

الملائكة والثقلين خلقاً، وملكاً، وتصرفاً، {كُلٌّ لَّهُ قَٰنِتُونَ} أي منقادون لفعله.

{وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} بعد موتهم {وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} بالقياس على قوانينكم من أن الإعادة للشيء أهون من ابتدائه، وإلا فالأفعال كلها بالنسبة إلى قدرته تعالى متساوية في السهولة، {وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلأَعْلَىٰ} أي وله تعالى الوصف الأعلى الذي ليس لغيره ما يدانيه، {فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ}، أي وهو كامل القدرة على الممكنات، شامل العلم بجميع الموجودات، فيجري الأفعال على سنن الحكمة.

{ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ} أي بيَّن الله لكم يا معشر الكفار مثلاً مأخوذاً من أحوال أنفسكم {هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ} أي هل لكم شركاء فيما رزقناكم من الأموال كائنون بالنوع الذي ملكت أيمانكم، {فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ} أي فأنتم وعبيدكم فيما رزقناكم مستوون في التصرف {تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ} أي تخافون أن تنفردوا بالتصرف فيه بدون رأيهم خيفة كائنة مثل خيفتكم من الأحرار المشاركين لكم فيما ذكر أي أنتم لا ترضون بأن يشارككم مماليككم، وهم أمثالكم في البشرية فكيف تشركون به تعالى في المعبودية مخلوقة تعالى؟ {كَذَٰلِكَ} أي مثل ذلك التفصيل الواضح {نُفَصِّلُ ٱلآيَٰتِ} أي نبينها بالدلائل القطعية والأمثلة والمحاكيات الإقناعية {لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} أي يستعملون عقولهم في تدبر الأمور، {بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} أي لا يجوز أن يشرك بالمالك مملوكه، ولكن الذين أشركوا اتبعوا أهواءهم الزائغة من غير علم، وأثبتوا شركاء من غير دليل {فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ} أي لا يقدر أحد على هداية من خلق الله فيه الضلال، {وَمَا لَهُمْ} أي لمن أضله الله تعالى {مِّن نَّٰصِرِينَ} يخلصونهم من الضلال {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ} أي أقبل بكلك على الدين غير ملتفت يميناً وشمالاً {حَنِيفاً} أي مائلاً عن كل ما عدا الدين {فِطْرَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا} أي الزم دين الله وهو التوحيد فإن الله خلق الناس عليه في بطون أمهاتهم، وحيث أخذهم الله من ظهر آدم، وسألهم ألست بربكم؟ فقالوا: بلى {لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ} أي لا تبدلوا دين الله كما قاله مجاهد وإبراهيم وقيل: أي لا تغير للوحدانية حتى إن سألتهم من خلق السموات والأرض يقولون: الله. لكن الإيمان الفطري غير كافٍ.

{ذَٰلِكَ} أي لزوم دين الله {ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ} أي الحق الذي لا عوج فيه {وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ} أي أهل مكة {لاَ يَعْلَمُونَ} أن ذلك

هو الدين الحق، فيصدون عنه صدوداً {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ} أي أقيموا وجوهكم للدين مقبلين عليه، {وَ ٱتَّقُوهُ} من مخالفة أمره بل داوموا على العبادة {وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلٰوةَ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ}، أي ولا تشركوا بعد الإيمان وهٰهنا وجه آخر وهو أن الله أثبت التوحيد الذي هو خروج عن الإشراك الظاهر بقوله تعالى: {مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ} وأراد الله إخراج العبد عن الشرك الخفي بقوله تعالى: {وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ} أي لا تقصدوا بعملكم إلا وجه الله، ولا تطلبوا إلا رضا الله، ثم أبدل الله قوله: {مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ} قوله تعالى: {مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ} أي اختلفوا فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم.

وقرأ حمزة والكسائي «فارقوا» بألف، أي تركوا دينهم الذي أمروا به، {وَكَانُواْ شِيَعاً} أي وصاروا فرقاً فيما يعبدونه، {كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} أي وإذا أصاب كفار مكة شدة دعوا ربهم برفع الشدة مقبلين إليه بالدعاء، {ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُمْ مِّنْهُ} أي من الضر {رَحْمَةً} أي خلاصاً {إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ} أي الكفار {بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} ويقول: تخلصت بسبب اتصال الكوكب الفلاني بفلان وبسبب الصنم الفلاني، {لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنٰهُمْ} فاللام للعاقبة {فَتَمَتَّعُواْ} يا أهل مكة: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} عاقبة تمتعكم.

وقرىء بالياء على أن «تمتعوا» فعل ماض وقرىء وليتمتعوا {أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطٰناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ} أي هل أنزلنا على أهل مكة كتاباً، فذلك الكتاب يدل على الأمر الذي بسببه يشركون ف «أم» بمعنى الهمزة فقط عند الكوفيين، وبمعنى بل والهمزة عند البصريين كما هو شأن «أم» المنقطعة.

{وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً} من صحة وسعة {فَرِحُواْ بِهَا} بطراً لا شكراً، فإن قيل لك: الفرح بالرحمة مأمور به في قوله تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ} (يونس: 85)، وهٰهنا ذمهم الله على الفرح بالرحمة، فكيف ذلك؟ قلت: هناك فرحوا برحمة الله من حيث إنها مضافة إلى الله تعالى وهٰهنا فرحوا بنفس الرحمة حتى لو كان المطر من غير الله لكان فرحهم به مثل فرحهم بما إذا كان من الله، وهو كما أن الملك لو حطّ عند أمير رغيفاً على السماط، أو أمر غلمانه بأن يحطوه عنده، ففرح ذلك الأمير به ولو أعطى الملك فقيراً غير ملتفت إليه رغيفاً فرح به، ففرح الأمير بكون ذلك الرغيف من الملك، وفرح الفقير بكون ذلك رغيفاً، {وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ} أي شدة ضيق {بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} أي بشؤم معاصيهم {إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ} أي ييأسون من رحمة الله غير صابرين بها.

وقرأ أبو عمرو والكسائي بكسر النون {أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّـهَ يَبْسُـطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْـدِرُ}، أي ألـم ينظـروا ولـم يشـاهدوا أن اللـه يوسع الرزق لمن يشاء امتحاناً هل يشكر أم يكفـر، ويضـيقه لمـن يشـاء اختبـاراً هـل يصـبر أم يجـزع؟ {إِنَّ فِـى ذَلِـكَ} أي التوسـيع والتضييق {لأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} فيستدلون بها على كمال القـدرة والحكمة. {فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّـهُ} مـن الصـلة والصـدقة وسـائر المبرات {وَ ٱلْمِسْكِينَ} سواء كان ذا قرابة أم لا. {وَ ٱبْنَ ٱلسَّـبِيلِ} أي المسافر من صـدقة التطـوع {ذَلِـكَ} أي المـذكور مـن الصـلة والعطية والإكرام {خَيْرٌ} أي ثـواب فـي الآخـرة، {لِّلَّـذِينَ يُرِيـدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ} أي يقصدون بمعروفهم جهة التقرب إليه تعـالى لا جهـة أخرى {وَأُوْلَٰئِكَ هُـمُ ٱلْمُفْلِحُـونَ} أي الناجون مـن السـخط {وَمَـآ ءَاتَيْتُمْ مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَاْ فِى أَمْـوَالِ ٱلنَّـاسِ فَلاَ يَرْبُـواْ عِنـدَ ٱللَّـهِ}، أي وما أعطيتم من عطية خالية من العوض ليزيـد فـي أمـوال النـاس بأن تعطوا شيئاً، وتطلبوا ما هو أفضل منـه فليـس لكـم فيـه أجـر، وليس عليكم فيه إثم.

وقرأ نافع «لتربوا» بتاء الخطاب وسكون الواو، أي لتصيروا ذوي زيادة. وقرأ ابن كثير «وما أتيتم» بقصر الهمزة، أي وما جئتم به من إعطاء عطيـة. واختلـف العلمـاء فيمـن وهـب وهبـة يطلـب عوضـها وقـال: إنمـا أردت العـوض، فـإن كـان مثلـه ممـن يطلـب العوض من الموهوب له، فله ذلك عند مالك رضي الله عنـه وذلـك كهبة الفقير للغني، وهبة الخادم لصاحبه، وهبة الشخص لمن فوقه ولأميره. وقال أبو حنيفة: لا يكون له عوض إذا لم يشترط. وهـذان القولان جاريان للشافعي رضي الله عنهم.

{وَمَـآ ءاتَيْتُـمْ مِّـن زَكَـوٰةٍ تُرِيـدُونَ وَجْـهَ ٱللَّـهِ فَأُوْلَٰئِـكَ هُـمُ ٱلْمُضْعِفُونَ} أي ومـا أعطيتـم مـن صـدقة تطـوع إلـى المسـاكين تبتغون وجهـه تعـالى، فأولئـك هـم الـذين أضـعفت صـدقاتهم فـي الآخرة بكثرة الثواب، ويحفظ أموالهم في الدنيا وبالبركة لها {ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ} نسماً في بطون أمهاتكم، ثم أخرجكم وفيكم الروح {ثُمَّ رَزَقَكُمْ} إلى الموت {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ} عنـد انقضـاء مـدتكم {ثُـمَّ يُحْيِيكُمْ} للبعث بعد الموت، {هَـلْ مِـن شُـرَكَآئِكُمْ مَّـن يَفْعَـلُ مِـن ذَلِكُمْ مِّن شَىْءٍ}؟ أي هل مـن آلهتكـم يـا أهـل مكـة مـن يقـدر أن يفعل من ذلك شيئاً؟ {سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ} أي لا تصـفوه تعالى بالإشراك.

وقرأ حمزة والكسائي بتاء الخطاب {ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَـرِّ وَ ٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ} أي تبين الفساد فـي الـبر والبحـر

كالجدب وكثرة الحرق، والغرق، وموت دواب البر والبحر، وقلة اللؤلؤ بسبب كسب الناس المعاصي.

قال الضحاك: كانت الأرض خضرة مونقة لا يأتي ابن آدم شجرة إلا وجد عليها ثمرة، وكان ماء البحر عذباً، وكان لا يقصد الأسد البقر والغنم، فلما قتل قابيل هابيل اقشعرت الأرض وشاكت الأشجار، وصار ماء البحر ملحاً زعاقاً، وقصد الحيوانات بعضها بعضاً، {لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ} أي بعض جزاء الذين عملوا، فإن تمامه في الآخرة.

وقرأ قنبل «لنذيقهم» بالنون {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} عما كانوا عليه.

{قُلْ} يا محمد لأهل مكة: {سِيرُواْ فِى ٱلأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ} كقوم ونوح وعاد وثمود ليشاهدوا آثارهم {كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ}، وكان بعض الهلاك بغير الشرك كالفسق ومخالفة الأمر {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ}. قال الزجاج: أي أقم صدرك واجعل وجهك اتباع دين الإسلام {مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ} متعلق ب «يأتي» أو ب «مرد»، أي لا يقدر أحد على رده من الله تعالى، ولا يرده الله تعالى لتعلق إرادته تعالى بمجيئه {يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ} أي يوم إذ يأتي ذلك اليوم يتفرقون: فريق في الجنة، وفريق في السعير. {مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ} أي من كفر بالله فعليه عقوبة كفره وهو خلوده في النار {وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ} أي ومن عمل صالحاً في الإيمان فيفرشون منازلهم في الجنة {لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِ}، والجار والمجرور متعلق ب «يمهدون» أو ب «يصدعون»، أي يتفرقون بتفريق الله تعالى فريقين ليجزي الله كلاً منهما بحسب أعمالهم {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ} أي يعاقبهم. {وَمِنْ ءَايَٰتِهِ} الدالة على وحدانيته تعالى وقدرته {أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَٰحَ مُبَشِّرَٰتٍ} لخلقه بالمطر وبصلاح الأهوية، والأحوال، فإن الرياح لو لم تهب لظهر الوباء والفساد، فرياح الرحمة: هي الشمال، والصبا، والجنوب. وأما الدبور فهي ريح العذاب {وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ} وهي المنافع التابعة للرياح {وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ} أي السفن بسوقها {بِأَمْرِهِ} أي بمشيئته في البحر {وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ} بتجارة البحر {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} نعمة الله فيما ذكر {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ} يا أكرم الرسل {رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ} أي جاء كل رسول قومه بما يخصه من البينات كما جئت قومك ببيناتك فكذبوهم، {فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ} أي أهلكنا الذين كذبوهم، {وَكَانَ حَقّاً} أي

واجباً {عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ} أي وكان الانتقام حقاً، فلم يكن ظلماً، ثم استأنف الله بقوله تعالى: {عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ}، وهذا بشارة لمن آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ويقال نصر المؤمنين: كان واجباً علينا وهذا تأكيداً لبشارة، لأن كلمة «على» تفيد معنى اللزوم فإذا قال حقاً أكد ذلك المعنى، والنصر: هو الغلبة التي لا تكون عاقبتها وخيمة والكافر إن هزم المسلم في بعض الأوقات لا يكون ذلك نصرة إذ لا عاقبة له.

{ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً} أي فترفع سحاباً ثقالاً بالمطر {ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ} أي فينشر الله السحاب كمال الانتشار متصلاً بعضه ببعض تارة في جو السماء كيف يشاء، سائراً، وواقفاً، ومطبقاً، وغير مطبق {وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً} أي ويجعل الله السحاب قطعاً تارة أخرى {فَتَرَى ٱلْوَدْقَ} أي المطر {يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ} أي من خلال السحاب {فَإِذَآ أَصَابَ} أي الله {بِهِ} أي بالودق {مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ} أي أراضيهم، {إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} أي يفرحون بمجيء الخصب {وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ}، أي وإن الشأن كانوا من قبل أن ينزل عليهم المطر من قبل الاستبشار لآيسين من المطر، {فَٱنظُرْ إِلَىٰ ءَاثَٰرِ رَحْمَةِ ٱللَّهِ} من النبات والأشجار والثمار، فالرحمة: هي المطر، وأثرها هو النبات.

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص «آثار» بالألف، والباقون بغير ألف. {كَيْفَ يُحْيِ ٱلأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ} أي فانظر إلى إحياء الله تعالى للأرض بإخراج النبات بعد يبوستها {إِنَّ ذَلِكَ} أي الذي يحيي الأرض {لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ} أي لقادر على إحيائهم {وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ} أي مبالغ في القدرة على جميع الأشياء {وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَّظَلُّواْ مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ}، أي وبالله لئن أرسلنا ريحاً حارة أو باردة فضربت زرعهم بالصفا، فرأوا الزرع مصفراً بعد خضرته لصاروا من بعد صفرته يكفرون بنعمته تعالى السالفة،

{فَإِنَّكَ} يا أشرف الخلق {لاَ تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ} أي لا تجزع ولا تحزن على عدم إيمانهم، فإنهم موتى صم عمي. ومن كان كذلك لا يهتدي، {وَلاَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ} أي إذا أعرضوا مدبرين عن الحق {وَمَآ أَنتَ بِهَادِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ} أي ليس شغلك هداية العميان إلى الحق.

وقرأ حمزة «تهدي» بتاء الخطاب الداخل في المضارع، ونصب «العمي». {إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِأايٰتِنَا} أي ما تسمع دعوتك إلا من يؤمن بكتابنا، فإن إيمانهم يدعوهم إلى قبوله {فَهُمْ مُّسْلِمُونَ}

أي مطيعون {ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ} أي من أصل ضعيف هو النطفة، {ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ} أي من بعد كونه جنيناً وطفلاً مولوداً، ورضيعاً، ومفطوماً {قُوَّةٍ} أي حالة البلوغ والشباب، {ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً} للكهولة {وَشَيْبَةً} وهو بياض الشعر الأسود أي فإن ذلك الضعف والقوة والشباب والشيبة ليس طبعاً بل هو بمشيئة الله تعالى {وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ} فالترديد في الأطوار المختلفة من أوضح دلائل العلم والقدرة، {وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ} أي توجد القيامة {يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ} أي يحلف الكافرون بالله {مَا لَبِثُواْ} في القبور {غَيْرَ سَاعَةٍ}، أي غير قدر ساعة {كَذَلِكَ} أي مثل ذلك الصرف {كَانُواْ يُؤْفَكُونَ}، أي يصرفون من الحق إلى الباطل، ومن الصدق إلى الكذب. {وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلإِيمَٰنَ} من الملائكة والإنس: {لَقَدْ لَبِثْتُمْ} في القبور {فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ} أي بحسب ما علمه الله وقدره {إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ} من القبور {فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ} الذي كنتم توعدون في الدنيا والذي أنكرتموه، {وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} أنه حق ولا تقرون بوقوعه فتستجعلون به استهزاء، وتطلبون الآن تأخير الساعة، فصار مصيركم إلى النار {فَيَوْمَئِذٍ لاَّ ينفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلاَ }.

وقرأ الكوفيون «لا ينفع» بالياء التحتية، أي فيوم القيامة لا ينفع الذين أشركوا اعتذارهم في إنكارهم له {وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}، أي لا يطلب منهم إزالة العتب من التوبة كما طلبت منهم في الدنيا لأنها لا تقبل منهم {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ} أي وبالله لقد بينا لهم في هذا القرآن كل حال وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن، كأنها في غرابتها مثل {وَلَئِن جِئْتَهُمْ} يا أشرف الخلق {بِأايَةٍ} من آيات القرآن الناطقة بأمثال ذلك {لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوۤاْ} من أهل مكة {إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ} أي ما أنتم يا معشر المؤمنين إلا كاذبون ويقال: ولئن جئتهم بكل آية جاءت بها الرسل. يقولون: أنتم كلكم أيها المدعون للرسالة مزورون {كَذَٰلِكَ}، أي مثل ذلك الطبع {يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} أي لا يطلبون العلم ولا يقصدون الحق، {فَٱصْبِرْ} على ما تشاهد منهم من الأقوال الباطلة والأفعال السيئة {إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ} وقد وعدك بالنصرة وإظهار الدين {وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ}، أي لا يحملنك على الخفة وترك الصبر الذين لا يصدقون بالآيات.

وهذا إشارة إلى وجوب مداومة النبي صلى الله عليه وسلم على الدعاء إلى الإيمان فإنه لو سكت لقال الكافر: إنه منقلب الرأي لا ثبات له، والله أعلم بالصواب.

سورة لقمان
مكية، وهي أربع وثلاثون آية، وخمسمائة وثمان وأربعون كلمة، وألفان ومائة وعشرة أحرف

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الٓمٓ} قيل: قسم أقسم الله به {تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ}، أي هذه السورة آيات القرآن ذي الحكمة {هُدًى وَرَحْمَةً} بالنصب على الحالية من الآيات، وبالرفع على قراءة حمزة خبران آخران لاسم الإشارة {لِّلْمُحْسِنِينَ} أي العاملين للحسنات. {ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ} أي يتقنون جميع ما أمروا به فيها {وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ} كلها {وَهُمْ بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}، أي وهم يصدقون بالبعث بعد الموت، فالصلاة ترك التشبه بالسيد، فالله تعالى تجب له العبادة، ولا تجوز عليه العبادة والزكاة تشبه بالسيد، فإنها دفع حاجة الغير والله دافع الحاجات والتشبه لازم على العبد في أمور، كما أن ترك التشبه لازم على العبد في أمور فلا يجلس العبد عند جلوس السيد ولا يتكىء عند اتكائه، وعبد العالم لا يتلبس بلباس الأجناد، وعبد الجندي لا يتلبس بلباس الزهاد، وبهما تتم العبودية. {أُوْلَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ} أي الناجون من كل مهروب والفائزون بكل مطلوب {وَمِنَ ٱلنَّاسِ} وهو النضر بن الحرث {مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ} أي أباطيل الحديث {لِيُضِلَّ} بذلك {عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ} أي على دينه الحق الموصل إليه تعالى.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، أي ليستمر على ضلاله عن قراءة كتاب الله تعالى الهادي إليه {بِغَيْرِ عِلْمٍ} أي يشتري بغير علم بحال ما يشتريه {وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا}. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالنصب عطفاً على «يضل». والباقون بالرفع عطفاً على «يشتري»، والضمير البارز للسبيل وهو دين الإسلام أو للقرآن. {أُوْلَٰئِكَ} أي من يشتري ذلك {لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} أي ذو إهانة لإهانتهم الحق، {وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ} أي المشتري {ءَايَٰتُنَا} أي التي هي آيات الكتاب الحكيم {وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً} أي أعرض عنها مبالغاً في التكبر عن الإيمان بها، {كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا} أي كأنه لم يسمع الآيات {كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْراً} أي مشبهاً حاله حالاً من في أذنيه ثقل مانع من السماع، {فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} أي فأعلمه يا أشرف

الخلـق بـأن العـذاب المفـرط فـي الإيلام لا حـق بـه لا محالـة {إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ} أي نعيـم جنـات ف «لهم» خـبر إن، و «جنـات» مرفـوع علـى الفاعليـة. {خَٰلِدِينَ فِيهَا} حال من «جنات النعيم»، أو من ضمير «لهـم»، {وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّاً} أي وعـدهم اللـه جنـات النعيـم وعـداً وحـق ذل حقـاً فهمـا مصدران مؤكدان الأول: لنفسه، والثاني: لغيره، لأن قـوله تعـالى: {لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ} فـي معنـى وعـدهم اللـه جنـات النعيـم، فأكـد معنى الوعد بالوعَد. وأما حقاً فدل على معنى الثبات أكد به معنـى الوعد ومؤكدهما جميعاً لهم جنات النعيم. {وَهُوَ ٱلْعَزِيـزُ} الـذي لا يغلبه شيء، { ٱلْحَكِيمُ} الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة.

{خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ} أي بغير دعائم {تَرَوْنَهَا}. فهذا إما راجع للسمٰوات وهو استئناف جيء به للاستشهاد على خلقه تعالى لها، غير معمودة بمشاهدتهم لها كذلك، أي ليست هي بعمـد وأنتـم ترونها كذلك وإما راجع للعمد وهو صـفة لـه أي بغيـر عمـد مرئيـة، وإن كان هناك عمد غير مرئية فهي قدرة الله وإرادته {وَأَلْقَىٰ فِـى ٱلأَرْضِ رَوَاسِىَ} أي جبالاً ثـوابت. قـال ابـن عبـاس: هـي الجبـال الشامخات من أوتاد الأرض، وهـي سـبعة عشـر جبلاً منهـا: قـاف، وأبو قبيس، والجودي، ولبنان، وطور سـينين، وثـبير، وطـور سـيناء أخرجه ابن جرير {أَن تَمِيدَ بِكُـمْ} أي كراهـة أن تميـل الأرض بكـم {وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ} أي فرق الله في الأرض من كل نوع مـن أنواع ذي روح، {وَأَنزَلْنَـا مِـنَ ٱلسَّـمَآءِ مَـآءً} وهـو المطـر {فَأَنْبَتْنَـا فِيهَا}، أي في الأرض بسبب ذلك الماء {مِـن كُـلِّ زَوْجٍ كَرِيـمٍ} أي من كل جنس حسن فتحت كل جنس نوعان لأن النبـات إمـا شـجر أو غير شجر، فالشجر إما مثمر أو غيـر مثمـر. {هَٰـذَا} أي الأشـياء المعدودة {خَلْقُ ٱللَّـهِ} أي مخلـوقه {فَـأَرُونِى} أي فـأخبروني يـا أهل مكـة، {مَـاذَا خَلَـقَ ٱلَّـذِينَ مِـن دُونِـهِ} أي مـن غيـر اللـه ممـا تعبدونه فكيف تتركون عبادة الخالق وتشتغلون بعبـادة المخلـوق؟ {بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ} أي بل المشـركون فـي خطـأ بيِّـن وأنتم يا أهل مكة منهم {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ ٱلْحِكْمَـةَ} وهـو توفيـق العمـل بـالعلم فكـل مـن أوتـي توفيـق العمـل بـالعلم فقـد أوتـي الحكمة، فمن تعلـم شـيئاً ولا يعلـم مصـالحه ومفاسـده لا يسـمى حكيماً وإنما يكون مبخوتاً ألا ترى أن مـن يلقـي نفسـه مـن مكـان عالٍ ووقع على موضع، فانخسف به وظهر له كنـز وسـلم لا يقـال: إنه حكيم لعدم علمـه بـه أولاً، بـل هـو يعلـم أن الإلقـاء فيـه إهلاك النفس والإنسان إذ علم أمرين أحدهما أهم من الآخر، فإن اشتغل بالأهم كان عمله موافقاً لعلمه وكان حكمة وأن الأهم كان مخالفـاً

للعلم، ولم يكن من الحكمة في شيء قيل: ولقمان هو ابن باعوراء من أولاد آزر، ابن أخت أيوب عليه السلام، وعاش حتى أدرك داود عليه السلام، وأخذ عنه العلم وكان يفتي قبل مبعثه وروي أنه كان نائماً في نصف النهار فنودي: يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض فتحكم بين الناس بالحق؟ فأجاب الصوت فقال: إن خيرني ربي قبلت العافية ولم أقبل البلاءُ وإن عزم على فسمعاً وطاعة فإني أعلم أن الله تعالى إن فعل بي ذلك أعانني وعصمني. فقالت الملائكة بصوت وهو لا يراهم: يا لقمان هل لك في الحكمة؟ قال: فإن الحاكم يغشاه المظلوم من كل مكان إن عدل نجا وإن أخطأ الطريق أخطأ طريق الجنة، ومن يكن في الدنيا ذليلاً خير من أن يكون شريفاً ومن يختر الدنيا على الآخرة تفتنه الدنيا ولم يصب الآخرة، فعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام نومة فأعطى الحكمة، فانتبه وهو يتكلم بها {أَنِ ٱشْكُرْ للَّهِ} ف «أن» مفسرة فإن إيتاء الحكمة في معنى القول، فإن شكر الله تعالى أهم الأشياء {وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ}، أي ومن يشكر له تعالى فإنما يشكر لنفسه لأن منفعته مقصورة عليها، {وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ} أي ومن كفر النعمة فالله غير محتاج إلى شكره حتى يتضرر بكفران الكافر، وهو تعالى في نفسه محمود سواء شكره الناس أو لم يشكروه. {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ} ثاران. وقيل: أنعم. وقيل: مشكم. {وَهُوَ يَعِظُهُ} ويبدأ في الوعظ بالأهم {يٰبُنَىَّ} تصغير محبة.

وقرأ حفص بفتح الياء وسكنها ابن كثير، وكسرها الباقون. {لاَ تُشْرِكْ بِٱللَّهِ} قيل: كان ابنه كافراً فلم يزل به حتى أسلم، ومن وقف على تشرك جعل بالله قسماً {إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}، لأن الشرك وضع للنفس الشريف، ولأنه وضع العبادة في غير موضعها.

الآية: 14 – 20

{وَوَصَّيْنَا ٱلإِنْسٰنَ بِوٰلِدَيْهِ}، أي أمرناه بالبر بهما {حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَىٰ وَهْنٍ} أي حملته أمه في بطنها تضعف ضعفاً فوق ضعف، كلما كبر الولد في بطنها كان أشد عليها {وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ} أي وفطامه في تمام عامين وهي مدة الرضاع عند الشافعي، ومدة الرضاع عند أبي حنيفة ثلاثون شهراً {أَنِ ٱشْكُرْ لِى} بالطاعة لأني المنعم في الحقيقة {وَلِوٰلِدَيْكَ} بالتربية، لأنهما سبب لوجودك.

قال سفيان بن عيينة: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى، ومن دعا للوالدين في أدبار الصلوات الخمس فقد شكر للوالدين {إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ} أي إلى الرجوع فأجازيك على ما صدر عنك من الشكر والكفر.

{وَإِن جٰهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا} أي أن خدمتهما واجبة وطاعتهما لازمة ما لم يكن فيها ترك طاعة الله، أما إذا أفضى إليه فلا تطعهما {وَصَٰحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفاً}، أي صحاباً معروفاً يرتضيه الشرع وتقتضيه المروءة، {وَ ٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ} بالتوحيد والإخلاص في الطاعة وهو النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقيل: هو أبو بكر الصديق، وذلك أنه حين أسلم أتاه عثمان، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف. وقالوا له: قد صدقت هذا الرجل وآمنت به قال: نعم هو صادق فآمنوا، ثم حملهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم حتى أسلموا فهؤلاء لهم سابقة الإسلام بإرشاد أبي بكر رضي الله عنه، {ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ} أي مرجعك أيها الإنسان، ومرجع والديك، ومرجع من أناب {فَأُنَبِّئُكُمْ} عند رجوعكم {بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} بأن أجازي كلاً منكم بما صدر عنه من الخير والشر. {يٰبُنَىَّ}، روى أن ابن لقمان قال: يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله؟ فقال: يا بني {إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ} أي أن الخصلة من الإساءة والإحسان إن تك مثلاً في الصغر كحبة الخردل.

وقرأ نافع مثقال بالرفع وكان تامة وضمير «إنها» للقصة، أي إن الشأن أن يوجد وزن حبة الخردل، {فَتَكُنْ} أي تلك الخصلة {فِى صَخْرَةٍ} تحت الأرضين وهي التي عليها الثور، وهي لا في الأرض ولا في السماء {أَوْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ أَوْ فِى ٱلأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ} أي يحضرها ويحاسب عليها. {إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ} يصل علمه إلى كل خفي {خَبِيرٌ} بكنهه {يٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ} بجميع حدودها {وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ} بالإحسان، {وَ ٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ} أي القبيح من القول والعمل، {وَ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ} من الشدائد والمحن، لا سيما بسبب الأمر والنهي {إِنَّ ذَلِكَ} أي الصبر أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر {مِنْ عَزْمِ ٱلأُمُورِ} أي من الأمور الواجبة المقطوعة، فلم يرخص في تركه {وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ} أي لا تعرض وجهك من الناس تكبراً. ويقال: لا تحقر فقراء المسلمين {وَلاَ تَمْشِ فِى ٱلأَرْضِ مَرَحاً} أي اختيالاً {إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} فالمختال من يكون به خيلاء، وهو الذي يري الناس عظمة نفسه، وهو التكبر والفخور، من يكون مفتخراً بنفسه، وهو

الذي يرى عظمة نفسه وهو التكبر والفخور من يكون مفتخراً بنفسه وهو الذي يرى عظمة لنفسه في عينه. {وَ ٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ} أي توسط في المشي بين الدبيب والإسراع {وَ ٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ} أي وانقص منه، وهذا إشارة إلى التوسط في الأقوال {إِنَّ أَنكَرَ ٱلأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ} أي إن أقبح أصوات الحيوانات صوت الحمير، أوله صوت قوي وآخره صوت ضعيف. {أَلَمْ تَرَوْاْ} أي ألم تعلموا أيها المشركون {أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلأَرْضِ} أي أن الله جعل لأجلكم ما في السموات من الشمس، والقمر، والنجوم، والسحاب، والمطر، وما في الأرض من الشجر والدواب منقاداً للأمر فإن الكائنات مسخرة لله تعالى مستتبعة لمنافع الخلق. {وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً} أي وأتم عليكم نعمة محسوسة معقولة، معروفة لكم، وغير معروفة.

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص «نعمة» بفتح العين وبالهاء آخره. والباقون بسكون العين وبتاء منونة آخره. {وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ} نزلت هذه الآية في النضر بن الحرث، وأبيّ بن خلف وأمية بن خلف وأشباههم كانوا يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم في الله تعالى وفي صفاته {بِغَيْرِ عِلْمٍ} مستفاد من دليل {وَلاَ هُدًى} من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم {وَلاَ كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ} أنزله الله تعالى بل بمجرد التقليد،

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ} أي لمن يخاصم { ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ} على نبيه من القرآن، {قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا} أي قالوا: نترك القول النازل من الله ونتبع الفعل من آبائنا، وهو عباد الأصنام {أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ} أي قال الله تعالى أيتبعون آباءهم ولو كان الشيطان يدعو آباءهم فيما هم عليه من الشرك {إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ} فهم يقتدون بهم {وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ}، أي ومن يفوض إليه تعالى مجامع أموره، ويقبل عليه تعالى بكليته وهو آت بأعماله جامعة بين الحسن الذاتي والوصفي فقد تمسك بحبل لا انقطاع له، وترقى بسببه إلى أعلا المقامات، {وَإِلَىٰ ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلأُمُورِ} فيجازيه أحسن الجزاء، {وَمَن كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنكَ كُفْرُهُ} أي لا تحزن إذا كفر كافر {إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ} في الدنيا من الكفر والمعاصي بالعقاب {إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ} فلا يخفي عليه سرهم وعلانيتهم فينبئهم بما أضمرته صدورهم {نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً} أي زماناً قليلاً مدة حياتهم، {ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ} ثم نردهم في الآخرة إلى عذاب شديد، أي فإنهم لما كذبوا الرسل، ثم تبين لهم الأمر وقع عليهم من الخجالة ما يدخلون ولا

يختارون الوقوف بين يدي ربهم بمحضر الأنبياء. {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ} وهذا يصدقك في دعوى الوحدانية، ويبين كذبهم في الإشراك {قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ} على ظهور صدقك وكذب مكذبيك {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}، أي ليس لهم علم يمنعك من تكذيبك مع اعترافهم بما يوجب تصديقك {لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضَ} فلا يستحق العبادة فيهما غيره تعالى {إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ}، أي الغني عن العالمين، المستحق للحمد، وإن لم يحمده أحد. {وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَ ٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ}، أي ولو كانت الأشجار أقلاماً والبحار السبعة من بعد نفاذ البحر المحيط مداداً، فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب، فإن العجائب بقوله تعالى: {كُنَّ} و «كن» كلمة، وإطلاق اسم السبب على المسبب جائز كما يقول الشجاع لمن يبارزه: أنا موتك وكما يقال للدواء في حق المريض هذا شفاؤك، ودليل صحة هذا هو أن الله تعالى سمى المسيح: كلمة، لأنه كان أمراً عجيباً لوجوده من غير أب، ولذا قلنا بأن عجائب الله لا نهاية لها دخل فيها كلامه تعالى، فالمخلوق هو الحرف والتركيب هو عجيب. أما الكلمات فهي من صفات الله تعالى، {إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ} أي كامل القدرة فلا يعجزه شيء {حَكِيمٌ} أي كامل العلم فلا يخرج عن علمه أمر {مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ} أي ما خلقكم وبعثكم إلا كخلق نفس واحدة بعثها في سهولة الحصول، إذ لا يشغله تعالى شأن، لأن مناط وجود الكل تعلق إرادته الواجبة مع قدرته الذاتية {إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} أي سميع لما يقولون كيف يبعثنا بصير بما يعملون {أَلَمْ تَرَ} أي ألم تعلم يا أيها الغافل {أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ} أي يدخل كل واحد منهما في الآخر ويضمه إليه، فيتفاوت بذلك حاله زيادة ونقصاناً {وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ} أي ذللهما {كُلٌّ يَجْرِى إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى} أي إلى وقت معلوم في منازل معروفة لهما، {وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ} في كل وقت من الخير والشر {خَبِيرٌ}. فمن شاهد مثل ذلك الصنع لا يغفل عن كون صانعه محيطاً بجلائل أعماله ودقائقه {ذَٰلِكَ} أي ما ذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع، {بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ} أي الثابت الوجود وألوهيته، {وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ}، وبسبب بيان بطلان إلهية ما يعبدونه من غيره تعالى.

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص «يدعون» بالغيبة. {وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ} أي وبيان أنه تعالى هو العلي في

صفاته، الكبير في ذاته، أكبر من كل ما يتصور، فلا يكون جسماً في مكان.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ} أي بالريح التي هي بأمر الله، وبإحسانه تعالى في تهيئة أسباب الجري {لِيُرِيَكُمْ مِّنْ ءَايَٰتِهِ} أي ليريكم بإجراء السفينة بنعمته بعض دلائل وحدته وعلمه وقدرته {إِنَّ فِى ذَٰلِكَ} أي فيما ذكر {لَأَيَٰتٍ} عظيمة في ذاتها، كثيرة في عددها {لِّكُلِّ صَبَّارٍ} في الشدة {شَكُورٍ} في الرخاء، فالتكاليف أفعال وتروك، فالتروك: صبر عن المألوف. والأفعال: شكر على المعروف {وَإِذَا غَشِيَهُمْ} أي أحاط بهم {مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ}، أي كالجبال في الارتفاع {دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ}، أي مفردين له تعالى بالدعوة بأن ينجيهم، {فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ}، أي مقيم على الطريق المستقيم الذي هو التوحيد، ومنهم من يعود إلى الشرك وهو المراد بقوله تعالى: {وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ} أي الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا {إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ} أي كثير الغدر، ولا يكون الغدر إلا من قلة الصبر {كَفُورٍ} أي مبالغ في كفران نعم الله تعالى. {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ} أي يا أهل مكة أطيعوا ربكم {وَ ٱخْشَوْا۟ يَوْماً لاَّ يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ} أي لا يقضي فيه والد عن ولده في دفع الآلام، {وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً} في دفع الإهانة، ف «مولود» مبتدأ، و «هو» مبتدأ ثان، و «جاز» خبره. والجملة خبر «مولود».

وقرىء «لا يجزىء» بضم الياء ورفع الهمزة أي لا يغني. {إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ} بالثواب والعقاب {حَقٌّ} أي لا يمكن إخلافه أصلاً {فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا} فإنها زائلة لوقوع اليوم الذي لا مجازاة بين الوالد وولده بالوعد الحق {وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ} أي بسبب حلم الله {ٱلْغَرُورُ} أي الشيطان، أو الدنيا فمن الناس من تدعوه الدنيا إلى نفسها فيميل إليها، ومنهم من يوسوس في صدره الشيطان ويزين في عينه الدنيا ويقول: إنك تحصل بها الآخرة، أو تلتذ بها، ثم تتوب فتجتمع لك الدنيا والآخرة، أي كونوا من الذين لا يلتفتون إلى الدنيا ولا إلى من يحسن الدنيا في الأعين، {إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ} أي علم وقت قيام القيامة {وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ} إلى محله في إبانه.

وقرأ نافع، وابن عامر، وعصام بفتح النون وتشديد الزاي. {وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلأَرْحَامِ} من ذكر أو أنثى، تام أو ناقص {وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً} من خير أو شر، {وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ} كما لا تدري في أي وقت تموت.

روي أن ملك الموت مرَّ على سليمان عليه السلام، فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه فقال الرجل: من هذا؟ قال ملك الموت. فقال: كأنه يريدنيٰ فمر الريح أن تحملني وتلقيني ببلاد الهند، ففعل، ثم قال الملك لسليمان: كان دوام نظري إليه تعجباً منه حيث كنت أمرت بأن أقبض روحه بالهند وهو عندك. {إِنَّ ٱللَّهَ عَلَيمٌ} أي مبالغ في العلم بكل شيء {خَبِيرٌ} أي عالم ببواطن الأشياء كما يعلم ظواهرها.

سورة السجدة

وتسمى سورة المضاجع مكية عند أكثرهم وهي تسع وعشرون آية وستمائة وثمانون كلمة. وألف وخمسمائة وثمانية عشر حرفاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الٓمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ} ف «تنزيل» خبر عن «ألم»، أي هذه السورة المسماة «ألم» منزل الكتاب و «لا ريب فيه» حال من «الكتاب»، و «من رب» متعلق ب «تنزيل». {أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ} أي بل أيقول كفار مكة اختلق محمد القرآن من تلقاء نفسه {بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ} أي بل القرآن هو الثابت من ربك نزل به جبريل عليك {لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} أي لكي تخوف بالقرآن قوماً لم يأتهم رسول مخوف قبلك راجياً أنت لاهتدائهم، {ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ} أولها أحد وآخرها جمعة، {ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ} أي ثم استقام الله على ملكه وتصرف فيه تصرفاً تاماً، والعرش موجود قبل السموات والأرض {مَا لَكُمْ} يا أهل مكة {مِّن دُونِهِ} أي من غير الله {مِن وَلِيٍّ} أي قريب ينفعكم، {وَلاَ شَفِيعٍ} ينصركم من عذاب الله فعبادتكم لهذه الأصنام ضائعة لا هم خالقوكم ولا ناصروكم، {أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ} أي أتستمعون هذه المواعظ فلا تتذكرون {يُدَبِّرُ ٱلأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ}، أي يدبر أمر الدنيا من السماء على عباده، ويصعد إليه آثار الأمر وهي أعمالهم الصالحة الصادرة على موافقة ذلك الأمر، فإن نزول الأمر وعروج العمل في مسافة ألف سنة مما تعدون عليهم أي على غير الملائكة، فإن بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة فينزل في مسيرة خمسمائة سنة ويعرج في مسيرة خمسمائة سنة، فهو مقدار ألف سنة.

قال عبد الرحمن بن سابط: يدبر أمر الدنيا أربعة: جبريل، وميكائيل، وملك الموت، وإسرافيل عليهم السلام. فأما جبريل: فموكل بالرياح والجنود. وأما ميكائيل: فموكل بالقطر والماء. وأما ملك الموت: فموكل بقبض الأرواح. وأما إسرافيل: فهو ينزل بالأمر عليهم وقد قيل: إن العرش موضع التدبير كما أن ما دون العرش موضع التفصيل، قال الله تعالى: {ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ}، وما دون السموات موضع التصريف {ذَٰلِكَ} أي المدبر {عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ} أي عالم ما غاب عن العباد وما يكون وما علمه العباد، وما كان فيدبر أمرهما. { ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ} فهو قادر على الانتقام من الكفرة واسع الرحمة على البررة { ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ}، فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت إلى حسن وأحسن، {وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلإِنْسَٰنِ مِن طِينٍ} أي بدأ آدم عليه السلام من أديم الأرض على فطرة عجيبة {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ} أي ذريته {مِن سُلَٰلَةٍ} أي من نطفة {مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ}، أي من ماء ضعيف مخلوط من ماء الرجل والمرأة،

{ثُمَّ سَوَّاهُ} أي عدله بتكميل أعضائه في الرحم {وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ} أي جعل الروح فيه، {وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلأَبْصَٰرَ وَٱلأَفْـِٔدَةَ} على مقتضى الحكمة وذلك لأن الإنسان يسمع أولاً من الناس أموراً فيفهمها، ثم يحصل له بسبب ذلك بصيرة فيبصر الأمور ويجربها، ثم يحصل له بسبب ذلك إدراك تام وذهن كامل فيستخرج الأشياء من قلبه، {قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ} أي فتشكرون شكراً قليلاً، {وَقَالُوٓاْ} أي أبو جهل وأصحابه: {أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلأَرْضِ} أي أئذا غبنا في الأرض بالدفن بأن صرنا تراباً مخلوطاً بترابها بحيث لا نتميز منه، {أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ} أي أئنا يجدد خلقنا {بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ} أي ليس إنكارهم لمجرد الخلق ثانياً، بل يكفرون بجميع أحوال الآخرة حتى لو صدقوا بالخلق الثاني لما اعترفوا بالعذاب والثواب، {قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ}، أي قل يا أشرف الخلق: يقبض أرواحكم ملك الموت الذي وكل بكم بقبض أرواحكم. وذلك دليل على بقاء الأرواح، فلا بد من الحياة بعد الموت لا كما تزعمون أن الموت من الأحوال الطبيعية العارضة للحيوان بموجب الجبلة، {ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} بالبعث للحساب والجزاء، {وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا} أي ولو ترى أيها المخاطب إذ المشركون خافضوا رؤوسهم عند ربهم من الحياء والخزي عند ظهور قبائحهم يقولون: ربنا أبصرنا قبح أعمالنا وكنا نراها في الدنيا حسنة، وأبصرنا الحشر {وَسَمِعْنَا} قول الرسول،

وإن مردنا إلى النار، {فَ ٱرْجِعْنَا} إلى الدنيا {نَعْمَلْ صَٰلِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ} أي إنا آمنا في الحال، أي لو ترى حالهم وتشاهد استخجالهم لترى عجباً {وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} أي قال تعالى جواباً عن قولهم ذلك إني لو أرجعتكم إلى الإيمان لهديتكم في الدنيا، ولما لم أهدكم تبين إني ما شئت إيمانكم فلا أردكم إلى الدنيا. {وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنْى} أي سبقت كلمتي حيث قلت لإبليس فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين. وهو المراد بقوله تعالى: {لاّمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ} أي من كفارهم {فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ} أي لا رجع لكم إلى الدنيا فذوقوا بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم الهائل وترككم التفكر فيه. {إِنَّا نَسِيٰنَٰكُمْ} أي إنا تركناكم بالكلية غير ملتفت إليكم قطعاً لرجائكم، {وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ} أي العذاب الدائم {بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} في الكفر {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِأايٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا} أي بتلك الآيات {خَرُّواْ سُجَّداً} أي انقادت أعضاؤهم للسجود، {وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ}، أي وتحرك ألسنتهم بتنزيهه تعالى عن الشرك {وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ}، عن الخرور والتسبيح والتحميد {تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ} أي تتنحى جنوبهم عن مواضع المنام. قال أنس: نزلت هذه الآية فينا، كنا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع النبي صلى الله عليه وسلم. وعن أنس أيضاً قال: نزلت في أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء وهي صلاة الأوابين؛ وهو قول ابن حازم ومحمد بن المنكدر، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما والمشهور أن المراد منه صلاة الليل وهو قول الحسن، ومجاهد، ومالك، والأوزاعي وجماعة لقوله صلى الله عليه وسلم: «أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل» {يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً} من عدم قبول عبادته ومن سخطه تعالى وعذابه، {وَطَمَعاً} في رحمته {وَمِمَّا رَزَقْنٰهُمْ} من المال {يُنفِقُونَ} في وجوه البر والحسنات، {فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم} أي فلا تعلم نفس لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ما ذخر لهم، {مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ} أي ما يحصل به الفرح والسرور {جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} أي للجزاء بما كانوا يعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة،

{أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً}؟ أي أفبعد ظهور التباين بين المؤمن والكافر يتوهم كون المؤمن الذي حكيت أوصافه الفاضلة كالكافر الذي ذكرت أحواله الشنيعة، {لاَّ يَسْتَوُونَ}، أي

المؤمنون كعلي رضي الله عنه، والكافرون كالوليد بن عقبة بن أبي معيط، وذلك أنه كان بينهما تنازع يوم بدر فقال الوليد بن عبقة لعلي: اسكت فإنك صبي وأنا والله أبسط منك لساناً، وأشجع منك جناناً، وأملأ منك حشواً في الكتيبة فقال علي: اسكت فإنك فاسق. فأنزل الله تعالى هذه الآية. {أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلاً} أي حالة كونها ثواباً معداً لهم كما يعد ما يحصل به الإكرام للضيف {بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} أي بسبب أعمالهم الصالحة في الدنيا.

{وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ} أي خرجوا عن دائرة الإيمان {فَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوۤاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ}، أي النار {أُعِيدُواْ فِيهَا} بمقامع الحديد. {وَقِيلَ لَهُمْ} أي قالت الزبانية زيادة في غيظهم: {ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} أي الذي كنتم في الدنيا تكذبون بعذاب النار وقلتم: إنه لا يكون {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلأَكْبَرِ}، أي ولنصيبن كفار مكة من عذاب الدنيا بالقحط سبع سنين، والقتل والأسر يوم بدر قبل عذاب الآخرة {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} يتوبون عن الكفر، {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِأَايٰتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ} أي لنذيقنهم ولا يرجعون فيكونون قد ذكروا بآيات الله من النعم أولاً والنقم ثانياً، ولم يؤمنوا فلا أظلم منهم. {إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ} أي لما لم ينفعهم العذاب الأدنى فأنا منتقم منهم بالعذاب الأكبر. {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتٰبَ}، أي التوراة {فَلاَ تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِ} أي فلا تكن يا أشرف الخلق في شك من لقاء الكتاب الذي هو القرآن، أي إنا آتينا موسى مثل ما أتيناك من الكتاب فلا تكن في شك من أنك لقيت نظيره، {وَجَعَلْنٰهُ} أي الكتاب الذي آتيناه موسى {هُدًى لِّبَنِىۤ إِسْرٰءِيلَ} كما جعلنا كتابك هادياً للأمة {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ} إلى دين الله {بِأَمْرِنَا} إياهم بذلك، كما جعلنا من أمتك صحابة يهدون {لَمَّا صَبَرُواْ} أي حين صبروا على مشاق الطاعات ومقاساة الشدائد في نصرة الدين.

وقرأ حمزة والكسائي بكسر اللام وتخفيف الميم، أي لصبرهم على ذلك. {وَكَانُواْ بِأَايٰتِنَا} التي في تضاعيف الكتاب {يُوقِنُونَ} لإمعانهم فيها النظر {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ} أي يقضي {بَيْنَهُمْ} أي بين المبتدع والمتبع كما يفصل بين المؤمن والكافر، أو يفصل بين المختلفين من أمة واحدة كما يفصل بين المختلفين من الأمم الكثيرة {يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} من أمور الدين. {أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا} أي أغفلوا ولم يفعل الهداية لهم كثرة إهلاكنا وقد جوز أن يكون الفاعل ضميراً يعود على الله، كما يدل

عليه قراءة «نهد» بنون العظمة فيكون «كم أهلكنا» الخ استئنافاً مبيناً لكيفية هدايته تعالى {مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ ٱلْقُرُونِ} مثل عاد وثمود، وقوم ولوط. {يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ} أي يمرون في أسفارهم إلى التجارة على ديارهم وبلادهم، ويشاهدون آثار هلاكهم {إِنَّ فِى ذَلِكَ} أي في كثرة إهلاكنا الأمم الخالية العاتية {لاٰيَاتٍ} عظيمة في أنفسها كثيرة في عددها {أَفَلاَ يَسْمَعُونَ} هذه الآيات سماع تدبر واتعاظ؟ {أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلاٌّرْضِ ٱلْجُرُزِ} أي التي أزيل نباتها بالمرة.

قال ابن عباس هي أرض اليمن والشام. وقال قوم: هي مصر {فَنُخْرِجُ بِهِ} أي بذلك الماء من تلك الأرض {زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ} أي من ذلك الزرع {أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ} قدم الأنعام في الأكل لأن الزرع أول ما ينبت يصلح للدواب، ولأن الزرع غذاء الدواب، وهو لا بد منه {أَفَلاَ يُبْصِرُونَ}؟ أي ألا ينظرون فلا يبصرون ذلك ليستدلوا به على كمال قدرته تعالى، وعلى فضله؟ {وَيَقُولُونَ} أي المشركون للمؤمنين بطريق الاستعجال تكذيباً واستهزاء: {مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْفَتْحُ} أي النصر؟ {إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ} وكان المسلمون يقولون: إن الله سيفتح لنا على المشركين وإن الله ينصرنا عليكم.

{قُلْ} يا أشرف الخلق لبني خزيمة وبني كنانة {يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لاَ يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ إِيمَٰنُهُمْ} إذا جاءهم العذاب وقتلوا لأن إيمانهم حال القتل إيمان اضطرار، {وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ} أي يمهلون بتأخير العذاب عنهم، ولما فتحت مكة هربت قوم من بني كنانة فلحقهم خالد بن الوليد، فأظهروا الإسلام، فلم يقبله منهم خالد وقتلهم، {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} أي عن بني خزيمة ولا تبال بتكذيبهم {وَٱنْتَظِرْ} هلاكهم يوم فتح مكة {إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُوْن} هلاكك. ويقال: وانتظر النصر من الله فإنهم ينتظرون النصر من آلهتهم. ويقال: وانتظر عذابهم بنفسك فإنهم ينتظرونه بلفظهم استهزاء.

سورة الأحزاب

مدنية بالإجماع، وهي ثلاث وسبعون آية، وألف ومائتان وثمانون كلمة، وخمسة آلاف وتسعمائة وتسعون حرفاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. يأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلاَ تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ} أي المجاهرين بالكفر، {وَٱلْمُنَٰفِقِينَ} المضمرين له. نزلت هذه الآية في أبي سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل،

وأبي الأعور عمرو بن سفيان السلمي. وذلك أنهم قدموا المدينة فنزلوا على عبد الله بن أبيّ، رأس المنافقين، بعد قتال أحد، وقد أعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم الأمان على أن يكلموه، فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وطعمة بن أبيرق فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه ارفض ذكر آلهتنا اللات، والعزى، ومناة وقل: إن لها شفاعة لمن عبدها وندعك وربك، فسق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فقال عمر: يا رسول الله ائذن لنا في قتلهم فقال: «إني أعطيتهم الأمان» فقال عمر: اخرجوا في لعنة الله وغضبه، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرجهم من المدينة، فأنزل الله تعالى هذه الآية. {إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً} أي مبالغاً في العلم والحكمة، فيعلم جميع الأشياء من المصالح والمفاسد، فلا يأمرك إلا بما فيه مصلحة ولا ينهاك إلا عن ما فيه مفسدة، ولا يحكم إلا بما يقتضيه الحكمة البالغة، {وَ ٱتَّبِعْ} في كل ما تأتي وما تذر من أمور الدين {مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً} فلا تهتم بشأنهم فإن الله تعالى كافيكه.

وقرأ أبو عمرو «بما يعملون» بالغيبة، فالواو ضمير يعود على الكفرة والمنافقين {وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ ٱللَّهِ} أي فوض جميع أمورك إليه، {وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً} أي حافظاً موكولاً إليه كل الأمور. {مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ}؛ نزلت هذه الآية في أبي معمر جميل بن أسد الفهري، كان رجلاً لبيباً، حافظاً لما يسمع. فقالت قريش: ما حفظ أبو معمر هذه الأشياء إلا من أجل أن له قلبين، وكان هو يقول: لي قلبان أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد، فلما هزم الله المشركين يوم بدر انهزم أبو معمر، فلقيه أبو سفيان وإحدى نعليه بيده والأخرى برجله، فقال له: يا أبا معمر ما حال الناس؟ فقال: انهزموا. فقال: ما بال إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك؟ فقال أبو معمر: ما شعرت إلا أنهما في رجلي. فعلموا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده. {وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱللاَّئِى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ} أي كأمهاتكم في الحرام. نزلت هذه الآية في أوس بن الصامت أخي عبادة بن الصامت وامرأته خولة. {وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ} الذين تبنيتم {أَبْنَآءَكُمْ} أي كأبنائكم من النسب.

وقرأ عاصم «تظاهرون» بضم التاء وفتح الظاء مع المد وكسر الهاء، وحمزة والكسائي بفتح التاء والظاء مع المد والتخفيف وفتح الهاء، وابن عامر كذلك، إلا أنه يشدد الظاء. والباقون بفتح التاء والظاء والهاء المشددتين ولا ألف بعد الظاء.

روى الأئمة عن ابن عمر قال: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد، حتى نزل ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله، وكان زيد فيما روى عن أنس بن مالك وغيره مسبياً من الشام بستة خيل من تهامة، فاشتراه حكيم بن حزام بن خويلد، فوهبه لعمته خديجة بنت خويلد، فوهبته خديجة للنبي صلى الله عليه وسلم، فأعتقه، وتبناه، فأقام عنده مدة، ثم جاء عنده أبوه وعمه في فدائه فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم : «خيِّراه، فإن اختاركما فهو لكما دون فداء». فاختار الرق مع رسول الله على حريته وقومه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك: «يا معشر قريش اشهدوا أنه ابني يرثني وأرثه». وكان يطوف على حلق قريش يشهدهم، فرضي بذلك عمه وأبوه وانصرفا، {ذَلِكُمْ} أي دعاؤكم بقولكم: هذا ابني {قَوْلُكُم بِأَفْوٰهِكُمْ} فقط فهو قول لا حقيقة له، ولا يخرج من قلب ولا يدخل في قلب فهو قول بالفم مثل أصوات البهائم {وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ} فإن العاقل ينبغي أن يكون قومه له، إما عن عقل أو عن شرع، فإذا قال: فلان ابن فلان ينبغي أن يكون عن حقيقة أو عن شرع بأن يكون ابنه شرعاً وإن لم يعلم الحقيقة كمن تزوج بامرأة فولدت لستة أشهر ولداً، وكان الزوجة من قبل زوجة شخص آخر يحتمل أن يكون الولد منه فإنا نلحقه بالزوج الثاني لقيام الفراش ونقول: إنه ابنه وفي الدعي لم توجد الحقيقة ولا ورد الشرع به، لأن أباه ظاهر مشهور. ومن قال: إن تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب لم يكن حسناً، لأنها زوجة الابن يكون قد ترك قول الله الحق هي حلال لك وقد أخذ بقول خرج من الفم. {وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ} أي سبيل الحق فدعوا أقوالكم وخذوا بقول تعالى: { ٱدْعُوهُمْ لاٰبَآئِهِمْ} أي انسبوهم إليهم {هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ} أي الدعاء لآبائهم بالغ في العدل في حكم الله تعالى {فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوۤاْ ءَابَاءَهُمْ فَإِخوَانُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ} أي بنو عمكم، أي فإن لم تعرفوا أبا شخص تنسبونه إليه وأردتم خطابه فقولوا له: يا أخي، ويا ابن عمي. ويقال: فادعوهم باسم إخوانكم في الدين كأن تقولوا: عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الرحيم، وعبد الرزاق {وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ} أي إثم {فِيمَآ أَخْطَأْتُمْ بِهِ} بالسهو أو سبق اللسان فقول القائل لغيره: يا ابني، بطريق الشفقة أو يا أبي، بطريق التعظيم فإنه مثل الخطأ، ألا ترى أن اللغو في اليمين مثل الخطأ وسبق اللسان. {وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ} فيه جناح {وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً} يغفر الذنوب ويرحم المذنب فالمغفرة هو أن يستر القادر القبيح، الصادر ممن تحت قدرته والرحمة هو أن يميل إلى شخص بالإحسان لعجز المرحوم إليه لا لعوض.

{ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ} أي أشفق {بِ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} في كل أمر من أمور الدين والدنيا، فإن نفوسهم تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم. وهو صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم. والمعنى: أن طاعتهم للنبي أولى من طاعتهم لأنفسهم {وَأَزْوَٰجُهُ أُمَّهَٰتُهُمْ} أي منزلات منزلة الأمهات في استحقاق التعظيم، وفي تحريم نكاحهن تحريماً مؤبداً لا في غير ذلك سواء دخل صلى الله عليه وسلم بها أو لا، وسواء مات عنهن أو طلقهن، {وَأُوْلُو ٱلأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ} أي ذوو القرابات بعضهم أولى ببعض في التوارث بحق القرابة من الإرث بحق الإيمان، وبحق الهجرة في القرآن وهو آية المواريث والوصية، {إِلاَّ أَن تَفْعَلُوۤاْ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِكُمْ مَّعْرُوفاً} أي إلى أصدقائكم وصية من الثلث أي إن أوصيتم فغير الوارثين أولى، وإن لم توصوا فالوارثون أولى بميراثكم وبما تركتم {كَانَ ذَٰلِكَ} أي الميراث للقرابة والوصية للأجانب بالمواددة {فِي ٱلْكِتَٰبِ} أي القرآن {مَسْطُوراً} أي مكتوباً. {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّيْنَ مِيثَٰقَهُمْ} أي اذكر وقت أخذنا من النبيين كافة عهودهم بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين الحق، {وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَٰقاً غَلِيظاً}، أي عهداً مؤكداً وهو الإخبار بأنهم مسؤلون عما فعلوا في الإرسال {لِّيَسْأَلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ} أي ليسأل الرسل عن صدقهم في تبليغ الرسالة تبكيتاً لمن أرسلوا إليهم، وليسأل الوافين عن وفائهم، والمؤمنين عن إيمانهم {وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً} أي فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين بالرسل عذاباً أليماً.

{يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ}، أي أحزاب وهم قريش، وغطفان، ويهود قريظة، والنضير. وكانوا زهاء اثني عشر ألفاً. {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً} وهي ريح الصبا {وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا} وهم الملائكة عليهم السلام، وكانوا ألفاً ولم يقاتلوا يومئذ، وإنما ألقوا الرعب في قلوب الأحزاب، {وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ} من التجائكم إليه ورجائكم فضله {بَصِيراً}، فنصركم على الأعداء عند الاستعداد.

وقرىء «بما يعملون» بالياء، أي الأحزاب {إِذْ جَآءُوكُمْ} أي الأحزاب {مِّن فَوْقِكُمْ} أي من أعلى الوادي من جهة المشرق، وهم بنو غطفان، وأسد قائدهم عيينة بن حصن، وعامر بن الطفيل في هوازن، ومعهم اليهود من قريظة والنضير. {وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ} أي من أسفل الوادي من قبل المغرب، وهم قريش وبنو كنانة، وأهل تهامة، وقائدهم أبو سفيان، وكانوا عشرة آلاف. {وَإِذْ

زَاغَتِ ٱلأَبْصَارُ} أي واذكروا حين مالت أبصار المنافقين عن موضعها عن طريقها فلم تلتفت إلى العدو لكثرته {وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ} أي بلغت قلوب المنافقين بأن انتفخت عند منتهى الحلقوم من الخوف {وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا} أي ظن المخلصون أن الله تعالى ينجز وعده في إعلاء دينه أو يمتحنهم فخافوا الزلل {هُنَالِكَ} أي في ذلك الزمن الهائل والمكان الدحض { ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ}، أي امتحنهم الله فتميز الصادق عن المنافق {وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً}، أي حركوا تحريكاً شديداً من الهول والفزع، وكانت غزوة الأحزاب في شوال سنة أربع وسببها أنه لما وقع إجلاء بني النضير من أماكنهم سار منهم جمع من أكابرهم منهم سيدهم حيي بن أخطب إلى أن قدموا مكة على قريش فحرضوهم على حرب رسول الله وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقال أبو سفيان: مرحباً وأهلاً، وأحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد، ثم خرج أولئك اليهود حتى جاءوا غطفان، وقيس، وغيلان، فطلبوهم لحرب محمد، فأجابوهم، فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان، وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بإقبالهم شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفر الخندق بإشارة سلمان الفارسي، وكان النبي يقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً، فلما فرغوا من حفرة أقبلت قريش والقبائل وجملتهم اثنا عشر ألفاً، فنزلوا حول المدينة حتى نزلوا إلى جانب أحد، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هناك عسكره والخندق بينه صلى الله عليه وسلم وبين القوم، وأمر بالذراري والنساء، فرفعوا في الآطام، فلما رأت قريش الخندق قالوا: هذه مكيدة لم تكن العرب تعرفها، فشرعوا يترامون مع المسلمين بالنبل، ومكثوا في ذلك الحصار أربعة وعشرين يوماً فاشتد على المسلمين الخوف فبعث الله عليهم ريحاً في ليلة شديدة البرد والظلمة، فقلعت بيوتهم، وقطعت أطنابهم، وكفأت قدورهم، وصارت تلقي الرجل على الأرض، وأرسل الله الملائكة، فزلزلتهم ولم تقاتل بل نفثت في قلوبهم الرعب، فلما رأى أبو سفيان ما تفعل الريح قام فقال: يا معشر قريش ليستعرف كل منكم جليسه؛ واحذروا الجواسيس. ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش والله إنكم لستم بدار مقام، ولقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، فارتحلوا، فإني مرتحل. ووثب على جمله وشرع القوم يقولون الرحيل الرحيل والريح

تقلبهم على بعض أمتعتهم وتضربهم بالحجارة ولم تجاوز عسركهم ورحلوا وتركوا ما استثقلوه من متاعهم وحين انجلى الأحزاب قال صلى الله عليه وسلم: «الآن نغزوهم ولا يغزونا».

{وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} أي ضعف اعتقاد {مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ} من إعلاء الدين {إِلاَّ غُرُوراً}، أي إلا وعد غرور أي قال معتب بن قشير وأصحابه: يعدنا محمد بفتح كنوز كسرى وقيصر والحال أننا لا نقدر أن نخرج للغائط خوفاً، وما هذا إلا وعد غرور. {وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ} هم أوس بن قيظي من رؤساء المنافقين وأتباعه.

وقال السدي: هم عبد الله بن أبيّ وأصحابه. {يٰأَهْلَ .يَثْرِبَ} هو اسم المدينة المطهرة {لاَ مُقَامَ لَكُمْ} أي لا وجه لإقامتكم مع محمد {فَٱرْجِعُواْ} عن محمد واتفقوا مع الأحزاب تخرجوا من الأحزان {وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ} أي يستأذن النبي في الرجوع إلى المدينة فريق من المنافقين أوس بن قيظي، وأبو عرابة بن أوس من بني حارثة {يَقُولُونَ} للنبي صلى الله عليه وسلم: ائذن لنا يا نبي الله بالرجوع إلى المدينة {إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ}، أي غير حصينة نخاف عليها سرق السراق {وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ} أي والحال أن البيوت ليس فيها خلل {إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً} أي ما يريدون بالاستئذان إلا فرار من القتل، {وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلاَّ يَسِيراً} أي ولو دخل الأحزاب بيوتهم من جميع جوانبها، ثم سألهم الداخلون أو غيرهم الرجعة إلى الكفر لجاؤوها. وقرأ نافع وابن كثير «لأتوها» بقصر الهمزة، أي لفعلوها. والباقون بالمد، أي لأعطوها إجابة لسؤال من سألهم وما أخروا الردة إلا قدر ما يسع السؤال والجواب، أي لأسرعوا الإجابة إلى الشرك طيبة نفوسهم به {وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ} أي من قبل غزوة الخندق {لاَ يُوَلُّونَ ٱلأَدْبَٰرَ} أي منهزمين من المشركين فإن بني حارثة هموا يوم أحد أن يفشلوا مع بني سلمة، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله تعالى أن لا يعودوا لمثل ذلك {وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْئُولاً} أي وكان ناقض عهد الله مسؤولاً يوم القيامة عن نقضه {قُل} يا أشرف الخلق لبني حارثة: {لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ} لأنه لا بد لكل إنسان من الموت في وقت معين سبق به قضاء الله تعالى وجرى عليه القلم {وَإِذاً لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً}، أي ولو فررتم من الموت في يومكم مثلاً لما دمتم ولما متعتم بعد الفرار إلا تمتيعاً قليلاً {قُلْ} يا أكرم الرسل لبني حارثة: {مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُمْ مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوۤءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً} أي من

يمنعكم من مراد الله إن أراد بكم عـذاباً بالقتـل أو أراد بكـم نجـاة من القتل {وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً} أي ليس لكم ولي يشفع لمحبته إياكم ولا نصير يدفع عنكم السـوء إذا أتـاكم {قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَ ٱلْقَآئِلِينَ لإِخْـوَٰنِهِمْ هَلُـمَّ إِلَيْنَـا}، أي قد علم الله المانعين من الرجوع إلى الخندق والقائلين لأصـحابهم المنافقين: قربوا أنفسكم إلينا أي وهـم عنـد هـذا القـول خـارجون من المعسكر، متوجهون نحو المدينة، وكان هؤلاء عبد الله بن أبي، وجد بن قيس، ومعتب بن قشـير {وَلاَ يَـأْتُونَ ٱلْبَـأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً} أي وهم لا يأتون القتال إلا زماناً قليلاً رياء وسـمعة، {أَشِـحَّةً عَلَيْكُـمْ} أي بخلاء عليكم بأبدانهم {فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَـوْفُ رَأَيْتَهُـمْ يَنظُـرُونَ إِلَيْـكَ تَدورُ أَعْيُنُهُمْ كَ ٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَـوْتِ}، أي فـإذا جـاء خـوف العدو رأيت المنافقين في الخندق يا أشرف الخلق ينظـرون إليـك، تدور أعينهم في أحـداقهم نظـراً كائنـاً كنظـر المغشـي عليـه مـن معالجة سكرات المـوت، {فَـإِذَا ذَهَـبَ ٱلْخَـوْفُ} وحيـزت الغنـائم {سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} أي غلبوكم بألسنة ذربة، وآذوكم بكلامهم يقولون: نحن الذين قاتلنا وبنا انتصرتم وكسـرتم العـدو، وقهرتـم، ويطالبونكم بالقسم الأوفر من الغنيمة وكانوا من قبل راضين مـن الغنيمة بالأياب {أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ} أي حرصاً على المال، ويقال: إنهم قليلو الخير في الحالتين كثيرو الشر فـي الوقـتين، {أُوْلَٰئِـكَ} الموصوفون بما ذكر {لَـمْ يُؤْمِنُـواْ} بقلـوبهم وإن أظهـروا الإيمـان لفظاً {فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ} أي أظهر اللـه بطلان أعمـالهم الـتي كانوا يأتون بها مع المسلمين {وَكَانَ ذَٰلِكَ} أي الإحباط {عَلَى ٱللَّـهِ يَسِيراً} أي هيناً.

{يَحْسَبُونَ ٱلأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ} أي هؤلاء المنافقون لجبنهم يظنون قريشاً وغطفان واليهود، لم ينهزمـوا عنـد ذهـابهم، ففـروا إلى داخل المدينة {وَإِن يَأْتِ ٱلأَحْـزَابُ يَـوَدُّواْ لَـوْ أَنَّهُـمْ بَـادُونَ فِـى ٱلأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَآئِكُمْ وَلَوْ كَـانُواْ فِيكُـمْ مَّـا قَـٰتَلُوۤاْ إِلاَّ قَلِيلاً} أي وإن يأت الكفار بعد ما ذهبوا كرة ثانية تمنـى هـؤلاء المنـافقون أن لو كانوا ساكنين خـارج المدينـة بيـن الأعـراب، بعـداء عـن تلـك الكفار، يسألون كل قادم من جانب المدينة عمـا جـرى عليكـم مـع الكفار. والحال أن هؤلاء المنافقين لو كانوا فيكم هـذه الكـرة ولـم يرجعوا إلى المدينة ووقع قتال آخر: ما قـاتلوا معكـم إلا قليلاً ريـاء وخوفاً من التعبير {لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّـهِ أُسْـوَةٌ حَسَـنَةٌ}، أي خصلة حسنة حقها أن يقتدي بها على سبيل الإيجاب فـي أمـور الدين، وعلى سبيل الاستحباب في أمـور الـدنيا {لِّمَـن كَـانَ يَرْجُـو ٱللَّهَ وَ ٱلْيَـوْمَ ٱلآخِـرَ} أي يرجـو ثـواب اللـه واليـوم الآخـر خصوصـاً

{وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيراً} باللسان والقلب {وَلَمَّا رَأَى ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلأَحْزَابَ} أي الكفار الكثيرة الأجناس {قَالُواْ هَـٰذَا} أي المرئي {مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ} بقوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ} الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء إلى قوله تعالى: {أَلا إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ} وبقوله صلى الله عليه وسلم: «سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم» وبقوله صلى الله عليه وسلم: «إن الأحزاب سائرون إليكم بعد تسع ليال أو عشر». {وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ} في النصرة والثواب كما صدقا في البلاء {وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيماً}، أي وما زادهم الوعد إلا إيماناً بوقوعه وتسليماً عند وجوده، ويقال: وما زادهم ما رأوه إلا إيماناً بالله وبمواعيده، وتسليماً لأوامره ومقاديره.

وقرأ ابن أبي عبلة «وما زادوهم» بضمير الجمع، ويعود للأحزاب، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرهم أن الأحزاب تأتيهم بعد تسع أو عشر {مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ} أي أتوا بالصدق في عهدهم من الثبات مع الرسول، أي من الصحابة رجال نذورا أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا، وهم عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد وعمرو بن نفيل، وحمزة، ومصعب بن عمير، وأنس بن النضر وغيرهم. {فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ} أي نذره كحمزة، ومصعب بن عمير، وأنس بن النضر وغيرهم. وأخرج الترمذي عن معاوية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «طلحة ممن قضى نحبه». وقد روي أن طلحة ثبت مع رسول الله يوم أحد حتى أصيبت يده فقال صلى الله عليه وسلم: «أوجب طلحة الجنة» وعنه صلى الله عليه وسلم في رواية عائشة: «من سره أن ينظر إلى شهيد يمشي على الأرض وقد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة». {وَمِنْهُمْ مَّن يَنتَظِرُ} قضاء نحبه لكونه موقناً، كعثمان وطلحة وغيرهما ممن استشهد بعد ذلك فإنهم مستمرون على نذورهم {وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً} أي وما غيروا العهد تغييراً بالنقض {لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ} أي بصدق ما وعدهم بالقول والفعل في الدنيا والآخرة {وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ} الذين كذبوا وأخلفوا بما صدر عنهم من الأعمال والأقوال المحكية {إِن شَآءَ} تعذيبهم فيمنعهم من الإيمان فماتوا على النفاق {أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} إن تابوا قيل: الموت إن أراد ذلك {إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً} لمن تاب حيث ستر ذنوبهم {رَّحِيماً} حيث رزقهم الإيمان {وَرَدَّ ٱللَّهُ} أي صرف الله { ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} وهم الأحزاب

{بِغَيْظِهِمْ} أي ملتبسين به {لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً} أي غير ظافرين بخير من دين ودنيا. {وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ} أي رفع الله مؤنة القتال عن المؤمنين بالريح والملائكة، {وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيّاً} على نصر المؤمنين فلم يحوجهم إلى قتال الكفار، {عَزِيزاً} أي قادراً على إهلاك الكافرين وإذلالهم.

روى البخاري عن سلمان بن صرد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انجلى الأحزاب يقول: «الآن نغزوهم ولا يغزونا نحن نسير إليهم» {وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم} أي عاونوا كفار مكة {مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ} وهم بنو قريظة والنضير كعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب وأصحابهما، {مِن صَيَاصِيهِمْ} أي حصونهم {وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ}، أي الخوف الشديد حتى سلموا أنفسهم للقتل وأولادهم ونساءهم للسبي {فَرِيقاً تَقْتُلُونَ} وهم الرجال، كانوا ستمائة {وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً} وهم النساء والذراري، وكانوا سبعمائة.

{وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ} من الحدائق والمزارع {وَدِيَٰرَهُمْ}، أي منازلهم {وَأَمْوَٰلَهُمْ} من النقد والماشية، والسلاح، والأثاث وغيرها، {وَأَرْضاً لَّمْ تَطَئُوهَا} أي لم تقبضوها الآن، وهي خيبر فإنها فتحت بعد بني قريظة بسنتين كما قاله السدي ومقاتل أو هي أرض الروم وفارس كما قاله الحسن {وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيراً} ويملككم غيرها.

روي أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب ورجع المسلمون إلى المدينة ووضعوا السلاح وهو على فرسه الحيزوم، والغبار على وجه الفرس، والسرج فقال صلى الله عليه وسلم: «ما هذا يا جبريل؟» فقال: من متابعة قريش. فجعل رسول الله يمسح الغبار عن وجه الفرس وعن سرجه فقال: يا رسول الله إن الملائكة لم تضع السلاح منذ أربعين ليلة، إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة، فانهض إليهم فإني قد قطعت أوتارهم، وفتحت أبوابهم، وتركتهم في زلزال، وألقيت الرعب في قلوبهم، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم منادياً ينادي: إن من كان مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة، فحاصرهم المسلمون خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار فقال لهم: رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتنزلون على حكمي فأبوا فقال: أتنزلون على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس فرضوا به» فقال سعد: حكمت فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد حكمت فيهم بحكم

الله من فوق سبع سموات». فحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار بنت الحرث من نساء بني النجار، ثم خرج إلى سوق المدينة الذي هو سوقها اليوم فخندق فيه خندقاً، ثم بعث إليهم، فأتى بهم إليه، وفيهم حيي بن أخطب رئيس بني النضير، وكعب بن أسد رئيس بني قريظة، وكانوا ستمائة، فأمر علياً والزبير بضرب أعناقهم، وطرحهم في ذلك الخندق، فلما فرغ من قتلهم وانقضى شأنهم توفي سعد المذكور بالجرح الذي أصابه في وقعة الأحزاب وحضره رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر وعمر. قالت عائشة: فوالذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وإني في حجرتي. {يٰأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لأَزْوَٰجِكَ} قال عكرمة كان تحته صلى الله عليه وسلم يومئذ تسع نسوة خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وسودة بنت زمعة وأم سلمة بنت أبي أمية ثم صفية بنت حي الخيرية وميمونة بنت الحرث الهلالية وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحرث من بني المصطلق. وروي أنهن سألنه صلى الله عليه وسلم ثياب الزينة وزيادة النفقة فنزلت هذه الآية: {إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا} أي التنعم فيها {وَزِينَتَهَا} أي زخارفها {فَتَعَالَيْنَ} أي أقبلن بإرادتكن واختياركن لإحدى الخصلتين {أُمَتِّعْكُنَّ} أي أعطاكن المتعة {وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً}، أي أخرجكن من البيوت من غير ضرار بعد إعطاء المتعة {وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ} أي تردن طاعة الله وطاعة رسوله {وَٱلدَّارَ ٱلآخِرَةَ}، أي الجنة {فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنٰتِ مِنكُنَّ} أي لمن عمل الصالحات منكن {أَجْراً عَظِيماً} وهو الكبير في الذات، الحسن في الصفات، الباقي في الأوقات.

وروي عن جابر بن عبد الله قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم، فأذن لأبي بكر فدخل، ثم جاء عمر، فأستأذن، فأذن له، فدخل، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم جالساً واجماً ساكتاً وحوله نساؤه قال عمر: فقلت: والله لأقولن شيئاً أضحك به النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول صلى الله عليه وسلم لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها فضحك النبي صلى الله عليه وسلم وقال: «هن حولي كما ترى يسألنني النفقة». فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقول: لا تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده. فقلن: والله لا نسأل رسول الله أبداً شيئاً ليس عنده، ثم اعتزلهن شهراً، ثم نزلت هذه الآية.

فبدأ بعائشة فقال: «يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً لا أحب أن تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك». قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية. فقالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي، بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، ثم اختارت الباقيات اختيارها فشكر لهن ذلك، {يٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ} أي بكبيرة {مُّبَيِّنَةٍ} أي ظاهرة القبح. وقرأ ابن كثير وشعبة بفتح الياء التحتية، أي بين الله قبحها {يُضَاعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ}، أي يعذبن ضعفي غيرهن. وقرأ أبو عمرو «يضعف» بتشديد العين على البناء للمفعول. وقرأ ابن كثير وابن عامر «نضعف» بنون العظمة وتشديد العين على البناء للفاعل ونصب «العذاب». {وَكَانَ ذَٰلِكَ} أي التضعيف {عَلَى ٱللَّهِ يَسِيراً} لا يمنعه تعالى عن التضعيف كونهن نساء النبي صلى الله عليه وسلم، وليس أمر الله كأمر الخلق حيث يتعذر عليهم تعذيب الأعزة بسبب كثرة شفعائهم، {وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ للَّهِ وَرَسُولِهِ} أي من يطع الله ورسوله منكن {وَتَعْمَلْ صٰلِحاً} أي خالصاً فيما بينها وبين ربها {نُؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ}، أي نعطها ثوابها مثلي ثواب غيرها من النساء، فمرة على الطاعة، ومرة لطلبهن رضا رسول الله بالقناعة، وحسن المعاشرة، وقرأ حمزة والكسائي بالياء التحتية في «يعمل»، و«يؤتها». {وَأَعْتَدْنَا لَهَا} أي هيأنا لها {رِزْقاً كَرِيماً} أي مرضياً في الجنة، زيادة على أجرها المضاعف، {يٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ} أي اتصفتن بالتقوى، لأن فيكن أمراً لا يوجد في غيركن وهو كونكن أمهات جميع المؤمنين، وزوجات خير المرسلين، كما أن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس كأحد من الرجال، {فَلاَ تَخْضَعْنَ بِـ ٱلْقَوْلِ} أي فلا ترفقن بالقول عند الرجال {فَيَطْمَعَ} في الخيانة {ٱلَّذِي فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ} أي شهوة الزنا، {وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً} أي قولاً حسناً مع كونه خشناً، {وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ} أي امكثن في بيوتكن، وليكن عليكن حسن الهيئة. وقرأ نافع وعاصم بفتح القاف فهو أمر من قر يقر من باب علم أو من قار يقار إذا اجتمع. وقرأ غيرهما بكسر القاف من وقر يقر وقاراً. {وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجٰهِلِيَّةِ ٱلأُولَىٰ} أي ولا تتزين بزينة الكفار في الثياب الرقاق الملونة. والمراد بالجاهلية الأولى هي التي قبل الإسلام {وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ} أي أتممن الصلوات الخمس. {وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ} أي أعطين زكاة أموالكن {وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ} في كل ما تأتين وما تذرن {إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ}، أي عمل الشيطان وما ليس فيه رضا الرحمٰن كما قاله ابن عباس أو الذنب المدنس بعرضكم، {أَهْلَ

ٱلْبَيْتِ}، أي يا أهل بيت النبوة. وأخرج الترمذي حديثاً أنه لما نزلت هذه الآية دعا النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة، وحسناً، وحسيناً، وعلياً، وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي». وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: نولت هذه الآية في نساء النبي صلى الله عليه وسلم خاصة. {وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً} أي يلبسكم خلع الكرامة، فذهاب الرجس كناية عن زوال عين النجاسة، والتطهير كناية عن تطهير المحل.

{وَ ٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَ ٱلْحِكْمَةِ} أي اذكرن للناس بطريق العظة ما يتلى في بيوتكن من القرآن، وكلمات النبي صلى الله عليه وسلم {إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً} يعلم ويدبر ما يصلح في الدين، {إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَ ٱلْمُسْلِمَٰتِ} أي إن المنقادين لحكم الله تعالى من الذكور والإناث، {وَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ} أي المصدِّقين بما يجب تصديقه من الفريقين {وَ ٱلْقَٰنِتِينَ وَ ٱلْقَٰنِتَٰتِ}، أي المداومين على الطاعات، {وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ} في القول والعمل، {وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ} على الطاعات وعن المعاصي، {وَ ٱلْخَٰشِعِينَ وَ ٱلْخَٰشِعَٰتِ} أي المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم، {وَ ٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَ ٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ} بما وجب في مالهم، {وٱلصَّٰئِمِينَ وٱلصَّٰئِمَٰتِ} الصوم المفروض، {وَ ٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ ٱلْحَٰفِظَٰتِ} عن الحرام، {وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيراً وَٱلذَّٰكِرَٰتِ} بقلوبهم وألسنتهم، {أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم} بسبب ما عملوا من تلك الحسنات المذكورة {مَّغْفِرَةً} للصغائر {وَأَجْراً عَظِيماً} على الطاعات. نزلت هذه الآية في قول أم سلمة، ونسيبة بنت كعب الأحبار: يا رسول الله ما ترى الله يذكر النساء في شيء من الخير، إنما ذكر الرجال، ثم نزلت في زينب بنت جحش بنت عمة رسول الله، وأميمة بنت عبد المطلب خطبها رسول الله لزيد بن حارثة فأبت هي وأخوها عبد الله، وكانت بيضاء جميلة، وزيد أسود وقالت: أنا بنت عمتك يا رسول الله فلا أرضاه لنفسي.

وقيل: نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وأخيها، وكانت وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فزوجها من زيد بعد ما طلق زينب بنت جحش، فسخطت هي وأخوها وقالا: إنما أردنا رسول الله فزوجنا عبده. {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}، أي وما صح لكل مؤمن وكل مؤمنة إذا أراد رسول الله أمراً أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا، بل يجب عليهم أن يجعلوا اختيارهم تبعاً لاختياره صلى الله عليه وسلم، {وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ} في

أمر من الأمور كأن يعمل فيه برأيه {فَقَدْ ضَلَّ} طريق الحق {ضَلَٰلاً مُّبِيناً}، أي بين الانحراف عن سنن الصواب، فلما نزلت هذه الآية رضيت زينب وأخوها، وجعلا الأمر بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنكحها زيداً، وساق إليها رسول الله عشرة دنانير وستين درهماً وخماراً ودرعاً، وملحفة وخمسين مداً من طعام وثلاثين صاعاً من تمر، {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيۤ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ} أي واذكر وقت قولك للذي أنعم الله عليه بالاسلام وأنعمت عليه، بالاعتاق وهو زيد بن حارثة {أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ} زينب، أي لا تطلقها وذلك أنه صلى الله عليه وسلم أبصرها قائمة في درع وحمار بعدما أنكحها إياه، فوقعت في نفسه حالة جبلية لا يكاد يسلم منها البشر. فقال: «سبحان الله مقلب القلوب» وسمعت زينب بالتسبيحة، فذكرتها لزيد ففطن لذلك ووقع في نفسه كراهة صحبتها، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: أريد أن أفارق صاحبتي. فقال: ما لك أرابك منها شيء؟ فقال: لا والله يا رسول الله ما رأيت منها إلاّ خيراً، ولكنها تتعاظم علي بشرفها. فقال له: أمسك عليك زوجك أي لا تفارقها. {وَٱتَّقِ ٱللَّهَ} في أمرها فلا تطلقها تعللاً بتكبرها عليك بسبب النسب وعدم الكفاءة، {وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ} أي والحال أنك تخفي في نفسك ما أعلمك الله أنها ستصير من أزواجك بعد طلاق زيد، {وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ} وتستحي من تعيير الناس إياك بأن يقولوا: أخذ محمد زوجة ابنه {وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَٰهُ}، أي والحال أن الله وحده أحق أن تستحي منه.

{فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً} أي فلما وطئها ولم يبق له فيها حاجة وطلقها وانقضت عدتها {زَوَّجْنَٰكَهَا} أي جعلنا زينب زوجتك بلا واسطة عقد، فدخل صلى الله عليه وسلم عليها بغير إذن ولا تجديد عقد، ولا تقرير صداق، ولا شيء مما يكون شرطاً في حقوقنا، وأولم عليها بشاة، وأطعم الناس خبزاً ولحماً حتى تركوه. وعن أنس قال: ما أولم النبي صلى الله عليه وسلم على أحد من نسائه كما أولم على زينب. {لِكَىْ لاَ يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىۤ أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَراً}، أي لكيلا يكون على المؤمنين ضيق في تزوج نساء من تبنوهم إذا قضوا منهن حاجة بالدخول بهن، ثم الطلاق وانقضاء العدة، فإن لهم في رسول الله أسوة حسنة. والمعنى: زوجناك زينب وهي امرأة زيد الذي تبنيته ليُعلَم أن زوجة المتبنى حلال للمتبني ولو بعد الدخول بها، وفي هذا التعليل إشارة إلى أن التزوج من النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن لقضاء شهوته بل لبيان الشريعة بفعله، فإن الشرع يستفاد

من فعل النبي وقوله: {وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً} أي وكان مراد الله موجوداً في الخارج لا محالة،

{مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُ}، أي ليس على النبي مأثم فيما رخص الله له من التزوج {سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ} أي سن الله ذلك سنة في الذين مضوا من قبل محمد، فإن داود عليه السلام افتتن بامرأة أوريا، وسليمان عليه السلام تزوج بلقيس، ولقد كانت لداود عليه السلام مائة امرأة وثلثمائة سرية، ولسليمان عليه السلام ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية فإن اليهود عابوا النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة النساء، فرد الله عليهم بقوله: سنة الله، أي كسنة الله في الأنبياء الذين من قبل محمد. {وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً} أي وكان قضاء الله حكماً مبتوتاً، والقضاء ما كان مقصوداً في الأصل، والقدر ما يكون تابعاً له مثاله من كان يقصد مدينة، فنزل بطريق تلك المدينة في قرية يصح منه في العرف أن يقول في جواب من يقول: لم جئت إلى هذه القرية؟ إني جئت إلى هذه القرية، وإنما قصدت المدينة الفلانية، وهذه وقعت في طريقي، وإن كان قد جاءها ودخلها إذا عرفت هذا فإن الخير كله بقضاء، وما في العالم من الضرر بقدر. ثم وصف الله تعالى الذين خلوا بقوله تعالى: {ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ} في تبليغ الرسالة {وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ ٱللَّهَ} أي الذين هم كانوا رسلاً مثل محمد {وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيباً}، أي كافياً للمخاوف، فينبغي أن لا يخشى غيره، أو محاسباً على الصغيرة والكبيرة فيجب أن يكون حق الخشية منه تعالى.

{مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مّن رِّجَالِكُمْ} على الحقيقة حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الوالد وولده من حرمة المصاهرة وغيرها، فليس محمد أبا زيد {وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ}، أي ولكن كان محمد رسولاً لله والعامة على تخفيف «لكن»، ونصب «رسول» على إضمار «كان».

وقرأ أبو عمرو وفي رواية بتشديدها على أن «رسول» اسمها، والخبر محذوف، أي ولكن رسول الله. هو وقرأ زيد بن علي، وابن أبي عبلة بتخفيفها ورفع رسول على الابتداء وخبره مقدر، أي هو، أو بالعكس، أو ولكن هو رسول الله. {وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ} أي وكان آخرهم الذين ختموا به. وقرأ عاصم بفتح التاء. والباقون بكسرها، أي فإن رسول الله كالأب للأمة في الشفقة من جانبه وفي التعظيم من طرفهم، بل أقوى، فإن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، والأب ليس كذلك، ثم إن النبي الذي يكون بعده، نبي إن

ترك شيئاً من النصيحة يستدركه من يأتي بعده وأما من لا نبي بعده يكون أشفق على أمته، وأهدى لهم إذ هو كوالد لولده الذي ليس له غيره من أحد {وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً}. ومن جملته الحكم الذي بيَّنه لكم وكنتم منه في شك، والحكمة في تزوجه صلى الله عليه وسلم بزوجة من تبناه إكمال شرعه، وذلك أن قول النبي يفيد شرعاً لكن إذا امتنع هو عنه يبقى في بعض النفوس نفرة، ألا ترى أنه صلى الله عليه وسلم أحل أكل الضب، ثم لما لم يأكله بقي في النفوس شيء، ولما أكل لحم الجمل طاب أكله عندها مع أنه في بعض الملل لا يؤكل، وكذلك الأرنب. {يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ} بما هو أهله من التهليل، والتحميد باللسان والقلب، {ذِكْراً كَثِيراً} يعمّ الأوقات والأحوال أي بالليل والنهار، والبر والبحر، والصحة والسقم، في السر والعلانية عند المعصية والطاعة. {وَسَبِّحُوهُ} أي نزهوه عما لا يليق به. {بُكْرَةً وَأَصِيلاً}. وهذا إشارة إلى المداومة وذلك، لأن مريد العموم قد يذكر الطرفين ويفهم منهما الوسط، {هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰئِكَتُهُ} أي فالله تعالى وملائكته يعتنون بما فيه خيركم وصلاح أمركم، فالله يهديكم برحمته والملائكة يستغفرون لكم {لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ}، أي يخرجكم بذلك من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة، {وَكَانَ بِـ لْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} أي وكان الله بكافة المؤمنين رحيماً. {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَٰمٌ}، أي ما يحيون به يوم لقاء الله عند الموت، أو عند الخروج من القبور، أو عند دخول الجنة تسليم عليهم من الله تعالى، تعظيماً لهم. أو من الملائكة بشارة لهم بالجنة، أو تكرمة لهم. {وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً} أي ثواباً حسناً في الجنة. وهذا ترغيب ببيان أن الأجر الذي هو المقصد الأقصى موجود بالفعل مهيّأ لهم. {يٰأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَاهِداً} على من بُعثت إليهم، تشاهد أعمالهم. فالنبي بُعث في الدنيا متحملاً للشهادة، ويكون في الآخرة مؤدياً لما تحمله. {وَمُبَشِّراً} للمؤمنين بالجنة، {وَنَذِيراً} للكافرين بالنار،

{وَدَاعِياً إِلَى ٱللَّهِ} أي إلى دينه، {بِإِذْنِهِ}. وهذا راجع إلى «داعياً». وذلك كما إذا قال شخص: من يطع الملك يسعد، ومن يعصه يشقى، فيكون مبشراً ونذيراً ولا يحتاج في ذلك إلى إذن من الملك، وأما إذا قال: تعالوا إلى سماطه واحضروا على خوانه فيحتاج في ذلك إلى إذنه. {وَسِرَاجاً مُّنِيراً} يستضاء به في ظلمات الجهل ويهتدي بأنواره إلى مناهج الرشد. {وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً} على سائر الأمم المؤمنين في الزيادة على أجور أعمالهم قوله: {وَبَشِّرِ} عطف على

مفهوم. والتقدير: إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً، فاشهد وبشر. وقيل: لما نزل قوله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} (الفتح: 1، 2) قال المؤمنون: هنيئاً لك يا رسول الله بالمغفرة، فمالنا عند الله تعالى؟ فقال الله تعالى: {وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ} الآية. {وَلاَ تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ} أي ولا تطع الكافرين من أهل مكة، أبا سفيان وأصحابه. والمنافقين من أهل المدينة عبد الله بن أبي وأصحابه، أي لا تترك إبلاغ شيء مما أمرت، {وَدَعْ أَذَاهُمْ} أي دع أذيتهم إياك إلى الله، فإنه يعذبهم بأيديكم وبالنار، أو لا تبال بأذيتهم لك بسبب تصلبك في الدعوة والإنذار، {وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ} في كل ما تأتي وما تذر فإنه تعالى يكفيكهم، {وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً} أي موكولاً إليه الأمور في كل الأحوال {يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوۤاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ} أو الكتابيات، {ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ}. وقرأ حمزة والكسائي «تماسوهن» بضم التاء ومد الميم، أي من قبل أن تجامعوهن. {فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ} بالشهور أو الحيض {تَعْتَدُّونَهَا} أي تستوفون أنتم عددها، {فَمَتِّعُوهُنَّ} أي أعطوهن ما يتمتعن به وهو المتعة الواجبة للمفارقة في الحياة، إذا كانت مدخولاً بها، أو غير مدخول بها، وكانت مفوضة ولم يفرض لها شيء قبل الفراق، {وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً} أي اخروجهن من منازلكم من غير ضرار ولا منع حق. {يٰأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱللاَّتِى ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ} أي أعطيت مهورهن {وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ}، أي مما فتح الله عليك مثل: صفية بنت حيي النضرية، وريحانة القرظية، وجويرية بنت الحرث الخزاعية {وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ} من بني عبد المطلب {وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ} من بني عبد مناف بن زهرة {ٱللاَّتِى هَٰجَرْنَ مَعَكَ}، ذكر للنبي ما هو الأولى، فإن الزوجة التي أوتيت مهرها أطيب قلباً من التي لم تؤت، والمملوكة التي سباها الرجل بنفسه أطهر من التي اشتراها الرجل، فإن المشتراة لا يتحقق بدء أمرها وما جرى عليها، ومن هاجرت من أقارب النبي صلى الله عليه وسلم معه من مكة إلى المدينة أشرف ممن لم تهاجر، {وَ ٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً} وهي أم شريك بنت جابر العامرية، وخولة بنت حكيم، وزينب بنت خزيمة الأنصارية، وميمونة بنت الحرث {إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ}، أي إن ملكته بعضها بأي عبارة كانت بلا مهر، فتصير كالمستوفية مهرها، {إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا} أي أن يتملك بضعها بلا مهر، فإرادة النكاح جارية منه صلى الله عليه وسلم مجرى القبول، {خَالِصَةً لَّكَ} أي حال كون المرأة خصوصية

لك، أو هبة مرخصة لك ف«خالصة» إما حال أو نعت مصدر مقدم. {مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ}. قال الشافعي: والمعنى إن أباحة الوطء بالهبة وحصول التزوج بلفظها من خواصك. وقرىء «خالصة» بالرفع على أنه مبتدأ محذوف، أي تلك المرأة، أو تلك الهبة رخصة لك وخصوصية لك، لا تتجاوز المؤمنين حيث لا تحل المرأة لهم بغير مهر ولا تصح الهبة، بل يجب مهر المثل {قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِى أَزْوَٰجِهِمْ} أي ما أوجبنا على المؤمنين في حق أزواجهم بأن لا يزيدوا على أربع نسوة، ولا يتزوجوا إلاّ بولي وشهود ومهر، {وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ} بأن تكون الأمة ممن تحل لمالكها، كالكتابية وأن تستبرأ قبل الوطء، {لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ} أي ضيق، ف«اللام» متعلق بأحللنا. والمعنى أحللنا أزواجك وما ملكت يمينك، والموهبة لك لتكون في فسحة من الأمر، فلا يبقى لك شغل قلب، فينزل جبريل بالآيات على قلبك الفارغ، وتبلغ رسالات ربك بجدك، {وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}، فيغفر الذنوب مما يعسر التحرز عنه، ويرحم العبيد بتوسعة الأمر في مواضع الضيق،

{تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ} أي تترك مضاجعتها، {وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ} أي وتضم إليك من تشاء مضاجعتها، فالله أحل له صلى الله عليه وسلم وجوه المعاشرة بهن كيف يشاء، ولا يجب عليه القسم، فإن شاء أن يقسم قسم، وإن شاء أن يترك القسم ترك. وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم بالنسبة إلى أمته نسبة السيد المطاع.

وروي أنه صلى الله عليه وسلم أرجأ منهن، سودة، وجويرة، وصفية، وميمونة، وأم حبيبة فكان يقسم لهن ما يشاء كما شاء. وكانت مما آوى إليه صلى الله عليه وسلم: عائشة، وحفصة، وزينب، وأم سلمة، فأرجأ خمساً، وآوى أربعاً. وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي «ترجى» بياء ساكنة. والباقون بهمزة مضمومة {وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ} أي إذا طلبت رد من كنت تركتها إلى فراشك، فلا جناح عليك في شيء من ذلك {ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ} من تقريب وإرجاء، وعزل وإيواء، أي تفويض الأمر إلى مشيئتك أقرب إلى طيب نفوسهن، وإلى قلة حزنهن، وإلى رضاهن جميعاً، لأنه حكم كلهن فيه سواء، ثم إن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلاً منك إن رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله فتطمئن به نفوسهن، {وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ} من الرضا والسخط، فاجتهدوا في إحسان الخواطر، {وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً} أي إن أضمرن خلاف ما أظهرن فإنه يعلم ضمائر القلوب، فإن لم يعاتبهن في الحال فلا

يغتررن، فإنه حليم لا يعجل {لاَّ يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِن بَعْدُ} أي من بعد اختيارهن الله ورسوله، ورضاهن بما يؤتيهن الرسول من الوصل والهجران، والنقص والحرمان.

وقرأ أبو عمرو «لا تحل» بالفوقية، أو لا يحل لك النساء غير اللاتي ذكرنا لك من المؤمنات المهاجرات، من بنات عمك، وبنات عماتك، وبنات خالك، وبنات خالاتك. وأما غيرهن من الكتابيات فلا يحل لك التزوج بهن، {وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ}. وهذا نهي عن شغل الجاهلية فإنهم كانوا يتبادلون زوجة بزوجة، فينزل أحدهم عن زوجته، ويأخذ زوجة صديقه، ويعطيه زوجته. روى الدارقطني عن أبي هريرة قال: كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل تنزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي، وأزيدك، فأنزل الله تعالى: {وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ}. {إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ} فتحل لك، وقد ملك مارية القبطية وولدت له إبراهيم، ومات في حياته صلى الله عليه وسلم، {وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيباً} أي حافظاً شاهداً فاحذروا مجاوزة حدوده، {يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ}، أي لا تدخلوا بيوت النبي في حال من الأحوال إلاّ حال كونكم مأذوناً لكم بالدخول {إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَٰهُ}، أي منتظرين نضجه. نزلت هذه الآية في قوم كانوا يدخلون في بيوت النبي صلى الله عليه وسلم غدوة وعشية، فيجلسون وينتظرون وقت الطعام حتى يأكلوا، ثم يتحدثون مع نساء النبي صلى الله عليه وسلم، فاغتمّ بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، واستحيا أن يأمرهم بالخروج، وينهاهم عن الدخول، فنهاهم الله عند ذلك بهذه الآيات. {وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ} أي أكلتم الطعام {فَٱنتَشِرُواْ}، أي فتفرقوا ولا تلبثوا، {وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ} أي وغير مستأنسين لحديث بعضكم بعضاً، أو لحديث أهل البيت بالتسمع له، {إِنَّ ذَٰلِكُمْ} أي الدخول والمكث لحديث {كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ} لتضييق المنزل عليه وعلى أهله، {فَيَسْتَحْيِى مِنكُمْ} أي من إخراجكم، {وَٱللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِى مِنَ ٱلْحَقِّ} أي لا يترك الأمر بخروجكم، ولا يترك النهي عن الدخول بغير إذن، {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعاً فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ} أي وإذا سألتم نساء النبي شيئاً ينتفع به فاسألوهن من خلف ستر. قيل: إنه صلى الله عليه وسلم كان يطعم ومعه بعض أصحابه فأصابت يد رجل منهم يد عائشة رضي الله عنها، فكره النبي ذلك، فنزلت هذه الآية. {ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ} أي إن عدم الدخول بغير إذن، وعدم الاستئناس للحديث بعد الدخول بالإذن، وسؤال المتاع

من وراءه حجاب أطهر للخواطر التي تعرض للرجال في أمر النساء، {وَقُلُوبِهِنَّ} أي وأطهر للخواطر التي تعرض للنساء في أمر الرجال، أي فإن ذلك أنفى للريبة، وأبعد للتهمة، وأقوى في الحماية. {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلاَ أَن تَنكِحُواْ أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً}، أي وما صحَّ لكم أن تفعلوا في حياته صلى الله عليه وسلم ما يكرهه ويتأذى به، كالدخول عليه بغير إذنه، والحديث مع أزواجه، وما صحَّ لكم أن تنكحوا أزواجه صلى الله عليه وسلم أبداً من بعد فراقه صلى الله عليه وسلم بموت أو طلاق سواء، أدخل بها أم لا.

ونزلت هذه الآية في رجل من الصحابة قال في نفسه: إذا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم نكحت عائشة، وندم هذا الرجل على ما حدَّث به نفسه، فمشى إلى مكة على رجليه، وحمل على عشرة أفراس في سبيل الله، وأعتق رقيقاً فكفَّر الله عنه. قيل: هذا الرجل هو طلحة بن عبيد الله. {إِنَّ ذٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيماً} أي إن إيذاء الرسول بنكاح زوجته أو غيره كان عند الله ذنباً عظيماً {إِن تُبْدُواْ شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً} أي إن تظهروا شيئاً مما لا خير فيه كنكاحهن على ألسنتكم، أو تعزموا على إيذائه صلى الله عليه وسلم، أو نكاح أزواجه بعده في قلوبكم فالله يجازيكم على ذلك.

{لاَّ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِى ءَابَآئِهِنَّ وَلاَ أَبْنَآئِهِنَّ وَلاَ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلاَ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلاَ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ} أي لا إثم على نساء النبي صلى الله عليه وسلم في عدم الاحتجاب عن محارمهن. وهذا استئناف لبيان من لا يجب الاحتجاب عنهم. روي أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: يا رسول الله أَونكلمهن أيضاً من وراء الحجاب؟ فنزلت هذه الآية. {وَلاَ نِسَآئِهِنَّ} أي ولا جناح على زوجات النبي في عدم الاحتجاب عن النساء المسلمات، ويجب عليهن الاحتجاب عن النساء الكافرات ما عدا ما يبدو عند المهنة. {وَلاَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ} من العبيد والإماء. وقيل: من الإيماء خاصة. وقيل: من كان دون البلوغ من العبيد. {وَ ٱتَّقِينَ ٱللَّهَ} في كل ما تأتين وما تذرن. وقال الرازي: واتقين الله عند المماليك. وذلك دليل على أن التكشف لهم مشروط بالسلامة والعلم بعدم المحذور. {إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيداً} فهو شاهد عند اختلاء بعضكم ببعض فخلوتكم مثل ملئكم، فاتقوا شهادة الله، {إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ}، أي إن الله يرحم النبي والملائكة يدعون له صلى الله عليه وسلم.

وقرأ ابن عباس وكذا أبو عمرو في رواية «وملائكته» بالرفع عطفاً على محل «إن»، واسمها عند الكوفيين ومبتدأ محذوف الخبر عند البصريين. {يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}. وهذا دليل على وجوب الصلاة والسلام عند الشافعي، لأن الأمر للوجوب، ولا يجبان إلاّ في الصلاة، فيجبان في التشهد، وهما قولنا فيه: سلام عليك أيها النبي. وقولنا: اللهم صلّ على محمد، وإنما أمرنا الله بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم مع أنه يكفيه صلى الله عليه وسلم صلاته تعالى لإظهار تعظيمه صلى الله عليه وسلم منا شفقة علينا ليثيبنا عليه كما أن الله تعالى أوجب علينا ذكر نفسه تعالى ولا حاجة له إليه.

{إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ} أي أبعدهم من رحمته {فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ} بحيث لا يكادون ينالون فيهما شيئاً منها. {وَأَعَدَّ لَهُمْ} مع ذلك {عَذَاباً مُّهِيناً} يصيبهم في الآخرة خاصة وإذاية الله تكون بالكفر كإنكار وجوده تعالى ووصفه تعالى بما لا يليق به كقول اليهود: يد الله مغلولة، وإن الله فقير، وعزير ابن الله. وقول النصارى: ثالث ثلاثة، والمسيح ابن الله، وقول المشركين: الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه، وإذاية الرسول كسر رباعيته وشج وجهه يوم أحد، وطعنهم في نكاح صفية، وقولهم له صلى الله عليه وسلم: هو شاعر ساحر كاهن مجنون. {وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنٰتِ} بقول أو فعل {بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ} أي بغير جناية يستحقون بها الأذية {فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتٰناً} أي زوراً {وَإِثْماً مُّبِيناً}، أي ذنباً ظاهراً موجباً للعقاب في الآخرة. قيل: إن هذه الآية نزلت في منافقين كانوا يؤذون علياً، ويسمونه ما لا خير فيه. وقيل: نزلت في أهل الإفك في شأن عائشة وصفوان. وقيل: في زناة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن، فيغمزون المرأة، فإن سكتت اتبعوها، وإن زجرتهم انتهوا عنها، وكانوا لا يتعرضون إلاّ للإماء، ولكن ربما يقع منهم التعرض للحرائر أيضاً، لأن زي الكل كان واحداً لأنهن، يخرجن في درع وخمار، فشكون ذلك إلى أزواجهن، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت هذه الآية، ثم نهي الله تعالى الحرائر أن يتشبهن بالإماء بقوله تعالى: {يٰأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لأَزْوٰجِكَ وَبَنٰتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ} أي يرخين على نحورهن وجيوبهن {مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ} أي ثيابهن التي يلتحفن بها، {ذٰلِكَ} أي تغطي الأبدان {أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ} أي أحق بأن يعرفن أنهن حرائر، وأنهن مستورات لا يمكن طلب الزنا منهن، لأن من تستر وجهها لا يطمع فيها أن تكشف عورتها، {فَلاَ يُؤْذَيْنَ} بالتعرض لهن من جهة

من يتعرض للإماء، {وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً} لما سلف منهن من التفريط {رَّحِيماً} بعباده حيث يراعي مصالحهم {لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ} عبد الله بن أبيّ وأصحابه عن المكر والخيانة، {وَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ} أي شهوة الزنا الذي يؤذي المؤمن باتباع نسائه، {وَ ٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ} بقولهم: غلب محمد وسيخرج من المدينة، وسيؤخذ {لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ} أي لنأمرنك بإخراجهم من المدينة أو بقتالهم، {ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ} أي لا يساكنون معك في المدينة وتخلو المدينة منهم بالإخراج أو بالموت {إِلاَّ قَلِيلاً} أي إلاّ زماناً يسيراً، {مَّلْعُونِينَ} أي مطرودين من باب اللّه ومن بابك، وهو نصب على الشتم، ويجوز عند الكسائي والفراء منصوباً ب«أخذوا» الذي هو جواب الشرط، وعلى الوقف ملعونين وقف كاف، أي على غير هذا الإعراب {أَيْنَمَا ثُقِفُوۤاْ} أي في أي مكان وجدوا {أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلاً}. وهذه الآية خبر بمعنى الأمر، أي خذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم إذا كانوا مقيمين على النفاق والإرجاف، {سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ}، أي سن الله ذلك في الأمم الذين من قبلهم سنة وهي أن يقتل الذين نافقوا الأنبياء عليهم السلام، وسعوا في توهين أمرهم بالإرجاف ونحوه أينما وجدوا {وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً}، أي هذه السنة ليست مثل الحكم الذي ينسخ، فإن النسخ يكون في الأحكام، أما الأفعال والأخبار فلا تنسخ، {يَسْأَلُكَ ٱلنَّاسُ} أي كفار مكة واليهود {عَنِ ٱلسَّاعَةِ} أي عن وقت قيام القيامة فإن المشركين يسألونه صلى الله عليه وسلم عن ذلك استعجالاً بطريق الاستهزاء، واليهود سألوا عنه امتحاناً {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ} لا يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً {وَمَا يُدْرِيكَ} أي أيّ شيء يعلمك بوقت قيامها أي لا يعلمك به شيء أصلاً، {لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً}، وهذا تخويف أي هي في علم الله فلا تستبطئوها، فربما تقع عن زمان قريب {إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ} في الدنيا والآخرة، {وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً} أي ناراً شديدة الاتقاد، {خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَداً لاَّ يَجِدُونَ وَلِيّاً} أي حافظاً يحفظهم من عذاب الله {وَلاَ نَصِيراً}، يخلصهم منه،

{يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ} وهو ظرف ب«لا يجدون» {يَقُولُونَ} حال من ضمير «وجوههم». {يٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولاَ وَقَالُواْ} عطف على «يقولون»: {رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلاْ} أي فصرفونا عن الدين. وقرأ ابن عامر «ساداتنا» بألف بعد الدال، وبالنصب بالكسرة الظاهرة، أي إن الكافرين يقولون يوم تصرف أبدانهم في النار من جهة، إلى جهة

كلحم يشوى في النار، أو يطبخ في القدور في الدنيا فلا تبتلي بهذا العذاب، فيتحسرون ويندمون حيث لا تنفعهم الندامة والحسرة، ثم يقولون: أطعنا السادة بدل طاعة الله تعالى، وأطعنا الكبراء بدل طاعة الرسول، وتركنا طاعة سادة السادات، وأكبر الأكابر، فبدلنا الخير بالشر، ففاتنا خير الجنات، وأعطينا شر النيران، ثم إنهم يطلبون بعض التشفي بتعذيب المضلين ويقولون: {رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ} أي أعط الرؤساء {ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ} أي مثلي العذاب الذي أعطيتناه، {وَ ٱلْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً} أي شديداً. وقرأ عاصم بالباء الموحدة أي لعناً عظيماً. والباقون بالثاء المثلثة أي كثير العدد. {يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَكُونُواْ} في إيذاء نبيكم {كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ} بأنواع الأذية كنسبته إلى عيب في بدنه من أدرة أو برص، وكإغراء مومسة على قذفه عليه السلام بنفسها بدفع مال عظيم إليها وكغير ذلك. {فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ} أي أظهر الله براءته عليه السلام من قولهم. روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سوأة بعض، وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلاّ أنه آدر، فذهب يوماً يغتسل، فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه، فجعل موسى يجري عقبه ويقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سوأة موسى فقالوا: والله ما بموسى من بأس فوقف الحجر فأخذ موسى ثوبه فاستتر به وضرب الحجر حتى ظهر فيه ستة جروح» ا ه. {وَكَانَ} موسى {عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهاً}، أي معظماً رفيع القدرة. قال ابن عباس: كان عظيماً عند الله تعالى لا يسأله شيئاً إلاّ أعطاه. وقال الحسن: كان مجاب الدعوة. وقيل: كان محبباً مقبولاً. {يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً} أي صواباً. والمراد نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب المائل عن العدل {يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمٰلَكُمْ}. قال ابن عباس: أي يتقبل حسناتكم، وقال مقاتل: يزكي أعمالكم {وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} باستقامتكم في القول والعمل، {وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ} في الأوامر والنواهي {فَقَدْ فَازَ} في الدارين {فَوْزاً عَظِيماً} أي نال جميع مراداته، {إِنَّا عَرَضْنَا ٱلأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ وَ ٱلْجِبَالِ}. والمراد بالأمانة: الفرائض التي فرضها الله تعالى عَلى عباده {فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا} أي خفن من حملها أن لا يؤدينها فيلحقهن من العقاب أي فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة بما فيها؟ قلن: وما فيها؟ قال: إن أحسنتن جوزيتن، وإن عصيتن عوقبتن. قلن: لا يا رب نحن مسخرات لأمرك، لا نريد

ثواباً ولا عقاباً. وقلن ذلك خوفاً وتعظيماً لدين الله تعالى لا مخالفة لأمره، وكان العرض عليهن تخييراً لا إلزاماً {وَحَمَلَهَا ٱلإِنْسٰنُ} أي آدم قال الله تعالى لآدم: إني عرضت الأمانة على السمٰوات والأرض والجبال، فلم تطقها فهل أنت آخذها بما فيها؟ قال: يا رب وما فيها؟ قال: إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت، فحملها آدم فقال: بين أذني وعاتقي الله تعالى أما إذا تحملت فسأعينك وأجعل لبصرك حجاباً، فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل فارخ عليه حجاباً، واجعل للسانك لحيين وغلافاً فإذا خشيت فأغلق عليه واجعل لفرجك لباساً، فلا تكشفه على ما حرمت عليه. {إِنَّهُ} أي الإنسان {كَانَ ظَلُوماً} أي متعباً لنفسه بحملها. وهذا الظلم ممدوح من الأنبياء{جَهُولاً} بعاقبته، وإن النفس لا تطيق الدوام على حملها {لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنٰفِقِينَ وَ ٱلْمُنٰفِقٰتِ وَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَ ٱلْمُشْرِكٰتِ} ف«اللام» للعاقبة متعلق ب«حمل»، أي حملها الإنسان وكان عاقبة حمله لها أن يعذب الله بعض أفراده الذين لم يراعوها، {وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُؤْمِنٰتِ} أي كان عاقبة حمله لها أن يقبل توبتهم، {وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً} للظلوم {رَّحِيماً} على الجهول، لأن الله تعالى وعد عباده بأنه يغفر الظلم جميعاً إلاّ الظلم العظيم الذي هو الشرك.

سورة سبأ

مكية، أربع وخمسون آية، وثمانمائة وثلاث وثمانون كلمة، وألف وخمسمائة واثنا عشر حرفاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. ٱلْحَمْدُ للَّهِ ٱلَّذِى لَهُ مَا فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَمَا فِى ٱلأَرْضِ}، أي له تعالى خلقاً وملكاً وتصرفاً بالإيجاد، والإعدام، والإحياءَ، والإماتة جميع ما وجد فيهما، {وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلأَخِرَةِ} أي له المنَّة على أهل الجنة فيحمدونه، {وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ}. فالحكيم هو الفاعل على وفق العلم فإن من يعلم أمراً، ولم يأت بما يناسب علمه لا يقال له: حكيم. ومن يأت بأمر عجيب على سبيل الاتفاق من غير علم لا يقال له: حكيم. والخبير: هو الذي يعلم عواقب الأمور وبواطنها، فهو حكيم في الابتداء، يخلق كما ينبغي، وخبير بالانتهاء يعلم ماذا يصدر من المخلوق، وما لا يصدر، ومصير كل أحد. {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلأَرْضِ} من الغيث والكنوز والدفائن والأموات ونحوها. {وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا} كالحيوان والنبات وماء العيون ونحوها. {وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ} كالملائكة والكتب والمقادير ونحوها. {وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} كالملائكة

وأعمال العباد، والأبخرة، والأدخنة. {وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ}، أي الرحيم بإنزال الرزق وللحامدين عليه، والغفور عندما تعرج إليه الأرواح والأعمال، وللمفرطين في الحمد. {وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} أبو جهل وأصحابه : {لاَ تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ} أي الساعة {عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ}.

قرأ نافع وابن عامر بالرفع على المدح فالوقف على «لتأتينكم» حينئذٍ كافٍ، وابن كثير وأبو عمرو وعاصم بالجر نعت ل «ربي»، أو بدل منه. وقرأ حمزة والكسائي «علام»، بالجر والوقف حينئذٍ على «بلى»، وهو كاف كالوقف على الغيب. {لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ} أي لا يغيب عن الله وزن نملة حمراء صغيرة. وقرأ الكسائي بكسر الزاي {فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلاَ فِى ٱلأَرْضِ} فقوله: {فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ} إشارة إلى علمه تعالى بالأرواح، لأنها في السماء وقوله: {وَلاَ فِى ٱلأَرْضِ} إشارة إلى علمه تعالى بالأجساد، لأن أجزاءها في الأرض، وإذا علم الله الأرواح والأشباح وقدر على جمعها لا يبقى استبعاد في المعاد {وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ} أي من مثقال ذرة {وَلاَ أَكْبَرُ} منه {إِلاَّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ}، أي إلاّ مكتوب في اللوح المحفوظ، وجملة «ولا أصغر» إلى آخرها من مبتدأ وخبر مؤكدة لنفي العزوب، أما على قراءة الفتح في «أصغر» و «أكبر» فهو اسم «لا»، والخبر إلاّ في كتاب {لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ}. وهذا علة لقوله تعالى: {لَتَأْتِيَنَّكُمْ}. {أُوْلَٰئِكَ} الموصوفون بالصفات الجليلة {لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ} لما فرط منهم {وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} فإن الرزق يأتي من غير طلب بخلاف رزق الدنيا فإنه ما لم يتسبب فيه لا يأتي، ثم إن المغفرة جزاء الإيمان فكل مؤمن مغفور كما في حديث البخاري: «يخرج من النار من قال لا إله إلاّ الله وفي قلبه وزن ذرة من إيمان والرزق الكريم جزاء العمل الصالح».

{وَ ٱلَّذِينَ سَعَوْ فِى ءَايَٰتِنَا} بالإبطال أي كذبوها {مُعَاجِزِينَ} أي متأخرين. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «معجزين» بتشديد الجيم، وبغير ألف بعد العين أي مريدين التعجيز، أو ظانين أنهم يفوتون الله، أو مثبطين عن الإيمان من أراده {أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ}، أي من جنس سوء العذاب {أَلِيمٌ} أي شديد.

وقرأ ابن كثير وحفص بالرفع صفة ل «عذاب» والباقون بالجر صفة ل «رجز». {وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ}، أي ويعلم أولو العلم من أصحاب رسول الله ومن علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وكعب وأضرابهما. {ٱلَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ} أي القرآن {هُوَ ٱلْحَقَّ} بالنصب على أنه مفعول ثانٍ، {وَيَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطِ

ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ} الذي هو التوحيد.{وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} أبو سفيان وأصحابه للسفلة: {هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ} أي يحدثكم بعجب عجاب {إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ} أي إنكم تنشأون خلقاً جديداً بعد أن تفرقت أجسادكم كل تفريق بحيث تصير تراباً، ويقصدون بذلك الرجل سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم، {أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً} أي أهو الرجل تعمد على الله كذباً، إن كان يعتقد خلاف أخباره بأنهم يبعثون {أَم بِهِ جِنَّةٌ} أي إما فيه جنون إن كان لا يعتقد خلافه وهذا إما من تمام القائل أو لا أو من كلام السامع المجيب لذلك القائل. قال الله تعالى جواباً بالتردد منادياً عليهم بسوء حالهم: {بَلِ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِٱلآخِرَةِ} أي بالبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال {فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ}، لأن من يسمي المهتدي ضالاً يكون هو الضال، ومن يسمي الهادي ضالاً يكون أضل {أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلأَرْضِ}، أي أفعلوا ما فعلوا من المنكر فلم ينظروا إلى ما أحاط بهم من جميع جوانبهم فذلك يدل على وحدانية الله وكمال قدرته، وذلك دليل على الإعادة {إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلأَرْضَ} كما خسفناها بقارون وأصحابه {أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً}، أي قطعاً {مِّنَ ٱلسَّمَآءِ} كما أسقطناها على أصحاب الأيكة لاستحقاقهم ذلك.

وقرأ حفص بفتح السين. والباقون بسكونها. وقرأ حمزة والكسائي «إن يشأ يخسف»، «أو يسقط» بالياء في الثلاثة {إِنَّ فِى ذَلِكَ} أي المحيط بالناظر من جميع الجوانب {لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ}، أي لكل من يرجع إلى الله ويترك التعصب تدل على قدرة الله على إحياء الموتى، {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً} أي أعطيناه لصحة توبته نوعاً من الفضل على سائر الأنبياء عليهم السلام، وهو ما ذكر بعد {يٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ} أي رجّعي مع داود النوحة على الذنب، {وَٱلطَّيْرَ} بالنصب عطفاً على فضلاً بمعنى: وسخَّرنا له الطير، لأن إيتاءها إياه تسخيرها له وقيل: كان داود ينوح على ذنبه بترجيع وتحزن، وكانت الجبال تساعده على نوحه بأصدائدها، والطير بأصواتها، وقوله: {مِن جِبَالٍ} إلخ بدل من «آتينا» بإضمار «قلنا» أو من «فضلاً» بإضمار «قولنا». {وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ} أي جعلناه ليناً في نفسه كالشمع يصرفه في يده كيف يشاء من غير حماء بنار ولا ضرب بمطرقة. {أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ} أي أمرناه بأن اعمل دروعاً واسعات، {وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ} أي توسط في نسج الدروع بحيث تتناسب حلقها، أو لا تصرف جميع أوقاتك إلى النسج بل مقدار ما يحصل به القوت، وأما الباقي فاصرفه إلى العبادة،

{وَ ٱعْمَلُواْ صَٰلِحاً} أي لستم مخلوقين إلاّ للعمل الصالح، فأكثروا منه وقدروا في الكسب {إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} فمن يعمل لملك شغلاً ويعلم أنه بمرأى من الملك يحسن العمل ويتقنه ويجتهد فيه.

{وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ} أي وسخر له الريح عوضاً عن الخيل التي عقرها الله تعالى. وقرأ شعبة برفع «الريح» على الابتداء والخبر مجرور قبله، لأن الريح كانت لسليمان كالمملوك المختص به يأمرها بما يريد حيث يريد. {غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ} أي جريها بالغداة مسيرة شهر، وجريها بالعشي كذلك.

قال الحسن: كان يغدو من دمشق فيقيل بإصطخر ويروح من إصطخر فيبيت ببابل. {وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ} أي النحاس المذاب يعمل به ما يشاء كما يعمل بالطين، وكان ذلك بأرض اليمن.

وقيل: كان يسيل في الشهر ثلاثة أيام {وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ} بالسخرة من البنيان وغيرها {بِإِذْنِ رَبِّهِ} أي بأمره تعالى، {وَمَن يَزِغْ} أي يمل {مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ} أي عذاب النار الوقود في الآخرة {يَعْمَلُونَ لَهُ}، أي في أيّ وقت يشاء {مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ} أي أبنية مرتفعة يصعد إليها بدرج، {وَتَمَٰثِيلَ} أي صور من نحاس وزجاج ورخام ونحو ذلك. وقيل: هي صور الملائكة والأنبياء، والعباد، كانت تصور في المساجد ليراها الناس، فيزدادوا عبادة، ويعبدوا ربهم على مثالهم.

وروي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه، ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد على الكرسي بسط الأسدان له ذراعيهما، وإذا جلس أظله النسران بأجنحتهما. {وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ} أي قصاع كالحياض الكبار. وقيل: كان يجتمع على جفنة واحدة ألف رجل.

وقرأ ورش وأبو عمرو بإثبات الياء في الوصل دون الوقف. وابن كثير بإثباتها وقفاً ووصلاً. والباقون بالحذف وقفاً ووصلاً. {وَقُدُورٍ رَّسِيَٰتٍ} أي ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها، وكان يصعد عليها بالسلالم، وكانت باليمن { ٱعْمَلُوۤاْ ءَالَ دَاوُودَ شُكْراً} ف «آل» منادى، و «شكراً» مفعول به.

وروي أن سليمان عليه السلام جزَّأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي ساعة من الساعات إلاّ وإنسان من آل داود قائم يصلي. {وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ} أي المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته، {فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ} أي سليمان { مَوْتَ هَا دَلَّهُمْ} أي آله {عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ} وهي الأرضة {تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ} أي عصاه {فَلَمَّا خَرَّ} أي وقع سليمان على الأرض بعد أن قصمت الأرضة عصاه {تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ}

أي علمت الجن علماً بيِّناً {أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ}، أي أنهم لو كانوا يعلمون الغيب كموت سليمان، ما لبثوا في العذاب المهين وحينئذٍ يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب، بل كانوا يسترقون السمع ويموهون على الناس أنهم يعلمون الغيب.

وقال سليمان لملك الموت: إذا أمرت بي فأعلمني. فقال: أمرت بك وقد بقيت من عمرك ساعة، فدعا الشياطين، فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب، فقام يصلي متكئاً على عصاه، فقبض الله روحه وهو متكىء عليها، وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى، وكان للمحراب كوي بين يديه وخلفه، فكانت الجن تعمل الأعمال الشاقة التي كانوا يعملونها في حياته، وينظرون إلى سليمان عليه السلام فيرونه قائماً متكئاً على عصاه، فيحسبونه حياً فلا ينكرون خروجه إلى الناس لطول صلاته، فمكثوا يدأبون له بعد موته حولاً كاملاً حتى أكلت الأرضة عصا سليمان، فخرَّ ميتاً، فعلموا بموته حينئذٍ، فشكروا ذلك للأرضة، فأينما كانت يأتونها بالماء والطين وقالوا لها: لو كنت تأكلين الطعام والشراب لأتيناك بهما.

وحكي أن سليمان عليه السلام ابتدأ بناء بيت المقدس في السنة الرابعة من ملكه، وكان عمره سبعاً وستين سنة، وملك وهو ابن سبع عشرة سنة، وكان ملكه خمسين سنة، وقرَّب بعد فراغه منه اثني عشر ألف ثور، ومائة وعشرين ألف شاة، واتخذ اليوم الذي فرغ فيه من بنائه عيداً وقام على الصخرة رافعاً يديه إلى الله تعالى بالدعاء، وقال: اللهم أنت وهبت لي هذا السلطان، وقوَّيتني على بناء هذا المسجد، اللهم فأوزعني شكرك على ما أنعمت وتوفني على ملتك، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، اللهم إني اسألك لمن دخل المسجد خمس خصال: لا يدخله مذنب دخل للتوبة إلاّ غفرت له وتبت عليه، ولا خائف إلاّ أمنته، ولا سقيم إلاّ شفيته، ولا فقيراً إلاّ أغنيته، والخامسة: أن لا تصرف نظرك عمن دخله حتى يخرج منه إلاّ من أراد إلحاداً أو ظلماً يا رب العالمين.

{لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ} أي علامة دالة على قدرتنا. وقرأ حمزة وحفص بسكون السين، وفتح الكاف، والكسائي بكسرها. والباقون «مساكنهم» بلفظ الجمع، أي عند مواضع سكناهم وهي باليمن يقال لها: مأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام آية دالة على وجود الصانع المختار القادر على كل ما يشاء. {جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ} أي عن يمين بلدهم وشمالها جماعتان من الجنات، وكان سبأ ثلاث عشرة قرية، فبعث الله

إليهم ثلاثة عشر نبياً، فقال لهم الأنبياء: {كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ} من الثمار ونحوها، {وَ ٱشْكُرُواْ لَهُ} بالتوحيد ليديم لكم النعمة {بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ}، أي بلدتكم بلدة طاهرة عن المؤذيات، لا حية فيها، ولا عقرب، ولا وباء، ولا وخم. وربكم الذي رزقكم الطيبات وطلب منكم الشكر، رب غفور لفرطات ممن يشكره. {فَأَعْرَضُواْ} عن الإيمان ولم يشكروا.

قال وهب: أرسل الله إلى سبأ ثلاثة عشر نبياً فدعوهم إلى الله تعالى، وذكروهم نعم الله عليهم، وأنذروهم عقابه، فكذبوهم وقالوا: ما نعرف لله تعالى علينا من نعمة، فقولوا لربكم: فليحبس هذه النعمة عنا إن استطاع، {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ} أي سلّطنا عليهم سيل الوادي والعرم: وادٍ في اليمن يقال له، وادي الشجر، وكان فيه مسناة يحسبون الماء في الوادي، وكان لها ثلاثة أبواب بعضها أسفل من بعض، فكانوا يسقون من الأعلى، ثم من الثاني، ثم من الثالث على قدر حاجاتهم، فأخصبوا، وكثرت أموالهم فلما كذبوا الرسل سلط الله عليهم الفأرة فنقبت الردم، فهدم الله تلك المسناة وأهلكهم بذلك الماء، وأهلك ما كان لهم من البساتين والبيوت وغير ذلك. {وَبَدَّلْنَٰهُمْ بِجَنَّتِهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ} أي أذهبنا جنتيهم، وآتيناهم بدلهما جنتين ذواتي ثمر بشع.

وقرأ أبو عمرو «أكل» بغير تنوين، أي ثمر أراك {وَأَثْلٍ} أي طرفاء، {وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ} أي قليل ثمره كثير شوكه، له ثمرة عفصة لا تؤكل أصلاً، ولا ينتفع بورقه في غسل اليد، وهو سدر بري، وهذان معطوفان على «أكل» لا على «خمط». وقرىء «واثلاً وشيئاً» عطفاً على «جنتين». {ذَٰلِكَ} أي التبديل {جَزَيْنَٰهُمْ بِمَا كَفَرُواْ} أي بسبب كفرانهم النعمة حيث نزعناها منهم ووضعنا مكانها ضدها {وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلاَّ ٱلْكَفُورَ}، أي وما نجازي هذا الجزاء إلاّ المبالغ في الكفران.

وقرأ حفص وحمزة والكسائي بنون العظمة. والباقون بالياء على البناء للمفعول «الكفور». وقرىء على البناء للفاعل وهو الله تعالى {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا} بالماء والشجر {قُرًى ظَٰهِرَةً} أي وجعلنا بين أهل سبأ وهم باليمن وبين أهل الأردن وفلسطين وهم بالشام قرى يرى بعضها من بعض لتقاربها، يرى سواد القرية من القرية الأخرى. قيل: كانت قراهم أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة من سبأ إلى الشام {وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ} أي جعلنا السير بين قراهم والشام سيراً مقدراً من قرية إلى قرية، فإذا ساروا نصف يوم وصلوا إلى قرية ذات مياه

وأشجار، فلا يحتاجون في السفر إلى حمل زاد وماء وقلنا لهم: {سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّاماً ءَامِنِينَ} وهو أمر بمعنى الخبر، أي تسيرون في تلك القرى إن شئتم ليالي، وإن شئتم أياماً لعدم الخوف بخلاف المواضع المخوِّفة فإن بعضها يسلك ليلاً لئلا يعلم العدو بسيرها، وبعضها يسلك نهاراً لئلا يقصدهم العدو إذا كان غير مجاهر بالقصد والعداوة.

قال قتادة: كانوا يسيرون غير خائفين، ولا جائعين، ولا ظامئين كانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر في أماكن لا يحرك بعضهم بعضاً، ولو لقي الرجل قاتل أبيه لا يحركه،

{فَقَالُواْ} على وجه الدعاء: {رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا} أي باعد بين المنازل التي تنزل فيها بأن يكون بين كل واحد والآخر مسافة بعيدة، أي سألوا أن يجعل الله تعالى بينهم وبين الشام قفاراً ليركبوا فيها الرواحل، ويتزودوا الأزواد، ويتطاولوا فيها على الفقراء، فعجل الله تعالى لهم الإجابة بتخريب تلك القرى المتوسطة، وجعلها بلقعاً لا يسمع فيها داعٍ ولا مجيب.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام «بعدَ» بتشديد العين من غير ألف. {وَظَلَمُوَاْ أَنفُسَهُمْ} حيث عدوا النعمة نقمة والإحسان إساءة، وتركوا شكر تلك النعم {فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ} بمن بعدهم، فيتحدث الناس بهم متعجبين من أحوالهم، ومعتبرين بعاقبتهم، ويضربون مثلاً فيقولون: تفرقوا أيدي سبأ والأيدي: بمعنى الأنفس أو الأولاد {وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ} أي فرقناهم كل تفريق، أي فلما غرقت قراهم تفرقوا في البلاد، فغسان لحقوا بالشام والأزد بعمان، وخزاعة بتهامة،والأوس والخزرج بيثرب. {إِنَّ فِى ذَلِكَ} أي التمزيق والإهلاك {لَأَيَٰتٍ} أي لعبرات {لِّكُلِّ صَبَّارٍ} عن الشهوات وعلى مشاق الطاعات، {شَكُورٍ} على النعم {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ} أي وجد إبليس ظنه صادقاً أنه يغوي بني آدم، أو في أنه خير منهم، فالمتبوع خير من التابع، فإبليس امتنع من عبادة غير الله، والمشركون يعبدون غير الله، فإبليس كفر بأمر أقرب إلى التوحيد، والمشركون كفروا بالإشراك. وقرأ الكوفيون «صدق» بتشديد الدال. والباقون بالتخفيف أي صدق في ظنه، أو جعل ظنه صادقاً. وقرىء بنصب «إبليس»، ورفع «ظن» مع تشديد «صدق» بمعنى: وجد ظنه صادقاً، ومع التخفيف بمعنى: قال له الصدق حين خيل له إغوائهم وبرفعها مع التخفيف على الإبدال {فَٱتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ} أي إلا فريقاً هم المؤمنون، فإن المؤمنين كلهم لم يتبعون في أصل الدين، أو إلا فريقاً من فرق المؤمنين فإن المخلصين لم يتبعوه

في العصيان {وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَٰنٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ}، أي وما كان تسلط إبليس على بني آدم إلا ليتعلق علمنا بمن يؤمن بالآخرة متميزاً ممن هم في شك منها فنجازي كلاً منهما، {وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ} أي الله تعالى قادر على منع إبليس عنهم عالم بما سيقع، {قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ ٱللَّهِ} أي قل يا أشرف الخلق لكفار مكة بني مليح، وكانوا يعبدون الجن، ويظنون أنهم الملائكة: ادعوا الذين زعمتوهم آلهة من دون الله ليكشفوا عنكم الضر الذي نزل بكم في سني الجوع، قال الله تعالى: {لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلاَ فِى ٱلأَرْضِ} أي لا يملك آلهتهم وزن ذرة من نفع وضر في أمر من الأمور، {وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ} أي وما لآلهتهم في السمٰوات والأرض من شركة مع الله لا خلقاً ولا ملكاً ولا تصرفاً، {وَمَا لَهُ} تعالى {مِنْهُمْ} أي من آلهٰتهم {مِّن ظَهِيرٍ}، أي معين في تدبير أمرهما، وفي خلق شيء بل الله تعالى هو المنفرد بالإيجاد، فهو الذي يجب أن يكون معبوداً، {وَلاَ تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} أي ولا تقع الشفاعة عنده تعالى في حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن الله له في الشفاعة من النبيين والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة.

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي «أذن له» مبنياً للمجهول {حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ}، أي حتى إذا أزيل الفزع الذي عند الوحي أي حين انحدر عليهم جبريل فإن الله عندما يوحي يفزع من في السموات، ثم يزيل الله عنهم الفزع فرفعوا رؤوسهم، فحتى غاية متعلقة بقوله تعالى قل: {قَالُواْ} أي الملائكة السائلون من جبريل: {مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ} يا جبريل؟ {قَالُواْ} أي جبريل ومن تبعه: { ٱلْحَقَّ} أي قال ربنا القول الحق وهو الإذن في الشفاعة للمستحقين لها. وقرىء «الحق» بالرفع أي ما قاله الحق، {وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ} أي هو المنفرد بالعلو والكبرياء ليس لأحد من أشراف الخلائق أن يتكلم إلا بإذنه.

{قُلْ} يا أشرف الخلق لكفار مكة: {مَن يَرْزُقُكُمْ مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ} بالمطر {وَٱلأَرْضِ} بالنبات؟ {قُلِ ٱللَّهُ} أي فإن أجابوك وقالوا: الله، فذلك ظاهر، وإن لم يقولوا ذلك فقل: الله يرزق إذ لا جواب سواه. وهذا إشارة إلى أن جر النفع ليس إلا به تعالى، ومنه تعالى فإذاً إن كنتم من الخواص فاعبدوه لعلوه وكبريائه سواء دفع عنكم ضرراً أو لم يدفع، وسواء نفعكم بخير، أو لم ينفع فإن لم تكونوا كذلك فاعبدوه لدفع الضر وجر النفع. {وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ} أي وإن أحد الفريقين من

الذين يوحدون الرازق بالعبادة، والـذين يشـركون بـه فـي العبـادة الجمـاد الـذي لا يوصـف بالقـدرة لعلـى أحـد الأمريـن مـن الهـدى والضـلال المـبين، واختلاف الجـارين للإعلام بـأن المهتـدي كمـن استعلى مناراً ينظر الأشـياء والضـال، كـأنه منغمـس فـي ظلام لا يرى شيئاً. {قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا} أي أذنبنا {وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّـا تَعْمَلُونَ} في كفركم لأنا بريئون منكم. وهذا أبعد من الجدل، وأبلغ فـي التواضـع حيـث أسـندوا الإجـرام إلـى أنفسـهم والعمـل إلـى المخاطبين. {قُلْ يَجْمَـعُ بَيْنَنَـا رَبُّنَـا} يـوم القيامـة {ثُـمَّ يَفْتَـحُ} أي يحكـم {بَيْنَنَـا بِـ لْحَقِّ} أي بالعـدل بـأن يـدخل المحقِّيـن الجنـة والمبطليـن النـار، {وَهُـوَ لْفَتَّـاحُ} أي البليـغ الفتـح لمـا انغلـق، { لْعَلِيمُ} بما ينبغي أن يحكم به. {قُـلْ} يـا أشـرف الخلـق لأهـل مكة: {قُلْ أَرُونِىَ لَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ} تعالى {شُرَكَآءَ}، لأنظـر بـأي صـفة ألحقتموهـا بـالله فـي اسـتحقاق العبـادة هـل يخلقـون أو يرزقون؟ {كَلاَّ} أي حقاً لم يخلقوا شيئاً، ولـم يرزقـوا بشـيء أو لا تشركوا بالله شيئاً، {بَلْ هُوَ} أي الله الذي ألحقتم به شركاء {ٱللَّهُ لْعَزِيـزُ لْحَكِيـمُ} أي اللـه الموصـوف بالغلبـة القـاهرة وبالحكمـة الباهرة، فأين شركاؤهم التي هي أخس الأشياء؟ {وَمَـآ أَرْسَـلْنَٰكَ} يا أشرف الخلق {إِلاَّ كَآفَّةً لَّلنَّاسِ} أي عامـة لجميـع النـاس تكـف الناس عن الكفر، {بَشِيراً} بالجنة لمن آمن بـالله، {وَنَـذِيراً} مـن النار لمن كفر به، {وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُـونَ} عمـوم رسـالته وكونه بشـيراً، وكـونه نـذيراً لغفلتهـم لا لخفـاء ذلـك، {وَيَقُولُـونَ} بطريق الاستهزاء: {مَتَىٰ هَٰذَا لْوَعْدُ} الذي تعدنا أن يجمع بيننا ثـم يقضي بيننا {إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ}؟ مخاطبين لرسول الله والمؤمنين به. {قُل} لهم يا أكرم الرسل: {لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ} أي وعد يوم {لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً} إن طلبتم التـأخير عنـه {وَلاَ تَسْـتَقْدِمُونَ} أي إن طلبتم الاستعجال والإضافة في ميعاد يوم للتبيين.

وقرىء «ميعاد يوم» برفع الاسمين مع التنـوين علـى البـدل. وقرىء برفع «ميعاد»، ونصب «يوم» مع التنـوين فيهمـا أي أعنـي يوماً، وذلك يفيد التعظيم والتهويل. {وَقَالَ لَّذِينَ كَفَرُواْ} أبو جهل بن هشام وأصحابه: {لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا لْقُرْءَانِ} الـذي يقـرؤه علينـا محمد صلى الله عليه وسلم، {وَلاَ بِ لَّذِى بَيْـنَ يَـدَيْهِ} أي ولا بالـذي قبل القرآن من التوراة والإنجيـل، والزبـور، وسـائر الكتـب الدالـة على البعث. {وَلَوْ تَـرَىٰ إِذِ ٱلظَّٰلِمُـونَ مَوْقُوفُـونَ عِنـدَ رَبِّهِـمْ يَرْجِـعُ بَعْضُـهُمْ إِلَـىٰ بَعْـضٍ لْقَـوْلَ} أي ولـو تـرى إذ المنكـرون للبعـث محبوسون في موقف المحاسبة، راجعاً بعضهم القـول إلـى بعـض لرأيت أمراً عجيباً، ثم فسر قوله تعالى: {يُرْجَعُ} الخ بقوله تعالى:

{يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ} أي قهروا وهم السفلة، {لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ} أي تعظموا عن الإيمان وهم القادة: {لَوْلاَ أَنتُمْ} مضلون إيانا وصادون إيانا عن الإيمان {لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ} باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم. {قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ} لرؤوسائهم {لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ} وهم الأتباع: {أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمْ} على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام؟ {بَلْ كُنتُمْ مُّجْرِمِينَ}. أي بل أنتم الصادون بأنفسكم بسبب كونكم راسخين في الإجرام.

{وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ} إبطالاً لإنكارهم الصد: {بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ} أي بل صدنا مكركم بنا بالليل والنهار {إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ} قبل إتيان الرسل، {وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً} أي أعدالاً، {وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ} أي أخفى كل من الفريقين الندامة عن الآخر مخافة التعبير. ويقال: أظهر القادة والسفلة الندامة على ترك الإيمان بالله {لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ} أي حين رأوه، {وَجَعَلْنَا ٱلأَغْلَٰلَ فِيۤ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} الأتباع والمتبوعين جميعاً {هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}؟ أي لا يجزون إلا بما كانوا يعملونه في الدنيا {وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ} أي أغنياؤها {إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَٰفِرُونَ} أي جاحدون. {وَقَالُواْ} للرسل: {نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوٰلاً وَأَوْلَاداً} منكم بسبب لزومنا لديننا، {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} في الآخرة بديننا هذا، كأنهم قالوا: حالنا عاجلاً خير من حالكم، ولا نعذب آجلاً. قالوا ذلك إنكاراً منهم للعذاب بالكلية، أو اعتقاداً لحسن حالهم أيضاً، قياساً على حالهم في الدنيا. {قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ} أن يبسط له {وَيَقْدِرُ} أي يقتر على من يشاء، فسعة الرزق لا تدل عن حال المحق، كما أن ضيقه لا يدل على حال المبطل، فلا يقاس على ذلك أمر الثواب والعقاب اللذين مناطهما الطاعة وعدمها، {وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ} أي أهل مكة {لاَ يَعْلَمُونَ} أن ضنك العيش وخصبها بالمشيئة من غير اختصاص بالفاسق والصالح. {وَمَآ أَمْوٰلُكُمْ وَلاَ أَوْلَٰدُكُمْ بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحاً}، أي وما الأموال والأولاد تقرب أحداً إلى الله إلا المؤمن الصالح الذي أنفق أمواله في سبيل الله تعالى، وعلّم أولاده الخير، وربّاهم على الصلاح {فَأُوْلَٰئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ} في الحسنات {بِمَا عَمِلُواْ} من الصالحات، {وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ} أي غرفات الجنة {ءَامِنُونَ} من جميع المكاره.

وقرأ حمزة «الغرفة» على التوحيد على إرادة الجنس. {وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىۤ ءَايَٰتِنَا} أي يكذبونها {مُعَٰجِزِينَ} أي متأخرين

عنها، وفي قراءة «معجزين» أي معتقدين عجزنا، {أُوْلَٰئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ} أي يخرجون منه، {قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ}، فلا تخشوا الفقر وأنفقوا في سبيل الله، {فَهُوَ يُخْلِفُهُ} أي يعوضه في الدنيا بالمال أو بالقناعة، وفي الآخرة بالحسنات {وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ} أي الواهبين للرزق، وأفضل المعوضين. {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ} أي بني مليح والملائكة {جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰئِكَةِ} إهانة لهؤلاء الكفار وقرأ حفص «يحشرهم» «ثم يقول» بالياء : {أَهَٰؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ} بأمركم؟ {قَالُواْ} أي الملائكة متبرئين منهم: {سُبْحَٰنَكَ} أي ننزهك عن أن يكون غيرك معبوداً وأنت معبودنا، ومعبود كل خلق {أَنتَ وَلِيُّنَا} أي أنت الذي نواليك أي نتقرب منك بالعبادة {مِن دُونِهِمْ} أي لم يكن لنا دخل في عبادتهم لنا.

وقال الرازي: معنى «أنت ولينا من دونهم»، أي كونك ولينا بالمعبودية أحب إلينا من كون هؤلاء الضالين أولياء بالعبادة لنا، {بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ}، أي كانوا ينقادون لأمر الشياطين، فهم في الحقيقة كانوا يعبدون الشياطين، وكنا نحن كالقبلة لهم {أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ}، أي كل المشركين مصدقون للشياطين. وهذا محض كلام الله تعالى والوقف على الجن تام، وأما إذا قلنا: إن هذا من كلام الملائكة فمعنى أكثرهم على أصله وإنما قالوا ذلك لئلا يكونوا مدعين اطلاعهم على ما في القلوب، أو على من في جميع الوجود، {فَٱلْيَوْمَ} أي يوم الحشر {لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلاَ ضَرّاً} أي لا يقدر المعبودون وهم الملائكة على نفع العابدين وهم الكفار بالثواب ولا على دفع ضررهم، {وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ}، وهذا معطوف على قوله تعالى: {يَقُولُ لِلْمَلَٰئِكَةِ} أي ونقول: {ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا} أي بالنار {تُكَذِّبُونَوَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ}، أي كفار مكة بلسان الرسول صلى الله عليه وسلم {ءَايَٰتُنَا} الناطقة بحقيقة التوحيد وبطلان الشرك {بَيِّنَاتٍ}، أي واضحات {قَالُواْ مَا هَٰذَا} أي التالي {إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ} من الآلهة {وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ} أي القول بالوحدانية {إِلاَّ إِفْكٌ} أي كلام مصروف عن وجهه، {مُّفْتَرًى} بإسناده إلى الله تعالى، {وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ} أي للقرآن {لَمَّا جَآءَهُمْ} من غير تأمل فيه {إِنْ هَٰذَآ} أي ما هذا القرآن {إِلاَّ سِحْرٌ} أي خيال {مُّبِينٌ}، أي ظاهر سحريته.

قال الرازي: وإن أعيد اسم الإشارة الثاني إلى القرآن كان اسم الإشارة هذا عائد إلى المعجزات، فإنكار التوحيد كان مختصاً بالمشركين، وأما إنكار القرآن والمعجزات كان متفقاً عليه بين

المشركين، وأهل الكتاب. ولذلك قال تعالى: {وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقّ} على وجه العموم وهو بدل عن قوله تعالى: وقالوا للحق {وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ} أي ما أعطينا كفار مكة {مِّنْ كُتُبٍ} دالة على صحة الإشراك {يَدْرُسُونَهَا} أي يقرءونها {وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِّن نَّذِيرٍ} أي رسول يدعوهم إلى الإشراك وينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا، {وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبلِهِمْ} الأمم المتقدمة {وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ}، أي وما بلغ هؤلاء المشركون معشار ما آتينا المتقدمين من القوة وكثرة المال وطول العمر، {فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} أي تغييري عليهم بالتدمير، وما نفعتهم قوتهم ومالهم فكيف حال هؤلاء الضعفاء؟ ويقال: وما بلغ الذين من قبلهم معشار ما أعطينا قوم محمد من البيان والبرهان فإن محمداً أفضل من جميع الرسل وأفصح، وبرهانه أوفى، وبيانه أشفى، وكتابه أكمل من سائر الكتب، وأوضح، ثم إن المتقدمين لما كذبوا الكتب والرسل أنكر عليهم وكيف لا أنكر على هؤلاء الأمة وقد كذبوا بأفصح الرسل وأوضح السبل، فليحذر هؤلاء من مثل ذلك. {قُلْ} يا أكرم الرسل لكفار مكة: {إِنَّمَآ أَعِظُكُمْ بِوَٰحِدَةٍ} أي ما أنصح لكم إلا بخصلة واحدة {أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ} فقوله تعالى: {أَن تَقُومُواْ} بدل من «واحدة» فإن الازدحام يشوش الأفهام ويخلط الأفكار بالأوهام، ثم تتفكروا في أمر محمد وما جاء به أما الاثنان فيتفكرون، ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه لينظر فيه، وأما الواحد فيفكر في نفسه بعدل فيقول: هل رأينا من هذا الرجل جنوناً أو جربنا عليه كذباً، وقد علمتم أن محمداً صلى الله عليه وسلم ما به من جنون بل علمتموه أرجح قريش عقلاً، وأوزنهم حلماً، وأحدّهم ذهناً، وأرضاهم رأياً، وأصدقهم قولاً، وأزكاهم نفساً، وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال، وإذا علمتهم بذلك كفاكم أن تطالبوه بآية، وإذا جاء بها تبين أنه نبي صادق فيما جاء به، ثم نبه الله تعالى على طريقة النظر بقوله تعالى: {مَا بِصَٰحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ} نفي مستأنف، فالوقف على «تتفكروا» تام عند أبي حاتم أي ما بصاحبكم محمد من جنون، ويجوز أن يكون تتفكروا معلقاً عن الجملة المنفية فهي في موضع نصب على إسقاط في، أي ثم تتفكروا في عدم الجنون في صاحبكم، ويجوز أن تكون «ما» استفهامية على معنى «ثم تتفكروا»، أي شيء بمحمد من آثار الجنون، وعلى هذين الاحتمالين لا وقف على «تتفكروا». {إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} أي ما محمد إلا رسول مخوف لكم بعذاب حاضر يمسكم عن قريب قبل عذاب شديد في الآخرة،

إن لم تؤمنوا به. {قُلْ} لهم يا أشرف الخلق: {مَا سَأَلْتُكُم مِّن أَجْرٍ} أي أيّ شيء سألتكم من أجر على تبليغ الرسالة {فَهُوَ لَكُمْ}. والمراد نفي السؤال بالكلية أي لا أسألكم على إنذاركم أجراً {إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى ٱللَّهِ} فلا أطلب شيئاً إلا عنده تعالى {وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٍ} يعلم صدقي وخلوص نيتي. {قُلْ} لمن أنكر التوحيد والرسالة: {إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ} أي يلقيه في قلوب المحقين فإن الأمر بيده تعالى أو يقذف بالحق على الباطل فهو إشارة إلى ظهور البراهين على التوحيد والنبوة {عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ} أي ما غاب في السموات والأرض عن خلقه و {قُلْ} لهؤلاء: {جَآءَ ٱلْحَقُّ} أي ظهر الإسلام {وَمَا يُبْدِىءُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ}، أي يزهق الشرك بحيث لم يبق له إبداء ولا إعادة ف «ما» نافية، وهذا جعل مثلاً في الهلاك بالمرة.

{قُلْ} للكفار الذين قالوا لك يا محمد، تركت دين آبائك فضللت: {إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِى إِلَىَّ رَبِّى} أي ضلالي على نفسي كضلالكم، وأما اهتدائي فليس كاهتدائكم بالنظر والاستدلال وإنما هو بالوحي المبين. {إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} يسمع قول كل من المهتدي والضال، وفعله، وإن بالغ في إخفائهما، {وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُواْ} أي ولو ترى حالهم وقت فزعهم بخسف البيداء لرأيت أمراً هائلاً.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ثمانين ألفاً يغزون الكعبة في آخر الزمان ليخربوها، فإذا دخلوا البيداء خسف بهم الأرض وماتوا. {فَلاَ فَوْتَ} أي فلا يفوت منهم أحد {وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ} أي من تحت أقدامهم وخسف بهم الأرض، {وَقَالُواْ} عندما خسف بهم الأرض: {ءَامَنَّا بِهِ} بمحمد صلى الله عليه وسلم {وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ}، أي ومن أين لهم أن يتناولوا الإيمان تناولاً سهلاً؟ {مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ}. أي بعد الموت فلا يكون الإيمان إلا في الدنيا وهم في الآخرة، فالدنيا من الآخرة بعيد {وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِ} أي بمحمد أو بالعذاب الذي أنذرهم إياه {مِن قَبْلُ} أي من قبل نزول العذاب، {وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ} أي ويقولون ما لا يعلمون من وهمهم الفاسد، وظنهم الخاطىء فإنهم قالوا في حق النبي ساحر شاعر كاهن، وفي حق القرآن سحر شعر كهانة. ويقال: أي يسألون الرجعة إلى الدنيا بعد الموت. {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ} من العود إلى الدنيا أو من لذات الدنيا، {كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَٰعِهِم} أي بأشباههم في الكفر {مِّن قَبْلُ} أي من قبلهم من الكفار فكل من جاءه الملك طلب التأخير، ولم يعط وأرادوا أن يؤمنوا عند ظهور اليأس ولم يقبل الإيمان منهم

{إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبِ} أي ذي ريبة من أمر الرسل والبعث والجنة والنار.

سورة فاطر

وتسمى سورة الملائكة أيضاً، مكية، خمس وأربعون آية، ومائة وسبع وتسعون كلمة، وثلاثة آلاف ومائة وثلاثون حرفاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. ٱلْحَمْدُ للَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلاٌّرْضِ} أي خالقهما من غير مثال سبق، {جَاعِلِ ٱلْمَلَئِكَةِ رُسُلاً} أي وسائط بين الله وبين أنبيائه، والصالحين من عباده، يبلغون إليهم رسالاته بالوحي والإلهام والرؤيا الصالحة، أو بينه تعالى وبين خلقه حيث يوصلون إليهم آثار قدرته وصنعه وهم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل وملك الموت والرعد والحفظة {أُوْلِى أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ} أي ذوي أجنحة متعددة متفاوتة في العدد، فمنهم من له جناحان يطير بهما ومن له ثلاثة أجنحة، ومن له أربعة أجنحة {يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ}، أي خلق الملائكة {مَا يَشَآءُ}.

ويروى أن صنفاً من الملائكة لهم ستة أجنحة، فجناحان منها يلفون بهما أجسادهم وجناحان منها للطيران يطيرون بهما فيما أمروا به من جهته تعالى، وجناحان منها مرخيان على وجوههم حياء من الله تعالى. {إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ} من الزيادة والنقصان {مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا} أي أيّ شيء يرسل الله للناس من خزائن رحمته أي رحمة كانت من نعمة وصحة، وأمن وعلم، وحكمة إلى غير ذلك، فلا أحد يقدر على إمساكها {وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ}، أي أيّ شيء يمسك الله فلا أحد يقدر على إرساله من بعد إمساكه {وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} أي كامل القدرة في الإرسال والإمساك، وكامل العلم في ذلك. {يٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ} أي يا أهل مكة { ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ} أي إنعام الله عليكم بنعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء {هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ} أي هل خالق مغاير له تعالى موجود.

وقرأ حمزة والكسائي بجر «غير» نعت لـ «خالق» على اللفظ {يَرْزُقُكُمْ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ} بالمطر وغيره، {وَٱلاٌّرْضِ} بالنبات وغيره {لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ} فهو الخالق الرازق {فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ} أي فمن أين تصرفون عن التوحيد إلى الإشراك؟ فكيف تشركون المنحوت بمن له الملكوت، وبأي سبب تعبدون غيره تعالى، فإنه لا يقدر على خلق ولا على رزق ولا على غيرهما. {وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ

رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ}، أي وإن استمروا على أن يكذبوك يا أشرف الخلق فيما بلغت إليهم من التوحيد والبعث، والحساب والجزاء وغير ذلك بعدما أقمت عليهم الحج ة فتأس بأولئك الرسل في المصابرة على ما أصابهم من قبل قومهم، {وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلأُمُورُ} في الآخرة، فيجازي المكذبين والصابرين. {يٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ} أي يا أهل مكة إن وعد الله بالبعث بعد الموت والجزاء ثابت من غير خلف {فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا} بأن يذهلكم التمتع بمتاعها، ويلهيكم التلهي بزخارفها عن الطاعة لله وعن تدارك ما يهمكم يوم حلول الميعاد، {وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ} بفتح الغين، أي ولا يغرنكم سبب حلم الله وإمهاله المبالغ في الغرور وهو الشيطان بأن يمنيكم المغفرة مع الإصرار على المعاصي قائلاً: اعملوا ما شئتم إن الله غفور يغفر الذنوب جميعاً، فتعاطي الذنوب بهذا التمني مثل تناول السم اعتماداً على دفع الطبيعة.

{إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ} عظيم، فإن عداوته عداوة قديمة لا تكاد تزول، {فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوّاً} بمخالفتكم له في عقائدكم وأفعالكم، وكونوا على حذر منه في جميع أحوالكم، فإذا فعلتم فعلاً فتنبهوا له، فإنه ربما يدخل عليكم فيه الرياء ويزين لكم القبائح، {إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ} أي أتباعه في الضلال {لِيَكُونُواْ} أي تلك الأتباع {مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ}، أي النار الموقدة { لَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} في الدنيا بفوات مطلوبهم، وفي الآخرة بالسعير. {وَ لَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ} من صلاة وزكاة وصوم وغير ذلك {لَهُم مَّغْفِرَةٌ} أي ستر لذنوبهم في الدنيا {وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} في الآخرة. {أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوۤءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَناً} أي أبعد كون حالي الفريقين كما ذكر يكون من زين الكفر له الشيطان، ونفسه الأمارة، وهواه القبيح فرآه صواباً فانهمك فيه كمن عرف الحق فاختار الإيمان أو العمل الصالح؟ نزلت هذه الآية في أبي جهل ومشركي مكة، {فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ} أن يضله لاستحبابه الضلال، وصرف اختياره إليه فيرده أسفل سافلين، {وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ} أن يهديه بصرف اختياره إلى الهدى فيرفعه إلى أعلى عليين {فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرٰتٍ} أي فلا تهلك نفسك على عدم إيمانهم لكثرة التحزن.

وقرأ أبو جعفر، وقتادة، والأشهب بضم التاء وكسر اللام مسند الضمير المخاطب «نفسك» مفعول به {إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} من القبائح فيجازيهم عليه {وَٱللَّهُ ٱلَّذِىۤ أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ}.

وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي «الريح» بالتوحيد، أي أوجدها من العدم فهبوبها دليل ظاهر على الفاعل المختار، وذلك لأن الهواء قد يسكن وقد يتحرك، وعند حركته قد يتحرك إلى اليمين، وقد يتحرك إلى الشمال، وفي حركاته المختلفة قد ينشىء السحاب، وقد لا ينشىء، فهذه الاختلافات دليل على تسخير مدبر ومؤثر مقدر، {فَتُثِيرُ سَحَاباً} أي فتحركه وترفعه {فَسُقْنَاهُ} أي السحاب {إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ} أي إلى مكان لا نبات فيه. وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي بتشديد الياء {فَأَحْيَيْنَا بِهِ} أي بماء السحاب {ٱلأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} أي بعد يبسها، وأسند الله تعالى الإرسال إلى الغائب والسوق والإحياء إلى المتكلم، لأن في الأول تعريفاً بالفعل العجيب وهو الإرسال والإثارة، وفي الثاني تذكيراً بالنعمة فإن كمال نعمة الرياح والسحب بالسوق والإحياء {كَذَلِكَ ٱلنُّشُورُ}، أي إحياء الأموات في سهولة الحصول، فإن الأرض الميتة لما قبلت الحياة، اللائقة بها كذلك الأعضاء الميتة تقبل الحياة، وكما أنا نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت نسوق الروح والحياة إلى البدن الميت، وكما أنا نجمع القطع السحابية بالريح كذلك نجمع أجزاء الأعضاء المتفرقة بالروح. {مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعاً} أي من كان يريد يد العزة فليطلبها من عند الله بطاعته، لأنه لا عزة إلاّ لله، فإن المشركين كانوا يتعززون بعبادة الأصنام، ومن اعتز بالعبيد أذله الله، ومن اعتز بالله أعزه الله، {إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ} الذي يطلب به العزة وهي كلمة: «لا إله إلاّ الله»، {وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} والضمير المستكن عائد ل «الكلم» فإن مدار قبول العمل هو التوحيد، ويؤيده القراءة بنصب «العمل» أو عائد ل «العمل» فإنه لا يقوى الإيمان بلا عمل، فإذا رجع الضمير البارز للعمل كانت الضمير المستكن عائداً ل «الكلم» كما تقدم أو لله تعالى. {وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} أي والذين يكسبون أصناف المكرات السيئات لهم عذاب شديد، {وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ} أي صنع أولئك هو يفسد ويهلك.

قيل: هي مكرات قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم في دار الندوة في إحدى ثلاث: حبسه، وقتله، وإخراجه من مكة.

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أهل الربا. وقال مقاتل: في أهل الشرك بالله. وقال الكلبي: المعنى يعملون السيئات وعلى هذا فيكون هذا في مقابلة قوله تعالى: {وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} وهو إشارة إلى بقاء العمل الصالح. وقوله: {وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ} إشارة إلى فناء العمل السيىء. {وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ

مِن نُّطْفَةٍ}، فكل أولاد آدم من تـراب ومـن نطفـة، لأن كلهـم مـن نطفة، والنطفة من غذاء، والغذاء ينتهي إلـى المـاء والـتراب {ثُـمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجاً} أي أصنافاً ذكراناً وإناثـاً، وَمَـا تَحْمِـلُ مِـنْ أُنْثَـىٰ وَلاَ تَضَـعُ إِلاَّ بِعِلْمِـهِ} فـي وقتـه ونـوعه وغيـر ذلـك. {وَمَـا يُعَمَّـرُ مِـن مُّعَمَّرٍ}، أي وما يمد في عمر أحد {وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ} أي عمر أحد {إِلاَّ فِى كِتَٰبٍ}، أي لوح محفوظ.

وعن سعيد: يكتب عمره كذا وكذا سنة، ثم يكتب أسفل ذلك، ذهب يوم ذهب يومان حتى يأتي إلـى آخـره. وقيـل: إن اللـه كتـب عمر الإنسان مائة سنة إن أطـاع، وتسـعين إن عصـى، فأيهمـا بلـغ فهو كتاب والله تعالى بيَّن كمال قدرته بقوله: {خَلَقَكُمْ مّن تُرَابٍ} وكمـال علمـه بقـوله تعـالى: {وَمَـا تَحْمِـلُ مِـنْ أُنْثَـىٰ وَلاَ تَضَـعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ} فإن ما في الأرحام قبل الانخلاق ومـا فـي البطـن بعـده لا يعلم أحد حاله كيف، والأم الحامل لا تعلم منه شـيئاً، ونفـوذ إرادتـه بقوله تعالى: {وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّـرٍ وَلاَ يُنقَـصُ مِـنْ عُمُـرِهِ إِلاَّ فِـى كِتَٰبٍ} فبين الله إنه هو القادر العالم، المريد، والأصنام لا قدرة لهـا ولا علم ولا إرادة فكيف يستحق واحد منها العبادة؟ {إِنَّ ذَلِـكَ} أي الخلق من تراب وكتابة الآجال {عَلَى ٱللَّـهِ يَسِـيرٌ} لاسـتغنائه عـن الأسباب فكذلك البعث، {وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ} أي لذيذ {فُرَاتٌ} أي يكسر العطـش {سَـآئِغٌ شَـرَابُهُ} أي يسـهل انحـداره إلى الخلق {وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} أي مر زعاق لا يستطيع شربه {وَمِن كُلٍّ} من البحرين {تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً} أي سمكاً شهي المطعـم، {وَتَسْتَخْرِجُونَ} من الملح خاصـة {حِلْيَـةً}، أي زينـة وهـي اللؤلـؤ والمرجان {تَلْبَسُـونَهَا}. وقـوله تعـالى: {وَمَـا يَسْـتَوِى ٱلْبَحْـرَانِ} إشارة إلى أن عدم استوائهما دليل على كمال قدرته ونفوذ إرادته، وهو دليل آخر على القدرة والوحدانيـة {وَتَـرَى ٱلْفُلْـكَ} أي وتـرى السفن أيها الناس {فِيهِ} أي في كل منهما {مَـوَاخِرَ}، أي شـواق للمـاء بجريهـا مقبلـة ومـدبرة بريـح واحـدة {لِتَبْتَغُـواْ مِن فَضْلِهِ} بالتجارة وغيرهـا واللام متعلقـة بمـواخر {وَلَعَلَّكُـمْ تَشْـكُرُونَ}، أي ولتشكروا الله على نعمـه، {يُولِـجُ ٱلَّيْـلَ} أي يـدخل زيـادته {فِـى ٱلنَّهَـارِ} فيكـون النهـار أطـول مـن الليـل بقـدر نقصـانه، {وَيُولِـجُ ٱلنَّهَارَ} أي يدخل زيادته {فِى ٱلَّيْلِ} فيكون الليل أطول من النهار بقدر نقصانه، {وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ} أي ذلـل ضـوء الشـمس والقمـر لبنـي آدم، {كُـلٌّ} منهمـا {يَجْـرِى} فـي فلكـه {لأَجَـلٍ مُّسَمًّى} أي إلى وقت معلوم في منازل معروفـة، ومـدة الجريـان للشمس سنة، وللقمر شهر. {ذَلِكُـمُ ٱللَّـهُ رَبُّكُـمْ} أي الـذي فعـل هذه الأفعال هو الله الموجد لكم من العدم، المربي بجميـع النعـم.

{لَهُ ٱلْمُلْكُ} كله، وهو مالك كل شيء. {وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ} أي تعبدون {مِن دُونِهِ} تعالى وهم الأصنام {مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ} أي لا يقدرون أن يفعلوا من ذلك قدر الشيء الذي تعلق به النواة مع القمع، وقيل: القطمير هو القشرة الرقيقة البيضاء التي بين التمرة والنواة. وهذا استدلال على تفرده تعالى بالألوهية. {إِن تَدْعُوهُمْ} أي المعبودات من غير الله {لاَ يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ}، لأنها جمادات {وَلَوْ سَمِعُواْ} على سبيل التقدير {مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ} أي ما أجابوكم بجلب نفع ودفع ضرر لعجزهم عن الأفعال بالمرة، {وَيَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ} أي حين ينطقهم الله ينكرون عبادتكم إياهم بقولهم: ما كنتم إيانا تعبدون. {وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} أي ولا يخبرك أيها السامع أحد مثلي، لأني عالم بالأشياء وغيري لا يعلمها.

{يٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ} أي إلى مغفرته ورحمته ورزقه في الدنيا، وإلى جنته في الآخرة. وهذا يوجب عبادته {وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ} أي والله مع استغنائه يدعوكم كل الدعاء يقضي في الدنيا حوائجكم، وإن آمنتم به يقضي في الآخرة حوائجكم فهو المستوجب للحمد. {إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ} أي يهلككم يا أهل مكة {وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} أي بقوم آخرين مستمرين على الطاعة، أو بعالم آخر غير ما تعرفونه، {وَمَا ذَلِكَ} أي الإذهاب بهم والإتيان بآخرين {عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ} أي بمتعسر {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ} أي لا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى، بل إنما تحمل كل منهما إثمها، {وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ} أي وإن تدع نفس مثقلة بالذنوب نفساً إلى حمل بعض ذنوبها لم تجب تلك النفس المدعوة بحمل شيء من تلك الأوزار، ويروى عن الكسائي «لا تحمل» بفتح التاء الفوقية وكسر الميم شيئاً، أي لا تحمل تلك النفس المدعوة شيئاً من الوزر، {وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ} أي ولو كان المدعو ذا قرابة من الداعي.

قال ابن عباس: يلقى الأب والأم الابن فيقولان له: يا بني احمل عنا بعض ذنوبنا. فيقول: لا أستطيع حسبي ما علي {إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِٱلْغَيْبِ} أي إنما ينفع إنذارك يا أشرف الرسل بهذه الإنذارات الذين يخشون عذاب ربهم وهو غائب عنهم {وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ} أي راعوها كما ينبغي {وَمَن تَزَكَّىٰ} أي تطهر من المعاصي {فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ} أي فتطهره لنفسه إذ نفعه لها كما أن من تدنس بالأوزار لا يتدنس إلا على نفسه {وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ} فالمتزكي إن لم تظهر فائدته عاجلاً، فهي تظهر عنده في يوم اللقاء في دار البقاء، كما إن الوازر إن لم تظهره تبعة

وزره في الدنيا فهي تظهر في الآخرة، إذ المرجع إلى الله {وَمَا يَسْتَوِى ٱلأَعْمَىٰ وَ ٱلْبَصِيرُ}، أي الكافر والمؤمن {وَلاَ ٱلظُّلُمَاتُ وَلاَ ٱلنُّورُ} أي ولا الباطل والحق، {وَلاَ ٱلظِّلُّ وَلاَ ٱلْحَرُورُ} أي ولا الثواب والعقاب، {وَمَا يَسْتَوِى ٱلأَحْيَآءُ وَلاَ ٱلأَمْوَاتُ} أي وما يستوي المؤمنون والكفار، أو العلماء والجهلة، {إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ} أي إن الله يفهم من يشاء ممن كان أهلاً لفهم آياته تعالى. {وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ} أي وما أنت يا أشرف الخلق بمفهم من هو مثل الميت في القبور، شبه الله الكفار بالموتى في عدم التأثر بدعوته صلى الله عليه وسلم {إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ} أي ما أنت إلاّ رسول منذر وليس لك من الهدى شيء، {إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ} أي إرسالاً مصحوباً بالحق {بَشِيراً وَنَذِيراً}، ويجوز أن يتعلق بالحق بما بعده، أي بشيراً بالوعد الحق ونذيراً بالوعيد الحق، {وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ} أي ما من أمة إلاّ مضى فيها نبي أو عالم ينذرهم، {وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}، أي وإن يكذبك أهل مكة فلا تبال بتكذيبهم، لأنه قد كذب الذين من قبلهم من الأمم العاتية رسلهم {جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ} أي المعجزات الظاهرة الدالة على نبوتهم، {وَبِٱلزُّبُرِ} أي بخبر الأولين كصحف إبراهيم، {وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ} أي الموضح لطريق الخير والشر كالتوراة والإنجيل والزبور، {ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} بالكتب والرسل بأنواع العذاب، {فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} أي إنكاري بالعقوبة، {أَلَمْ تَرَ} أي ألم تعلم أيها المخاطب {أَنَّ ٱللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ}، أي بذلك الماء {ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا} من الصفرة والخضرة والحمرة وغيرها، {وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ} أي طرائق تخالف لون الجبل {بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا}، ف «مختلف» صفة ل «جدد» أيضاً و «ألوانها» فاعل.

وقال الرازي: الظاهر أن الاختلاف راجع إلى كل لون أي بيض مختلف ألوانها، وحمر مختلف ألوانها، لأن الأبيض قد يكون على لون الجص، وقد يكون على لون التراب الأبيض، وكذلك الأحمر، {وَغَرَابِيبُ} أي شديدة السواد{سُودٌ} وهو بدل من غرابيب.

{وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُ}، أي ألوان ذلك البعض {كَذَلِكَ}، أي اختلافاً كائناً كاختلاف الثمار والجبال، {إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ} فالخشية بقدر معرفته المخشي والعالم يعرف الله، فيخافه ويرجوه. وهذا دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد. ومعنى الآية في قراءة من قرأ بنصب «العلماء»، ورفع اسم الجلالة إنما يعظم الله العلماء. {إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} فكونه تعالى عزيزاً ذا انتقام يوجب الخوف التام،

وكونه تعالى غفوراً للتائب عن العصيان يوجب الرجاء البالغ. {إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ} أي يداومون على قراءة القرآن، {وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ} كيفما اتفق من غير قصد إليهما {يَرْجُونَ تِجَٰرَةً} أي تحصيل ثواب الطاعة {لَّن تَبُورَ}، أي لن تهلك بالخسران أصلاً. وقوله تعالى: {سِرّا وَعَلاَنِيَةً} حث على الإنفاق كيفما يتهيأ، فإن تهيأ سراً فذاك وإلاَّ فعلانية، ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء فإن ترك الخير مخافة أن يقال فيه: إنه مراء، هو عين الرياء. {لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ} متعلق ب «لن تبور»، أي تنفق التجارة عند الله ليوفيهم الله أجور أعمالهم ما يرجونه {وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ} أي يعطيهم ما لم يخطر ببالهم عند العمل، {إِنَّهُ غَفُورٌ} عند إعطاء الأجور، {شَكُورٌ} عند إعطاء الزيادة {وَ ٱلَّذِيۤ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ}، أي هو القرآن {هُوَ ٱلْحَقُّ} أي الصدق {مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ}، أي مصدقاً لما قبله من الكتب السماوية فيوافقه في العقائد وأصول الأحكام {إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ}، أي عالم بالبواطن {بَصِيرٌ}، أي عالم بالظواهر فلا يكون الكتاب باطلاً في وحيه لا في الباطن ولا في الظاهر، {ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا}، أي ثم أعطينا القرآن أمتك الذين اخترناهم على سائر الأمم، {فَمِنْهُمْ ظَٰلِمٌ لِّنَفْسِهِ} أي راجع سيئاته {وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ} أي تساوت سيئاته وحسناته، {وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِـ ٱلْخَيْرَٰتِ} وهو الذي ترجحت حسناته {بِإِذْنِ ٱللَّهِ} أي بتوفيق الله وهو متعلق بسابق {ذَٰلِكَ} أي السبق بالخيرات، {هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ} من الله تعالى {جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا} خبر ل «جنات»، أي هؤلاء الثلاثة أصناف يدخلون جنات عدن، ومن دخلها لم يخرج منها.

وقرأ أبو عمرو بالبناء للمفعول {يُحَلَّوْنَ فِيهَا} أي يلبسون على سبيل التزين في الجنة {مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ} ف «من» الأولى للتبعيض، والثانية للتبيين. {وَلُؤْلُؤاً} قرأه عاصم ونافع بالنصب عطفاً على محل من أساور. والباقون بالجر عطفاً على ذهب. {وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا} أي الجنة {حَرِيرٌ} وإكثار الزينة يدل على الغنى، فلا يعجز عن الوصول إلى الأشياء الكثيرة عند الحاجة، ويدل على الفراغ. {وَقَالُواْ} أي ويقول أهل الجنة في الجنة: { ٱلْحَمْدُ للَّهِ ٱلَّذِيۤ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ} أي كل حزن بحصول كل مطلوبه {إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ} للمذنبين {شَكُورٌ} للمطيعين { ٱلَّذِيۤ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ} أي دار الإقامة التي لا انتقال عنها أبداً {مِن فَضْلِهِ} من غير أن يوجبه شيء من جهتنا {لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ} أي تعب، {وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} أي فتورنا شيء عن التعب، {وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ} أي لا يحكم عليه بموت ثانٍ،

{فَيَمُوتُواْ} أي لا يستريحون بالموت بل عذابهم دائم، {وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا}، أي جهنم طرفة عين {كَذَلِكَ} أي مثل ذلك الجزاء، {نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ}. وقرأ أبو عمر «يجزى» بالبناء للمفعول، و «كل» بالرفع.

{وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا} أي يصيحون في جهنم بقولهم: {رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا} منها {نَعْمَلْ صَٰلِحاً} أي خالصاً في الإيمان {غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ} في الدنيا من الشرك فيقول الله لهم توبيخاً: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ} أي ألم نمهلكم يا معشر الكفار ولم نطل أعماركم زماناً يتعظ فيه من أراد أن يتعظ، وهو ستون سنة كما قاله ابن عباس أو أربعون سنة كما قاله الحسن {وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ} أي رسول من الله تعالى أو عقل، أو شيب، أو حمى، أو موت الأقارب، فالشيب والحمى وموت الأهل كله إنذار بالموت. والمراد: أي رسول كان، لأن هذا الكلام مع الكفار على الإطلاق قال تعالى {فَذُوقُواْ} ما أعددناه لكم من العذاب دائماً أبداً {فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ} أي لأنه ليس للذين وضعوا أعمالهم في غير موضعها. وأتوا بالمعذرة في غير وقتها مانع من عذاب الله، {إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ} فلا يخفى عليه تعالى أحوالهم لو ردوا إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه، {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ} وكان يعلم من الكافر أن في قلبه تمكن الكفر بحيث لو دام في الدنيا إلى الأبد لما أطاع الله، {هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰئِفَ فِى ٱلأَرْضِ} أي خلفاء من قبلكم من الأمم تعلمون أحوال الماضين ممن كذب الرسل، {فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ} أي عقوبة كفره، {وَلاَ يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلاَ يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً}، أي إن الكفر لا ينفع عند الله فلا يزيدهم إلاّ بغضه الشديد ولا ينفعهم في أنفسهم بل لا يفيدهم إلاّ الخسار، فإن العمر كرأس المال، فمن اشترى به رضا الله ربح، ومن اشترى به سخطه خسر {قُلْ} يا أشرف الخلق لأهل مكة: {أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلأَرْضِ}. وجملة قوله: {أَرُونِىَ} بدل اشتمال من «أرأيتم»، أي أخبروني عن آلهتكم التي زعمتم أنها شركاء الله تعالى الذين تعبدونها من غير الله، أروني أيّ جزء خلقوا من الأرض، {أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوٰتِ} أي بل ألهم شركة مع الله في خلق السمٰوات ليستحقوا بذلك شركة ذاتية في الألوهية؟ {أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰباً}، أي بل أعطينا الشركاء كتاباً ينطق بأنا اتخذناهم شركاء؟ {فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ}.

وقرأ أبو عمرو وحمزة، وابن كثير، وحفص «بينة» بالإفراد. والباقون «بينات» بالجمع، أي فالشركاء على حجة ظاهرة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة جعلية {بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً}، أي بل ما يعد الأسلاف للأخلاف والرؤساء للسفلة في الدنيا بأن شركاءهم تقربهم إلى الله تعالى المنزلة، وبأنها تشفع لهم في الآخرة فتضر وتنفع إلاّ باطلاً. {إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضَ أَن تَزُولاَ} أي إن الله يمنعهما من أن تزولا عن مكانهما لأن مقتضى شركهم زوالهما، {وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ} أي والله لئن زالتا عن مكانهما ما يمسكهما أحد من بعد زوالهم {إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً} إذا أمسكهما فما ترك الله تعذيب المشركين إلاّ حلماً منه تعالى، وإلاّ فكانوا يستحقون إسقاط السمٰوات وانطباق الأرض عليهم {غَفُوراً} أي محَّاء لذنوب من تاب. وإن استحق العقاب {وَأَقْسَمُواْ} أي كفار مكة {بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ}، أي غاية اجتهادهم في الإيمان {لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلأُمَمِ}، أي لما بلغ قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا: لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم، فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أسرع إجابة من كل الأمم، {فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ} أي فما صح لهم مجيء رسول وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي كانوا يشهدون أنه خيرهم نفساً، وأشرفهم نسباً، وأكرمهم خلقاً {مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً}، أي تباعداً عن الحق {ٱسْتِكْبَاراً فِي ٱلأَرْضِ}، إعراضاً عن الإيمان وهو بدل من «نفوراً». {وَمَكْرَ ٱلسَّيِّىءِ} وهو معطوف على «نفوراً»، وهو جميع ما صدر منهم من القصد إلى الإيذاء به صلى الله عليه وسلم، ومنع الناس من الدخول في الإيمان وإظهار الإنكار، {وَلاَ يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّىءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ}، أي ولا يحيط المكر السيىء إلاّ بفاعله {فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ ٱلأَوَّلِينَ} أي ما ينتظرون إلا عادة الله في الأولين من تعذيبهم بتكذيبهم رسلهم، فإن سنة الله الإهلاك بالشرك والإكرام على الإسلام {فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً} لأنه سنة من سنن الله {وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً} فإن العذاب مع أنه لا تبديل له بالثواب لا ينقل عن مستحقه إلى غيره، فبهذا يتم تهديد المسيء.

{أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلأَرْضِ} أي اقعدوا في الأرض {فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُواْ} أي من قبلهم {أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً} وقد كانوا مارين على ديارهم رائين لآثارهم، وأملهم كان فوق أملهم لطول أعمارهم، وشدة اقتدارهم، وعملهم كان دون

عملهم، لأنهم لم يكذبوا محمداً، ولا مثل محمد، وأنتم يا أهل مكة كذبتم محمداً ومن تقدمه من الرسل. فأهلكهم الله بتكذيبهم رسلهم فما نفعهم طول المدى، وما دفع عنهم شدة القوى {وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوٰتِ وَلاَ فِى ٱلأَرْضِ} أي إن الأولين مع شدة قوتهم ما أعجزوا الله، فهؤلاء أولى بأن لا يعجزوه {إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً} بأفعالهم وأقوالهم {قَدِيراً} على إهلاكهم واستئصالهم {وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ} من السيئات كما فعل بأولئك الأولين {مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا} أي على وجه الأرض {مِن دَآبَّةٍ} أي من ذوى روح تدب عليها {وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى}، أي إلى وقت معلوم عند الله تعالى، فللعذاب أجل، والله لا يؤاخذ الناس بنفس الظلم، فإن الإنسان ظلوم جهول، وإنما يؤاخذ بالإصرار على المعاصي وحصول يأس الناس عن إيمانهم، فإذا لم يبق فيهم من يؤمن يهلك الله المكذبين ولو أخذهم بنفس الظلم لكان كل يوم إهلاك {فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً}، أي فإذا جاء أجلهم وهو يوم القيامة، أو يوم لا يوجد في الخلق من يؤمن أو يوم القتل والأسر، فإن الله يجازيهم عند ذلك بأعمالهم، لأن الله تعالى كان بصيراً بعباده. وهذا تسلية للمؤمنين، وذلك لأن الله تعالى لما قال ما ترك على ظهرها من دابة قال فإذا جاء الهلاك في الدنيا فالله بصير بالعباد، إما أن ينجي المؤمنين أو يميتهم تقريباً من الله لا تعذيباً.

سورة يٰس

وتسمى أيضاً: القلب، والدافعة، والقاضية، والمعممة. مكية، ثلاث وثمانون آية، وسبعمائة وتسع وعشرون كلمة، وثلاثة آلاف حرف

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. يٰسٓ} أي وهذه يس، أو اقرأ يس، {وَ ٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ} أي المتضمن للحكمة. اعلم أن العبادة قلبية ولسانية وجارحية، وكل واحدة منها قسمان قسم علم معناه، وقسم لم يعلم. أما القلبية: فمنها ما لم يعلم دليله عقلاً، وإنما وجب الإيمان به كالصراط الذي هو أرق من الشعرة، وأحد من السيف ويمر عليه المؤمن كالبرق الخاطف، والميزان الذي توزن به الأعمال التي لا ثقل لها في نظر الناظر، وكيفيات الجنة والنار، لأن هذه الأشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلي وإنما المعلوم بالعقل أمكانها، ووقوعها مقطوع به بالسمع، ومنها ما علم كالتوحيد والنبوة وقدرة الله وصدق الرسول في العبادات

الجارحية ما علم معناه وما لم يعلم، كمقادير النصب وعدد الركعات فالعبد. إذا أتى بما أمر به من غير أن يعلم ما فيه من الفائدة فلا يكون الإتيان به إلا لمحض العبادة بخلاف ما لو علم الفائدة فربما يأتي للفائدة فقط، وإن لم يؤمن كما لو قال السيد لعبده: انقل هذه الحجارة من ههٰنا ولم يعلمه بما في النقل فنقلها ولو قال: انقلها فإن تحتها كنزاً هو لك فإنه ينقلها، وإن لم يؤمن، فكذلك العبادات اللسانية، فمنها ما لا يفهم معناه فإذا تكلم به العبد علم أنه لا يقصد غير الانقياد لأمر المعبود الآمر الناهي، فإذا قال يسٓ، حمٓ، الٓر، طسٓ، علم الله أنه لا يذكر ذلك لمعنى يفهمه بل هو يتلفظ به إقامة لما أمر به {إِنَّكَ} يا أشرف الخلق {لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَعَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ} أي ثابت على شريعة شريفة، فإن شريعته صلى الله عليه وسلم أقوم الشرائع، وقوله: {عَلَىٰ صِرَٰطٍ} خبر ثانٍ ل«إن». {تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ}.

وقرأ ابن عامر، وحفص، وحمزة والكسائي بالنصب على الحال أو على المدح بإضمار أعني أي حال كون القرآن تنزيل المانع عن أشياء المطلق لأشياء، أو المنتقم لمن لا يؤمن، الرحيم لمن آمن. والباقون بالرفع أي هذا تكليم العزيز.

وقرىء بالجر على أنه بدل من القرآن كأنه تعالى قال: والقرآن الحكيم، تنزيل العزيز الرحيم، إنك لمن المرسلين، {لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ} أي لم ينذر آباؤهم الأقربون لتطاول مدة الفترة، لأن قريشاً لم يبعث إليهم نبي قبل نبينا صلى الله عليه وسلم، ف«ما» نافية، والجملة صفة ل«قوماً» ويصح كونها موصولة أي الذين أنذر آباؤهم الأقدمون ويصح كونها مصدرية فيكون نعتاً لمصدر مؤكد، أي لتنذر قوماً إنذاراً كائناً مثل إنذار آبائهم الأقدمين من العذاب {فَهُمْ} أي القوم وآباؤهم الأقربون {غَٰفِلُونَ} عن أمر الآخرة، جاحدون بها، أو فهؤلاء القوم غافلون عما أنذر آباؤهم الأقدمون لامتداد المدة {لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ}، أي لقد حقت كلمة العذاب العاجل على أكثر أهل مكة أبي جهل وأصحابه، {فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} أي في علم الله وقتلوا يوم بدر على الكفر.

{إِنَّا جَعَلْنَا فِيۤ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلاً فَهِىَ إِلَى ٱلأَذْقَٰنِ} أي فالأغلال منتهية إلى أذقانهم فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطئون رؤوسهم، له {فَهُم مُّقْمَحُونَ}، أي رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم بحيث لا يكادون يرون الحق {وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً ومِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً}، أي وجعلنا مع ما ذكر من أمامهم سداً عظيماً، ومن ورائهم كذلك {فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} أي فغطينا بهذين السدين أبصارهم فهم بسبب ذلك

لا يقدرون على إبصار شيء ما أصلاً، وقوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا} إلخ كناية عن منع الله إياهم عن الاهتداء، وهو تمثيل حالهم بحال من غلت أعناقهم، وقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً} إشارة إلى أنهم لا ينتهجون سبيل الرشاد فلا يبصرون الحق لمكان السد، ولا ينقادون لك لمكان الغل. وقيل: نزلت هذه الآيات في أبي جهل بن هشام وصاحبيه المخزومين وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً يصلي ليرضخن رأسه بحجر، فلما رآه يصلي ذهب إليه فرفع حجراً ليرميه، فلما أومأ إليه رجفت يداه إلى عنقه، والتصق الحجر بيده إلى عنقه، فلما عاد إلى أصحابه أخبرهم بما رأى قال الوليد بن المغيرة، أنا أرضخ رأسه فأتاه وهو يصلي على حالته ليرميه بالحجر، فأعمى الله بصره، فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقال: والله ما رأيته ولقد سمعت صوته فقال الرجل الثالث: والله لأشدخن رأسه، ثم أخذ الحجر وانطلق، فرجع القهقرى ينكص على عقبيه حتى خر على قفاه مغشياً عليه، فقيل له: ما شأنك؟ قال: شأني عظيم رأيت الرجل، فلما دنوت منه فإذا فحل يخطر بذنبه ما رأيت قط فحلاً أعظم منه، حال بيني وبينه فواللات والعزى لو دنوت منه لأكلني، فأنزل الله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلاً فَهِىَ إِلَى ٱلأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ} أي إنا جمعنا أيمانهم إلى الأذقان حين أرادوا أن يرجموا النبي صلى الله عليه وسلم بالحجارة وهو في الصلاة فهم مغلولون من كل خير، محرومون، {وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} أي وجعلنا من أمامهم ستراً حيث أرادوا أن يرجموا النبي صلى الله عليه وسلم بالحجارة وهو في الصلاة، فلم يبصروا النبي صلى الله عليه وسلم ومن خلفهم سداً حتى لا يبصروا أصحابه، فغطينا أبصارهم فهم لا يبصرون النبي صلى الله عليه وسلم فيؤذوه. وقرأ حمزة والكسائي، وحفص «سداً» بفتح السين. والباقون بالضم في الموضعين. {وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَءَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ} أي مستو عند بني مخزوم، أبي جهل وأصحابه إنذارك بالقرآن إياهم وعدمه. وأما الإنذار بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فهو سبب في زيادة سيادته عاجلاً وسعادته، آجلاً {لاَ يُؤمِنُونَ} في علم الله {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ} أي إنما ينفع إنذارك يا سيد الرسل من آمن بالقرآن {وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِـ لْغَيْبِ} أي خاف عقابه، وهو تعالى غائب عنه، أي عمل صالحاً، فالعاقل لا ينبغي أن يترك الخشية، فإن كل من كانت نعمته بسبب رحمته أكثر، فالخوف منه أتم أن يقطع عنه النعم المتواترة، {فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ} عظيمة

{وَأَجْرٍ كَرِيمٍ} أي ثواب حسن في الجنة فالغفران جزاء الإيمان فكل مؤمن مغفور والأجر الكريم جزاء العمل الصالح، {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ} أي نبعثهم بعد مماتهم. وعن الحسن: إنا نخرجهم من الشرك إلى الإيمان {وَنَكْتُبُ} في صحف الملائكة {مَا قَدَّمُواْ} أي ما أسلفوا من الأعمال، صالحة كانت أو فاسدة {وَءَاثَارَهُمْ} أي التي أبقوها من السنن الحسنة كالكتب المصنفة، والقناطر المبنية والحبائس التي وقفوها من المساجد والرباطات، ومن السنن السيئة كوظيفة وظفها بعض الظَّلام على المسلمين، وسكة أحدثها فيها تخسيرهم، وآلات الملاهي، وأدوات المناهي المعمولة الباقية {وَكُلَّ شَىْءٍ} من الأشياء {أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ} أي كتبناه في أصل مظهر لجميع الأشياء مما كان وما سيكون، وهو اللوح المحفوظ.

{وَ ٱضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلاً أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ} أي بين لأهل مكة صفة أهل أنطاكية كيف أهلكناهم، {إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ} وهم رسل عيسى عليه السلام إلى أهلها، فرسول رسول الله بإذن الله رسول الله، وهذا يؤيد مسألة فقهية وهي أن وكيل الوكيل بإذن الموكل، وكيل الموكل لا وكيل الوكيل حتى لا ينعزل بعزل الوكيل إياه، وينعزل إذا عزله الموكل الأول، {إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ} أي رسولين وهما: يحنا وبولس. وقيل: سمعان وثومان {فَكَذَّبُوهُمَا}، أي فأتياهم، فدعواهم إلى الحق فكذبوهما في الرسالة، {فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ} أي قويناهما برسول ثالث هو شمعون. وقرأ شعبة بتخفيف الزاي {فَقَالُوٓاْ} أي جميعاً: {إِنَّآ إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَقَالُواْ} أي أهل أنطاكية مخاطبين للثلاثة: {مَآ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا} فلا يجوز رجحانكم علينا {وَمَآ أَنزلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ} أي فما نزلتم من عند الله، وما أنزل الله إليكم أحداً فكيف صرتم رسلاً لله. أو يقال: إن الله ليس بمنزل شيئاً في هذا العالم فإن تصرفه في العالم العلوي، وللعلويات التصرف في السفليات على مذهبهم، فالله تعالى لم ينزل شيئاً من الأشياء في الدنيا فكيف أنزل إليكم؟ {إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ} أي ما أنتم إلاّ كاذبون في دعوى رسالته تعالى. {قَالُواْ} أي الرسل: {رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ} استشهدوا بعلم الله تعالى وهو يجري مجرى القسم مع تحذيرهم معارضة علم الله تعالى {وَمَا عَلَيْنَآ إِلاَّ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ} أي وما علينا من جهة ربنا إلاّ تبليغ رسالته تبليغاً ظاهراً بلغة تعلمونها بالآيات الشاهدة بالصحة، فلا مؤاخذة لنا بعد ذلك من جهة ربنا. {قَالُواْ} للرسل لما ضاقت عليهم الحيل، وعيت بهم العلل: {إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ} أي تشاءمنا بكم بناء على أن الدعوة لا تخلو عن الوعيد بما

يكرهونه من إصابة ضر متعلق بأنفسهم وأهليهم وأموالهم، إن لم يؤمنوا، فكانوا ينفرون عنه. وقيل: إنما تطيروا لما بلغهم من أن كل نبي إذا دعا قومه فلم يجيبوه كان عاقبتهم الهلاك {لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ} عن مقالتكم هذه {لَنَرْجُمَنَّكُمْ} بالحجارة {وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ}، أي وليصيبنكم منا بسبب الرجم عذاب أليم، أي نديم الرجم عليكم إلى الموت {قَالُواْ} أي الرسل: {طَئِرُكُم مَّعَكُمْ} أي سبب شؤمكم معكم لا من قبلنا وهو سوء عقيدتكم وقبح أعمالكم {أَءِن ذُكِّرْتُم} أي إن وعظتم بما فيه سعادتكم تطيرتم، وتوعدتم بالرجم والتعذيب {بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ} أي ليس التذكير سبباً للشؤم بل أنتم قوم عادتكم الإسراف في العصيان فلذلك أتاكم الشؤم. {وَجَآءَ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ} وهو حبيب النجار، وهو ينحت أصنامهم، وهو ممن آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهما ستمائة سنة كما آمن به صلى الله عليه وسلم تبع وورقة بن نوفل وغيرهما. وقيل: إنه كان إسكافاً وقيل: إنه كان قصاراً {يَسْعَىٰ} أي يسرع في المشي حيث سمع بالرسل {قَالَ يٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ} الذي أظهروا لكم الدليل وأوضحوا لكم السبيل، {ٱتَّبِعُواْ مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً} فإنهم لو كانوا متهمين بعدم الصدق لسألوكم المال {وَهُمْ مُّهْتَدُونَ} أي عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة إلى الحق، قالوا له: تبرأت منا ومن ديننا، ودخلت في دين عدونا فقال لهم: {وَمَا لِىَ لاَ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى} أي خلقني اختراعاً وهو مالكي، {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} بعد الموت فكيف لا تعبدونه. والعابد على أقسام ثلاثة: عابد يعبد الله لكونه إلهاً مالكاً سواء أنعم بعد ذلك أو لم ينعم، وعابد يعبد الله للنعم الواصلة، إليه وعابد يعبد الله خوفاً. فجعل القائل نفسه من القسم الأول وهو الأعلى {أَءَتَّخِذُ مِن دُونِهِ} أي من غير الذي خلقني {ءَالِهَةً} أي لا أعبد آلهة من غيره تعالى {إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونَ} أي إن يصبني الرحمٰن بعذاب لا تنفعني تلك الأصنام نفعاً ولا تدفع عني ذلك العذاب {إِنِّ إِذاً} أي إذا اتخذت من دونه آلهة {لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ} أي خطأ ظاهر،

{ إِنِّ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَ ٱسْمَعُونِ}. وهذا خطاب من حبيب للرسل، وذلك لما أقبل القوم عليه يريدون قتله أقبل هو على المرسلين وقال: إني آمنت بربكم فاسمعوا قولي واشهدوا لي بالإيمان عند الله تعالى. وقيل: الخطاب للكفرة خاطبهم بذلك إظهاراً للتصلب في الدين وعدم المبالاة بالقتل ففيه بيان للتوحيد وذلك لأنه لما قال: أعبد الذي فطرني، ثم قال: آمنت بربكم فهم

أنه يقول: ربي وربكم واحد وهو الذي فطرني، وهو الذي بعينه ربكم بخلاف ما لو قال: آمنت بربي فيقول: الكافر وأنا آمنت بربي أيضاً، وعلى هذا فمعنى الآية آمنت بربكم فاسمعوا ما قلته لكم وأطيعوني بالإيمان، فأخذوه، وقتلوه، وصلبوه، ووطئوه بأرجلهم حتى خرجت أمعاؤه من دبره وألقي في بئر وهي الرس وهم أصحاب الرس. {قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ} أي إنه قتل ثم قيل له بعد القتل: ادخل الجنة إكراماً له بدخولها حينئذٍ كسائر الشهداء. {قَالَ} بعد موته: {يا} حرف تنبيه {يٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَبِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى} أي الذي غفر لي ربي وهو التوحيد، أو بمغفرة ربي لي. ويقال: قيل: {قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ} عقب قوله: {ءامَنتُ} الخ قال في حياته كأنه سمع الرسل أنه من الداخلين الجنة وصدقهم: يا ليت قومي يعلمون كما علمت فيؤمنون كما آمنت بأي شيء غفر لي ربي {وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ}، فإن الإيمان والعمل الصالح يوجبان الغفران والإكرام. وحاصل هذه القصة أن عيسى عليه السلام بعث رسولين من الحوارين إلى أهل أنطاكية، فلما قربا إلى المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له وهو حبيب بن إسرائيل النجار فسلما عليه فقال: من أنتما؟ فقالا: رسولا عيسى عليه السلام يدعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمٰن. فقال: أمعكما آية؟ قالا: نعم، نشفي المريض، ونبرىء الأكمه والأبرص، بإذن الله تعالى فقال: إن لي ابناً مريضاً منذ سنين قالا: فانطلق بنا ننظر حاله، فأتى بهما إلى منزله، فمسحا ابنه، فقام في الوقت بإذن الله تعالى صحيحاً، فآمن من حبيب، وفشا الخبر في المدينة وشفى الله تعالى على أيديهما كثيراً من المرضى، وكان لهم ملك اسمه أنطيخا، وكان من ملوك الروم، فانتهى خبرهما إليه فدعا بهما فقال لهما: من أنتما؟ فقالا: رسولا عيسى عليه السلام. وفيم جئتما؟ قالا: ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر. قال لهما: ألنا إله سوى آلهتنا؟ قالا: نعم، من أوجدك وآلهتك. فقال لهما: قوما حتى أنظر في أمركما، وأمر بحبسهما، وجلد كل واحد منهما مائة جلدة، ثم بعث عيسى عليه السلام رأس الحوارين شمعون لينصرهما، فدخل البلد متنكراً وجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به وأوصلوه خبره إلى الملك فدعاه وأنس به وأكرمه فقال يوماً للملك: بلغني أنك حبست رجلين في السجن، وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك فهل كلمتهما وسمعت قولهما؟ فقال: لا، فقد حال الغضب بيني وبين ذلك قال: إن رأيي أيها الملك أن تدعوهما حتى تطّلع على ما عندهما، فدعاهما الملك فقال لهما شمعون: من أرسلكما إلى

هٰهنا؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء، وليس له شريك. فقال: صفاه وأوجزا. قالا: إنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. قال لهما شمعون: وما آيتكما قالا: ما يتمنى الملك. فدعا الملك بغلام مطموس العينين وموضع عينيه كالجبهة فما زالا يدعوان ربهما حتى انشق موضع البصر، فأخذا بندقتين من طين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين ينظر بهما، فتعجب الملك فقال شمعون له: أيها الملك إن شئت أن تغلبهم فقل للآلهة التي تعبدونها تفعل شيئاً من ذلك. قال الملك: لا يخفى عليك أنها لا تبصر، ولا تسمع، ولا تقدر، ولا تعلم. فقال شمعون: فإذا ظهر الحق من جانبهم فآمن الملك وقوم وكفر آخرون، وكانت الغلبة للمكذبين، وأجمعوا على قتل الرسل وقومهم، فبلغ ذلك حبيباً وهو على باب المدينة، فجاء يسعى إليهم يذكرهم ويدعوهم إلى طاعة المرسلين ولما قتلوه غضب الله له فجعل لهم العقوبة فأمر جبريل فصاح بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم فذلك قوله تعالى: {وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ} أي قوم ذلك الرجل الذي هو حبيب وهم أصحاب القرية الذين رجموه {مِن بَعْدِهِ} أي من بعد قتله، {مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ} لإهلاكهم {وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ} أي إنا لم ننزل ملائكة لإهلاك الكفار في الأزمنة الماضية، بل نهلكهم بغير الملائكة إما بالحاصب أو بالصيحة، أو بالخسف، أو بالإغراق وإنما جعلنا إنزال الجند من خصائصك في الانتصار من قومك تعظيماً لشأنك، {إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وٰحِدَةً} أي ما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة من جبريل، أخذ جبريل الباب فصاح فيهم صيحة واحدة وذلك لحقارة أمرهم عندنا. {فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ} أي ميتون لا يتحركون. {يٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ}، وهذا ما من كلام الملائكة، أو من كلام المؤمنين، أي يا شدة التحزن على العباد تعالى هذا وقتك فاحضري، وهو وقت الاستهزاء بالرسل، فالمستهزئون بالناصحين أحقاء بأن يتحزنوا ويتحزن عليهم المتحزنون. {مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ} أي بذلك الرسول {يَسْتَهْزِءُونَ} وهذا سبب الندامة {أَلَمْ يَرَوْاْ} أي ألم يعلم أهل مكة الذي أنكروا رسالتك {كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ ٱلْقُرُونِ} أي الأمم الماضية، {أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ} أي أنهم أهلكوا إهلاكاً لا رجوع لهم إلى من في الدنيا يقال: إن الباقين لا يرجعون إلى المهلكين بنسب ولا ولادة، أي أهلكناهم وقطعنا نسلهم، والوجه الأول أشهر نقلاً، والثاني أظهر عقلاً. {وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ}. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة «لمّا» بتشديد الميم إلاَّ أي ما كلهم إلاَّ مجموعون عندنا، محضرون للحساب. والجزاء، والباقون بالتخفيف، والمعنى عند الكوفيين

كما تقدم، وعند البصريين وإن كلهم لمجموعون عندنا محضرون للحساب {وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا}، أي وعلامة عظيمة لهم على قدرتنا على البعث، وعلى وحدانيتنا الأرض الميتة أحييناها بأنواع النبات فيها، فالذي أحيا الأرض إحياء كاملاً، منبتاً للزرع يحيي الموتى إحياءً كاملاً {وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا} أي الأرض {حَبّاً} أي جنس الحب، كالحنطة والشعير والأرز، {فَمِنْهُ} أي من ذلك الحب {يَأْكُلُونَ} فهو أكثر ما يعاش به {وَجَعَلْنَا فِيهَا}، أي الأرض {جَنَّٰتٍ} أي بساتين {مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ} أي من أنواع النخل والعنب {وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ}، أي فتحنا في الأرض بعضاً من العيون {لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ} أي من ثمر، ما ذكر من الجنات، أو من ثمر الله لأنه الذي خلقه. وقرأ حمزة والكسائي بضم الثاء والميم {وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ} وهو ما يتخذ من ذلك الثمر من العصير والدبس ونحوهما ف«ما» موصولة عطف على ثمره، ويؤيد هذا قراءة حمزة والكسائي وشعبة بحذف الهاء من «عملته»، فإن حذف العائد من الصلة أحسن من الحذف من غيرها. وقيل: «ما» نافية، ومحل الجملة نصب على الحالية. والمعنى أن الثمر بخلق الله تعالى لا بفعلهم، {أَفَلاَ يَشْكُرُونَ} أي أيتنعمون بهذه النعم فلا يشكرونها فيرجعون عن عبادة غير الله، وفي ذلك استدلال على وحدته تعالى وتعديد للنعم، فالأرض مكان لهم لا بد لهم منها، فهي نعمة، ثم إحياؤها بالنبات نعمة ثانية، فإنها تصير أنزه، ثم إخراج الحب منها نعمة ثالثة، فإن قوتهم يصير في مكانهم، ثم جعل الجنان فيها نعمة رابعة، لأن الأرض تنبت الحب في كل سنة وكل ذلك مفيد إلى بيان إحياء الموتى، فيقول الله تعالى: كما فعلنا في موت الأرض، كذلك نفعل في الأموات في الأرض، فنحييهم ونعطيهم ما لا بد منه في بقاءهم من الأعضاء المحتاج إليها وقواها كالعين والأذن وغير ذلك، ونزيد له ما هو زينة كالعقل الكامل والإدراك الشامل، فكأنه تعالى قال: نحيي الموتى إحياءً تاماً، كما أحيينا الأرض إحياءً تاماً.

{سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلأَزْوَٰجَ كُلَّهَا} أي تنزيهاً للذي خلق الأنواع كلها. {مِمَّا تُنبِتُ ٱلأَرْضُ} من نجم وشجر ومعدن {وَمِنْ أَنفُسِهِمْ} من ذكر وأنثى {وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ} ما في أقطار السمٰوات وتخوم الأرضين وغيره تعالى، لم يخلق شيئاً وإنما ذكر الله تعالى كون الكل مخلوقاً لينزه الله تعالى عن الشريك، فإن المخلوق لا يصلح شريكاً للخالق والتوحيد الحقيقي لا يحصل إلاّ بالاعتراف بأن لا إله إلاّ الله، فلا تشركوا بالله شيئاً مما تعلمون، ومما لا تعلمون {وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ} أي وعلامة عظيمة لأهل مكة

على قدرتنا على البعث الليل نزيل عنه النهار الذي هو كالساتر له، {فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ} أي داخلون في الظلام، {وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا} أي لحد معين ينتهي إليه دورها فتقف في مستقرها، ولا تنتقل عنه ومستقرها هو مكان تحت العرش تسجد فيه كل ليلة عند غروبها، فتستمر ساجدة فيه فيطول الليل، فعند طلوع النهار يؤذن لها في أن تطلع من مطلعها أولاً فإذا كان آخر الزمان لا يؤذن لها في الطلوع من المشرق، بل يقال لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع من المغرب. وقرىء «إلى مستقر لها». وعن ابن عباس لا مستقر لها أي لا سكون لها ولا وقوف، فإنها جارية أبداً إلى يوم القيامة. وقرىء «لا مستقر لها» على أن «لا» بمعنى ليس. {ذَلِكَ} أي جري الشمس {تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ} أي تدبيره وتسخيره إياها، {وَ ٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ} أي جعلنا له منازل ثمانية وعشرين منزلة في ثمانية وعشرين ليلة من كل شهر، ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يوماً، ويستتر ليلة إن كان الشهر تسعة وعشرين يوماً، {حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ} أي حتى يصير في رأي العين كالعذق المقوس اليابس إذا حال عليه الحول، {لاَ ٱلشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَآ أَن تدْرِكَ ٱلْقَمَرَ} أي فالشمس لم تصلح لها سرعة الحركة بحيث تدرك القمر، وإلا لكان في شهر واحد صيف وشتاء فلا تدرك الثمار، {وَلاَ ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ} أي ولا الليل يطلع سلطان النهار فيذهب ضوءه ولكن يعاقبه {وَكُلٌّ} من الشمس والقمر {فِى فَلَكٍ} أي دائرة {يَسْبَحُونَ}، أي يدورون ولفظ «كل» يجوز أن يوجد نظراً إلى كونه لفظاً موحداً، ويجوز أن يجمع لكون معناه جمعاً، وللشمس فلكان أحدهما: مركزه العالم، وثانيهما: مركزه فوق مركز العالم، وهو مثل بياض البيض بين صفرته والقيض والشمس كرة في الفلك الخارج المركز تدور بدوارنه في السنة دورة، فإذا حصلت في الجانب الأعلى تكون بعيدة عن الأرض فيقال: إنها في الأوج وإذا حصلت في الجانب الأسفل تكون قريبة من الأرض فتكون في الحضيض، وللقمر فلك شامل لجميع أجزائه وأفلاكه، وفلك آخر هو بعض من الفلك الأول محيط به كالقشرة الفوقانية من البصلة، وفلك ثالث في الفلك التحتاني كما كان في الفلك الخارج المركز في فلك الشمس، وفي الفلك الخارج المركز كرة مثل جرم الشمس وفي الكرة القمر مركوز كمسمار في كرة مفرق فيها، ويسمى الفلك الفوقاني الجوزهر والخارج المركز الفلك الحامل والفلك التحتاني الذي فيه الفلك الحامل المائل، والكرة التي في الحامل تسمى فلك التدوير {وَءَايَةٌ لَّهُمْ}، أي لأهل مكة على قدرتنا على البعث

{أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ}. وقرأ نافع وابن عامر «ذرياتهم» على الجمع، أي أولادهم الذين يبعثونهم إلى تجارتهم، أو صبيانهم ونسائهم الذين يستصحبونهم {فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ} أي المملوء، ومع ذلك نجاه الله من الغرق. وقال علي بن أبي طالب: حمل الله تعالى النطف في بطون النساء تشبيه بالفلك المشحون، {وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ} أي مما يماثل الفلك {مَا يَرْكَبُونَ} في البر من الإبل ونحوها وفي البحر من الزواريق ونحوها، {وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ} مع ركوبهم في الفلك ونحوه، {فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ}، أي فلا مغيث لهم من الغرق {وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ}، أي ولا ينجون من الغرق بعد وقوعه، {إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَىٰ حِينٍ} فالإنقاذ ينقسم إلى قسمين إما أن ينقذه الله لرحمة منه فيمن علم الله منه أنه يؤمن أو ينقذه للتمتيع باللذات زماناً إلى انقضاء أجله، وليزداد إثماً فيمن علم الله أنه لا يؤمن، فالإنقاذ غير مفيد للدوام بل الزوال في الدنيا لا بد منه،

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ} أي لأهل مكة بطريق الإنذار: { ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ} أي ما أمامكم من أمر الآخرة فإنهم مستقبلون لها، {وَمَا خَلْفَكُمْ} من أمر الدنيا فإنهم تاركون لها {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} أي راجين أن ترحموا فإن الله لا يجب عليه شيء أعرضوا حسب ما اعتادوه، ويقال: اتقوا ما بين أيديكم من أنواع العذاب مثل الغرق والحرق وغيرهما، وما خلفكم من الموت الطالب لكم، فإنكم إن نجوتم من هذه الأشياء فلا نجاة لكم منه، {وَمَا تَأْتِيهِم} أي كفار مكة {مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايٰتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا}، أي تلك الآية {مُعْرِضِينَ} على وجه التكذيب والاستهزاء، فلا تنفعهم الآيات ومن كذب بالبعض هان عليه التكذيب بالكل وقوله تعالى: {مّنْ ءايَةٍ}} ف«من» زائدة، وقوله: {مّنْ ءايَةٍ مّنْ} تبعيضية وقوله: {إِلاَّ كَانُواْ} إلخ جملة حالية {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ} بطريق النصيحة. {أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّه} أي بعض ما أعطاكم الله تعالى من فضله على المحتاجين، فإن ذلك مما يرد البلاء ويدفع المكاره. {قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ} استهزاء بهم {أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُ} على زعمكم {إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ} حيث تأمروننا بما يخالف مشيئته تعالى.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما كان بمكة زنادقة من قريش إذا أمروا بالتصدق على المسكين. قالوا: لا والله أيفقره تالله ونطعمه نحن وكانوا يسمعون من المؤمنين، يعلقون أفعال الله بمشيئته يقولون: لو شاء الله لأغنى فلاناً، ولو شاء لأعز، ولو شاء لكان كذا، فاخرجوا هذا الجواب استهزاء بالمؤمنين، وما كانوا

يقولون بتعليق الأمور بمشيئة الله تعالى. وقيل: إن المؤمنين لما قالوا لكفار قريش: أنفقوا على المساكين ما زعمتم من أموالكم إنه لله تعالى، وهو ما جعلوه لله من حرثهم وانعامهم قالوا: أنطعم من لو يشاء الله أطعمه: لكنا ننظره تعالى لا يشاء ذلك فإنه لم يطعمهم مما نرى من فقرهم، فنحن أيضاً لا نشاء ذلك موافقة لمراد الله تعالى فيه، {وَيَقُولُونَ} أي كفار مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين {مَتَىٰ هَذَا ٱلْوَعْدُ} بقيام الساعة {إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ} فيما تعدونا به منه؟ قال الله تعالى: {مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وٰحِدَةً} أي ما ينتظر قومك إذ كذبوك إلاّ النفخة الأولى المميتة {تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ}، أي يتخاصمون في السوق. قرأه حمزة بسكون الخاء وكسر الصاد، والمعنى: يخصم بعضهم بعضاً. والباقون بحركة الخاء وتشديد الصاد وأصله «يختصمون» فأدغمت التاء في الصاد بعد قلبها صاداً. فنافع وابن كثير وهشام نقلوا فتحة الصاد إلى الساكن قبلها نقلاً كاملاً، وأبو عمرو، وقالون اختلسا حركتها تنبيهاً على أن الخطأ أصلها. والباقون حذفوا حركتها فالتقى ساكنان، لذلك فكسروا أولهما، لأن الساكن إذا حرك حرك بالكسر {فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً} في شيء من أمورهم إن كانوا فيما بين أهليهم، {وَلاَ إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ} إن كانوا خارج أبوابهم بل تبغتهم الصيحة فيموتوا حيثما كانوا، وقد صح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومن الساعة، وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها». {وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ} أي وينفخ في القرن النفخة الثانية بينها وبين الأولى أربعون سنة، {فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ} أي إلى مالك أمرهم {يَنسِلُونَ} أي مخرجون بسرعة بطريق الإجبار دون الاختيار.

{قَالُواْ} أي الكفار بعد ما خرجوا من القبور: {يٰوَيْلَنَا} أي يا هلاكنا، احضر فهذا أوانك {مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا}. وقرىء «من أهبنا». وقرأ ابن عباس والضحاك وغيرهما من بعثنا على أنها جار ومجرور متعلق ب«ويل». وقرىء «من هبنا» ب«من» الجارة والمصدر {هَذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمٰنُ} أي هذا البعث ما وعدنا به الرحمٰن، {وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ} أي صدقونا فيه. وقيل: الوقف على هذا بجعله بدلاً من مرقدنا، وجعل ما وعد الرحمٰن خبر المبتدأ محذوف أي هو ما وعدنا الرحمٰن به في الدنيا من البعث، وعلى ذلك التفسير فهذا إلخ من كلام الكافرين حيث يتذكرون ما

سمعوه من الرسل عليهم السلام فيجيبون به أنفسهم، أو يجيب بعضهم بعضاً وقيل: قالت لهم الحفظة تذكيراً لكفرهم: هذا ما وعد الرحمٰن على ألسنة الرسل في الدنيا وصدق المرسلون فيما أخبروكم به البعث بعد الموت، {إِن كَانَتْ} أي ما كانت نفخة البعث {إِلاَّ صَيْحَةً وٰحِدَةً} حصلت من نفخ إسرافيل في الصور، {فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا} أي مجموع عندنا {مُحْضَرُونَ} للحساب، {فَ ٱلْيَوْمَ} وهو يوم القيامة {لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً} أي لا ينقص من حسنات أحد ولا يزاد على سيئات أحد، وَلاَ تُجْزَوْنَ} في الآخرة {إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} أي إلاّ بسبب ما كنتم تعملونه في الدنيا، {إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ} أي أهل الجنة {ٱلْيَوْمَ} وهو يوم القيامة، {فِى شُغُلٍ} أي شأن يشغلهم عما سواه، {فَٰكِهُونَ} أي متلذذون في النعمة، كالتزاور وضيافة الله وافتضاض الأبكار، وضرب الأوتار وسماعه {هُمْ وَأَزْوٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ} يجدون فيها برد الأكباد وغاية المراد {عَلَى ٱلأَرَآئِكِ} أي السرر والمزينة بالثياب والستور التي هي داخل الحجال، {مُتَّكِئُونَ} أي جالسون مع التمكن، أو الميل على شق وفي هذا إشارة إلى الفراغ {لَهُمْ فِيهَا} أي الجنة {فٰكِهَةٌ} كثيرة من كل نوع من أنواع الفواكه، {وَلَهُمْ} فيها {مَّا يَدَّعُونَ} أي يشتهون. وقال الزجاج: أي ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم. وعلى هذا فيكون الافتعال بمعنى الفعل، ويعضده القراءة بسكون الدال {سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ} أي سلام عليهم أخص قولاً من رب رحيم، وعلى هذا فيكون حكاية لما سيقال لهم من جهته تعالى يومئذٍ كما في قوله تعالى: {وَسَلٰمٌ عَلَىٰ ٱلْمُرْسَلِينَ} فيكون الله تعالى أحسن من عباده المؤمنين كما أحسن إلى عباده المرسلين عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بينما أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب عز وجل قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم». {وَ ٱمْتَازُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ} أي ويقال للمشركين: انفردوا اليوم أيها المجرمون عن المؤمنين حين يسار بهم إلى الجنة إذ لا دواء لألمكم ولا شفاء لسقمكم. {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ} أي ألم أوص إليكم {يٰبَنِىءَادَمَ} على لسان رسلي {أَن لاَّ تَعْبُدُواْ ٱلشَّيطَٰنَ} أي لا تطيعوه، {إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} أي ظاهر العداوة، فإذا جاءك شخص يأمرك بشيء فانظر إما أن يكون ذلك موافقاً لأمر الله أولاً، فإن لم يكن موافقاً له فذلك الشخص معه الشيطان يأمرك

بما يأمرك به، فإن أطعته فقد عبدت الشيطان، وإن دعتك نفسك إلى فعل، فانظر أهو مأذون فيه من جهة الشرع أولاً، فإن لم يكن مأذوناً فيه فنفسك هي الشيطان أو معها الشيطان يدعوك فإن اتبعته فقد عبدته، ثم إن الشيطان يأمر أولاً بمخالفة الله ظاهراً فمن أطاعه فقد عبده، ومن لم يطعه فيقول له: اعبد الله كي لا تهان وليرتفع شأنك عند الناس وينتفع بك إخوانك، فإن أجاب إليه فقد عبده، {وَأَنِ ٱعْبُدُونِى}، أي أطيعوني موحدين بي {هَٰذَا} أي التوحيد {صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ} أي طريق قريب آمن فاسلكوه وفي ضمن قوله تعالى: {هَذَا صِرٰطٌ} إشارة إلى أم الإنسان مار في الدنيا لا مقيم فيها.

{وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً} أي وبالله لقد أضل الشيطان منكم يا بني آدم خلقاً كثيراً قبلكم عن ذلك الصراط المستقيم الذي أمرتكم بالثبات عليه، فأصابهم لأجل ذلك ما أصابهم من العقوبات الهائلة. {أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ}، أي أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم فلم تكونوا تعقلون أنها لضلالهم، أو أفلم تكونوا تعلمون ما صنع الشيطان بهم. وقرأ نافع وعاصم «جبلاً» بكسر الجيم والباء وتشديد اللام، وأبو عمرو وابن عامر بضم الجيم وسكون الموحدة. والباقون بضمهما واللام مخففة {هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ} أي كنتم توعدون بها في الدنيا على ألسنة الرسل عليهم السلام بمقابلة عبادة الشيطان، وبهذا يخاطب الكفار بعد تمام التوبيخ عند أشرافهم على شفير جهنم، { ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} أي ادخلوا جهنم من فوق، وقاسوا فنون عذابها اليوم بكفركم المستمر في الدنيا {ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} أي يعلمون من الشر، ورأى أنهم حين يسمعون قوله تعالى: {بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} ينكرون كفركم فيشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائرهم، فيحلفون ما كانوا مشركين، فيختم الله على أفواههم وينطق الله غير لسانهم من الجوارح، فيقرون بذنوبهم ولا يقدرون على الإنكار فكل عضو ينطق بما صدر منه فشهادتهم هو إقرارهم، وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ}، أي ولو نشاء أن نطمس على أعينهم لمسحنا أعينهم حتى تصير ممسوحة بحيث لا يبدو لها جفن ولا شق، {فَ ٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ}، أي فلو أرادوا سلوك الطريق الواضح المألوف لهم لا يقدرون عليه. والمراد أن قدرتنا إزالة نعمة البصر عنهم فيصيروا عمياً لا يقدرون على التردد في الطريق لمصالحهم ولكن أبقينا عليهم نعمة البصر فضلاً وكرماً، فحقهم أن يشكروا عليها ولا يكفروا فهذا توبيخ، لهم كمال توبيخ

{وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَٰنَتِهِمْ}. وقرأ شعبة «مكاناتهم» على الجمع، {فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيّاً وَلاَ يَرْجِعُونَ}، أي ولو نشاء لحولنا صورهم وأبطلنا قواهم في منازلهم فلا يقدرون أن يبرحوا مكانهم بإقبال ولا إدبار ولا يرجعون إلى الحال الأول. وعن ابن عباس: أي حولناهم قردة وخنازير. وقيل: أي حولناهم حجارة وعن قتادة لأقعدناهم على أرجلهم وأزمناهم، {وَمَن نّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ} أي ومن نطل عمره إطالة كثيرة نقلبه في خلق جسده وقواه الباطنية، فكل منهما ينقلب حاله فيرجع من القوة إلى الضعف حتى صار كأنه طفل. وقرأ عاصم وحمزة بضم النون الأولى، وفتح الثانية وكسر الكاف مشددة، والباقون بفتح الأولى وتسكين الثانية وضم الكاف {أَفَلاَ يَعْقِلُونَ} أي أيرون ذلك فلا يعقلون أن من قدر على ذلك يقدر على الطمس والمسخ، وإن عدم إيقاعهما لعدم تعلق مشيئته تعالى بهما. وقرأ نافع وابن ذكوان «تعلقون» بالخطاب {وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ}، أي وما علمنا محمداً الشعر وليس القرآن بشعر، وهذا رد لما كانوا يقولون في حقه صلى الله عليه وسلم من أن محمداً شاعر وما يقوله شعر، {وَمَا يَنبَغِى لَهُ} أي وما كان الشعر يليق به صلى الله عليه وسلم، ولا يصلح له، وذلك لأن الشعر يدعو إلى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن، فالشارع يكون اللفظ منه تبعاً للمعنى، والشاعر يكون المعنى منه تبعاً للفظ، لأنه يقصد لفظاً يصح به وزن الشعر أو قافيته، فيحتاج إلى التحيل لمعنى يأتي به لأجل ذلك اللفظ، ولو صدر من النبي صلى الله عليه وسلم كلام كثير موزون مقفى لا يكون شعراً لعدم قصده اللفظ، وإنما قصد المعنى فجاء على تلك الألفاظ، {إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ} أي ما القرآن إلا عظة من الله تعالى للثقلين، {وَقُرْءَانٌ} أي كتاب جامع للأحكام كلها {مُّبِينٌ} أي ظاهر أنه ليس من كلام البشر.

{لِّيُنذِرَ}، أي محمد كما يدل له قراءة نافع وابن عامر بالتاء على الخطاب أو القرآن، {مَن كَانَ حَيّاً} أي عاقلاً منهما أو مؤمناً في علم الله تعالى وتخصيص الإنذار به لأنه المنتفع به {وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ}، أي ولتثبت كلمة العذاب على المصرين على الكفر، أو وليثبت المقول في الوحدانية والرسالة والحشر وسائر المسائل الدينية على كفار مكة فإن في القرآن ذكر الدلائل التي ثبتت بها المطالب. {أَوَلَمْ يَرَوْاْ} أي ألم يتفكروا، ولم يعلموه علماً يقيناً {أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم} أي لأجل انتفاعهم {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ} أي ما عملناه بقدرتنا وإرادتنا {أَنْعٰماً} هي الإبل والبقر والغنم، وهو مفعول خلقنا {لَهَا مَٰلِكُونَ} بتمليكنا إياهم لها بحيث يتصرفون

فيها بوجوه التصرفات {وَذَلَّلْنٰهَا لَهُمْ} أي صيرناها منقادة لهم بحيث لا تستعصي عليهم في شيء مما يريدون بها {فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ} أي فبعض منها مركوبهم، {وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ}، أي وبعض منها يأكلون لحمه{وَلَهُمْ} غير المركوب والأكل كالجلود، والأصواف، والأوبار، والنسل، والحرث عليها والحمل، {فِيهَا} من ألبانها {مَنٰفِعُ وَمَشَٰرِبُ} ؟ أي أيشاهدون هذه النعم فلا يشكرون المنعم بها فيعبدونه. {وَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ} أي وعبد كفار مكة من غير الله أصناماً راجين أن ينصروهم من عذاب الله تعالى {لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ}، أي لا تقدر آلهتهم على نصرهم {وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ} أي والمشركون لآلهتهم بمنزلة الجند، فهم قائمون بين أيديهم كالعبيد ويخدمونها، ويغضبون لها في الدنيا، أو المعنى وآلهتهم وهي الأصنام، جند للعابدين محضرون معهم في النار، فلا يدفع بعضهم عن بعض، ويقال: والمشركون جند لآلهتهم يشيعونها عند مساقها إلى النار. {فَلاَ يَحْزُنكَ} يا أشرف الخلق {قَوْلُهُمْ}، أي تكذيبهم إياك. وقرىء «يحزنك» بضم الياء وكسر الزاي وهو لغة بني تميم. أما القراءة المشهورة التي هي بفتح الياء وضم الزاي فهي لغة قريش. {إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ} من النفاق أو من المكر بك أو من العقائد الفاسدة، {وَمَا يُعْلِنُونَ} من الشرك أو من الكفر بك، أو من الأفعال القبيحة أي إنا نجازيهم بجميع جناياتهم الخافية والبادية {أَوَلَمْ يَرَ ٱلإِنسَٰنُ} أي ألم يتفكر الإنسان ولم يعلم علماً يقيناً {أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ} قذرة خسيسة {فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ} أي ناطق بالباطل {مُّبِينٌ} أي مبين النطق في نفي البعث {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً} أي أورد الإنسان في شأننا أمراً عجيباً وهو إنكاره قدرتنا على إحياء الموتى مع شهادة العقل والنقل في ذلك، {وَنَسِىَ خَلْقَهُ} أي وترك الإنسان ذكر بدء خلقه من المنى، {قَالَ مَن يُحىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ} أي بالية أشد البلاء بعيدة عن الحياة غاية البعد، ونزلت هذه الآيات في العاصي بن وائل؛ كما نقل عن مجاهد أو في أبي بن خلف؛ كما قاله عكرمة والسدي، أو في عبد الله بن أبي كما نقل عن ابن عباس أو أمية بن خلف؛ كما حكاه ابن عساكر. وروي أن جماعة من كفار قريش تكلموا فقال لهم أبي بن خلف: ألا ترون إلى ما يقول محمد أن الله يبعث الأموات ثم قال: واللات والعزى لأذهبن إليه ولأخصمنه، فأخذ عظماً بالياً، فجعل يفتته بيده، وأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: إنك يا محمد تقول: إن إلهك يحيي هذه العظام فقال صلى الله عليه وسلم: «نعم ويبعثك ويدخلك جهنم». {قُلْ} له يا أكرم الرسل:

{يُحْيِيهَا ٱلَّذِىۤ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ} أي يحيي العظام من خلقها من العدم أول مرة من النطفة، فكما خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً كذلك يعيده، وإن لم يبق شيئاً مذكوراً {وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} أي فيعلم الله أجزاء الأشخاص المفتتنة في المشارق والمغارب والتي بعضها في أبدان السباع، وبعضها في جدران الرباع سواء كانت أجزاء أصلية، أو فضلية، للآكل، أو للمأكول فيعيد الله كلاً من ذلك النمط السابق مع القوى التي كانت قبل ويجمعه وينفخ روحه،

{ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلأَخْضَرِ نَاراً} والموصول بدل من الموصول الأول، أي الذي خلق لأجل منفعتكم ناراً من المرخ والعفار، فالمرخ شجر سريع القدح، والعفار بفتح العين شجر تقدح منه النار فمن أراد النار قطع منهما غصنين مثل السواكين، وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ على العفار، فتخرج منهما النار بإذن الله تعالى؛ وهذا قول ابن عباس. وقال الحكماء: في كل شجر نار إلا العناب {فَإِذَآ أَنتُم} يا أهل مكة {مِّنْه} أي من الشجر الأخضر {تُوقِدُونَ} فمن قدر على أحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من المائية المضادة، لها كان أقدر على إعادة الأجساد بعد فنائها. {أَوَلَيْسَ ٱلَذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم} أي أليس الذي أنشأ العظام أول مرة، وليس الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً وليس الذي خلق السمٰوات والأرض مع كبر جرمهما وعظم شأنهما يقدر على أن يخلق مثل الأناسي في الصغر، ثم أجاب الله نفسه بقوله: {بَلَىٰ} هو قادر على ذلك {وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ}، أي وهو كامل القدرة وشامل العلم {إِنَّمَآ أَمْرُهُ} أي شأنه {إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً} من الأشياء {أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}، أي أن يعلق بذلك الشيء قدرته تعالى {فَيَكُونُ}، أي فيحدث من غير توقف على شيء آخر أصلاً. وقرأ ابن عامر والكسائي بالنصب عطفاً على «يقول». {فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ} أي تنزه عن الشريك والعجز من في قبضته مملكة كل شيء وخزائنه، وَإِلَيْهِ} لا إلى غيره {تُرْجَعُونَ} بعد الموت فيجزيكم بأعمالكم وقرأ زيد بن علي بالبناء للفاعل.

سورة الصافات

مكية، مائة واثنان وثمانون آية، وثمانمائة وستون كلمة، وثلاثة الآف وثمانمائة وتسعة وعشرون حرفاً

{بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـنِ الرَّحِيـمِ. وَٱلصَّـفَّتِ} أي والملائكـة الناظمـات لأنفسـها فـي سـلك الصـفوف بقيامهـا فـي مقاماتهـا المعلومـة، أو الصـافات أقـدامها فـي السـماء لأداء العبـادات، أو الباسطات أجنحتها في الهواء واقفة حـتى يأمرهـا اللـه تعـالى بمـا يريد {صَفًّا} بديعاً، {فَٱلزَّٰجِرَٰتِ} أي الملائكة التي تزجر السـحاب، أي يأتون بها من موضـع، إلـى موضـع أو الزاجـرات لبنـي آدم عـن المعاصي بالإلهامات، أو الزاجرات للشـياطين عـن التعـرض لبنـي آدم بالشر والإيذاء، وعن استراق السمع {زَجْراً} بليغاً. {فَـٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْراً} أي الملائكـة التاليـات الكتـب المنزلـة علـى الأنبيـاء عليهـم السلام وغيرها من التسبيح والتقـديس، والتحميـد، والتمجيـد. {إِنَّ إِلَٰهَكُمْ} يا أهل مكة {لَوَاحِدٌ} بلا شريك، إذ لو لم يكن واحداً لاختل هذا الاصطفاف والزجر والتلاوة، فكان غير حكيم. {رَّبُّ ٱلسَّـمَٰوَٰتِ وَٱلاٌّرْضِ} أي مالكهمـا {وَمَـا بَيْنَهُمَـا} مـن الموجـودات، {وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ} أي مشـارق الشـمس فإنهـا ثلثمائـة وسـتون مشـرقاً تشرق الشمس كل يوم من مشرق منها وبحسبها تختلف المغارب وتغرب كـل يـوم فـي مغـرب منهـا {إِنَّـا زَيَّنَّـا ٱلسَّـمَآءَ ٱلـدُّنْيَا} أي القربى من أهل الأرض {بِزِينَةٍ ٱلْكَوَٰكِبِ}.

قرأ أبو بكر عن عاصم بتنوين «زينة»، ونصب «الكواكب»، أي بتزييننا الكـواكب فـي كونهـا مضـيئة حسـنة فـي أنفسـها، وحمـزة وحفـص كـذلك إلاّ أنهمـا خفضـا «الكـواكب» بـدل مـن «زينـة». والبـاقون بإضـافة «زينـة» إلـى «الكـواكب»، أي بـتزيين ضـوء الكواكب السماء.

وقـرأ ابـن عبـاس وابـن مسـعود بتنـوين «زينـة»، ورفـع «الكواكب»، أي بزينة في الكواكب أو بتزيين الكواكب فالأول فـي قوة البدل والثاني فـي قـوة المضـاف للفاعـل {وَحِفْظاً} عطـف علـى زينـة باعتبـار المعنـى، أي إنـا خلقنـا الكـواكب زينـة للسـماء وحفظاً {مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ} أي عـال علـى اللـه عـن طـاعته برمـي الشـهب، {لاَّ يَسَّـمَّعُونَ إِلَـىٰ ٱلْمَلإِ ٱلاٌّعْلَـىٰ} قـرأ حمـزة والكسائي وحفـص عـن عاصـم بفتـح السـين وتشـديدها، وتشـديد الميم أي كيلا يتطلب الشياطين السماع إلى كلام أشرف الملائكة. والباقون بسكون السين، {وَيُقْذَفُونَ} أي يرمـون بالشـهب {مِـن كُلِّ جَانِبٍ} أي من جميع جوانب السماء إذا قصـدوا الصـعود إليهـا {دُحُوراً} أي للطرد {وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ} أي دائـم بالشـهب فـي الـدنيا إلـى النفخـة الأولـى وبالنـار فـي الآخـرة، {إِلاَّ مَـنْ خَطِـفَ ٱلْخَطْفَـةَ}، و «مـن» فـي محـل رفـع بـدل مـن الـواو فـي «لا يسـمعون» أي لا يسـمع الشـياطين إلاّ الشـيطان الـذي اختلـس

الكلمة من كلام الملائكة على وجه المسارقة {فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}، أي لحقه شهاب مضيء يحرقه، أو يخبله أو يقتله.

{فَ ٱسْتَفْتِهِمْ}، أي سل يا أشرف الخلق هؤلاء المنكرين للبعث من مشركي مكة، {أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً} أي أصعب خلقاً وأشق إيجاداً، {أَم مَّنْ خَلَقْنَآ} أي أم التي خلقناها من هذه الأشياء أصعب وهي السمٰوات والأرض، وما بينهما والمشارق والمغارب، والشياطين الذي يصعدون الفلك والملائكة، والكواكب والشهب الثواقب، {إِنَّا خَلَقْنَٰهُم} أي كل إنسان {مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ} أي لاصق لشدة اختلاط بعضه ببعض، فإن الحيوان إنما يتولد من المني وهو يتولد من الغذاء، ثم النبات إنما يتولد من امتزاج الأرض بالماء وهو الطين اللازب {بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ}، أي بل عجبت يا أشرف الرسل من تكذيبهم إياك وهم يسخرون من تعجبك ومن تقريرك للبعث، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يظن أن كل من سمع القرآن يؤمن به، فلما سمع المشركون القرآن سخروا منه ولم يؤمنوا به عجب من ذلك النبي.

وقرأ حمزة والكسائي «عجبت» بضم التاء وهو قراءة ابن عباس، وابن مسعود، وإبراهيم، ويحيى بن وثاب، والأعمش. والمعنى: عجبت من أن ينكروا البعث ممن هذه أفاعيله وممن كثرت مخلوقاته وكملت قدرته، ويسخروا ممن يجوز البعث. وقال بعض الائمة: معنى قوله: {بَلْ عَجِبْتَ} بالضم بل جازيتهم على عجبهم، أي إن هؤلاء المنكرين أقروا بأن الله تعالى قادر على تكوين أشياء أصعب من إعادة الحياة إلى هذه الأجساد، وقد تقرر في صرائح العقول أن القادر على الأشق الأشد يكون قادراً على الأسهل الأيسر، ومع قيام هذه الحجة البديهية بقي هؤلاء القوم مصرِّين على إنكار البعث والقيامة، وهذا في موضع التعجب الشديد، {وَإِذَا ذُكِّرُواْ} أي إذا وعظوا بشيء من المواعظ {لاَ يَذْكُرُونَ} أي لا يتعظون، ولا ينتفعون بذكر دلائل صحة البعث لغاية بلادتهم وقصور فكرهم، {وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً} أي معجزة تدل على صدق القائل بالبعث كانشقاق القمر {يَسْتَسْخِرُونَ} يبالغون في السخرية. {وَقَالُوۤاْ إِن هَٰذَآ} أي ما هذا الذي يرونه {إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ} أي ظاهر سحريته أي إن الرسول أثبت جهة رسالته بالمعجزات، ثم قال لما ثبت بهذه المعجزة: كوني رسولاً من عند الله صادقاً فأنا أخبركم بأن البعث والقيامة حق، ثم إن هؤلاء المنكرين لا ينتفعون بهذا الطريق أيضاً لأنهم إذا رأوا معجزة باهرة حملوها على كونها سحراً واستهزأوا منها. {أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَٰماً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلأَوَّلُونَ}.

وقرأ قالون وابن عامر بسكون الواو على أنها معطوفة على الضمير في «مبعوثون». والباقون بفتحها على أنها همزة الاستفهام دخلت على واو العطف، فالمعنى أوَ تبعث آباؤنا ويقال أوآباؤنا الأولون مبعوثون أيضاً، أي أن القوم كانوا يستبعدون الحشر والقيامة ويقولون: من مات وصار تراباً وتفرقت أجزاؤه في العالم كيف يعقل عوده بعينه، وبلغوا هذا الاستبعاد إلى حيث كانوا يستسخرون ممن سلك هذا المذهب الحق. {قُلْ} لهم تبكيتاً: {نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ} أي نعم تبعثون أنتم وآباؤكم الأولون حال كونهم وهم ذليلين حقيرين، {فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ} أي لا تستبعدوا البعث، لأنه إنما هي صيحة واحدة {فَإِذَا هُمْ} أي الخلائق قائمون من مراقدهم أحياء {يَنظُرُونَ} أي يبصرون كما كانوا، وينتظرون ما يفعل بهم {وَقَالُواْ} أي الكفار إذا قاموا من القبور: {يَٰوَيْلَنَا} أي يا هلاكنا احضر، فهذا أوان حضورك. {هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ} أي هذا اليوم الذي نجازي فيه بأعمالنا {هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ} أي يوم القضاء بينكم وبين المؤمنين { ٱلَّذِى كُنتُمْ} في الدنيا {بِهِ} أي بهذا اليوم {تُكَذِّبُونَ}. والوقف على «ويلنا» تام إن جعل هذا يوم الدين من كلام الملائكة جواباً لهم، فالمعنى: هذا يوم جزاء الأعمام وإن جعل من كلام الكفار، لأنهم كانوا يسمعون في الدنيا أنهم يبعثون ويجزون بأعمالهم، فالوقف التام على يوم الدين لأن هذا يوم الفصل إلى آخره من كلام الملائكة جواباً لهم بطريق التوبيخ. وقيل: هو من كلام بعضهم لبعض فيقول الله للملائكة: { ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ} أي رؤساء الكفار من مقامهم إلى الموقف {وَأَزْوَٰجَهُمْ} أي أحزابهم ونظراءهم من الكفرة. وقيل: قرناؤهم من الشياطين. وقيل: نساؤهم اللاتي على دينهم. {وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ} أي من غيره من الأصنام ونحوها، {فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ} أي سوقوهم إلى طريق جهنم.

{وَقِفُوهُمْ} أي احبسوهم في الموقف أو على النار، {إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ} عن عقائدهم وأعمالهم. وقيل: المراد سألتهم خزنة النار بنحو قولهم: ألم يأتكم رسل منكم بالبينات. قالوا: بلى.

وقرىء بفتح الهمزة على حذف لام العلة، أي قفوهم لأجل سؤال الله إياهم وتقول لهم خزنة جهنم: {مَا لَكُمْ لاَ تَنَٰصَرُونَ} أي أيّ شيء لكم لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم في الدنيا كما قاله ابن عباس وذلك لأن أبا جهل قال يوم بدر: نحن جميع منتصر. فيقال لهم يوم القيامة: ما لكم غير متناصرين كما كنتم تزعمون في الدنيا، {بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ} أي منقادون خاضعون لظهور عجزهم وانسداد باب الحيل عليهم في دفع تلك المضار،

{وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ} أي يتخاصمون. يقول الأتباع: غررتمونا، ويقول الرؤساء: لم قبلتم منا. {قَالُوٓاْ} أي الاتباع للرؤساء {إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا} في الدنيا {عَنِ ٱلْيَمِينِ} أي عن القوة والقهر وتقصدوننا عن الغلبة حتى تحملونا على الضلال، أو عن الحلف فإن أئمة الكفار كانوا قد حلفوا لهؤلاء المستضعفين أن ما يدعونهم إليه هو الحق فوثقوا بأيمانهم. {قَالُواْ} أي الرؤساء للأتباع: {بَلْ لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ} أي لم نمنعكم من الإيمان بل لم تؤمنوا باختياركم، {وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَٰنٍ} أي من قهر. والمعنى: فلا قدرة لنا عليكم حتى نقهركم على متابعتنا {بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَٰغِينَ} أي غالين في معصية الله تعالى {فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ} أي فثبت وعيد ربنا إنا لذائقوا العذاب. والمعنى: إن الله تعالى لما أخبر عن وقوعنا في العذاب فلو لم يحصل وقوعنا في العذاب لما كان خبر الله حقاً، ولما كان خبر الله أمراً ثابتاً كان الوقوع في العذاب الأليم لازماً، ولما حق علينا وعيد ربنا وجب أن نكون ذائقين لهذا العذاب، {فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ} أي إنا إنما أقدمنا على إغوائكم لأنا كنا موصوفين في أنفسنا بالغواية فلا لوم علينا، {فَإِنَّهُمْ} أي الأتباع والمتبوعين {يَوْمَئِذٍ} أي يوم القيامة {فِى ٱلْعَذَابِ} أي في وقوعهم في العذاب {مُشْتَرِكُونَ} كما كانوا في الدنيا مشتركين في الغواية، {إِنَّا كَذَٰلِكَ} أي كما نفعل بعبدة الأوثان {نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ}، أي المشركين غير هؤلاء كالنصارى واليهود {إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ}، أي عبدة الأوثان كانوا إذا قيل لهم: قولوا لا إله إلاّ الله، يتعاظمون عن النطق بكلمة التوحيد وعلى من يدعوهم إليها، {وَيَقُولُونَ} في تكذيب النبوة {أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ} أي أئنا لتاركوا عبادة آلهتنا لأجل قول محمد صلى الله عليه وسلم، ثم إن الله تعالى كذبهم في ذلك الكلام فقال {بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ} أي بل جاء محمد بالدين الحق، لأنه ثبت بالعقل أنه تعالى منزه عن الشريك {وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ} أي وصدق محمد المرسلين في مجيئهم بالتوحيد ونفي الشرك، فإن التوحيد دين كل الأنبياء {إِنَّكُمْ} بما فعلتم من الإشراك وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم {لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابَ ٱلأَلِيمِ}. وقرىء بنصب «العذاب» على تقدير النون. وقرىء «لذائقون العذاب» على الأصل.

{وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} أي إلا بما كنتم تعملونه من السيئات، وكأنه قيل: فكيف يليق بالرحيم الكريم المتنزه عن النفع والضر أن يعذب عباده، فأجاب الله عن ذلك بقوله: {وَمَا تُجْزَوْنَ} إلخ. والمعنى: أن الحكم يقتضي الأمر بالحسن والنهي عن القبيح

ولا يكمل المقصود منهما إلاّ بالترغيب في الثواب، وبالترهيب بالعقاب، وإذا وقع الإخبار عن ذلك وجب تحقيقه صوناً للكلام عن الكذب، فلهذا السبب وقعوا في العذاب {إِلاَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ}.

وقرأ نافع والكوفيون بفتح اللام، أي المعصومين من الكفر. والباقون بالكسر أي المخلصين للطاعة. وهذا استثناء منقطع من ضمير «ذائقو». فالمعنى إنكم لذائقوا العذاب الأليم لكن عباد الله الموحدين المخلصين بالعبادة ليسوا كذلك، ثم قال أبو السعود: ولا وجه لجعله استثناء من ضمير «تجزون» على معنى أن الكفرة لا يجزون إلا بقدر أعمالهم دون عباد الله المخلصين فإنهم يجزون أضعافاً مضاعفة اه. {أُوْلَئِكَ} أي المخلصون {لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ}، أي معروف الصفة لكونه مخصوصاً بخصائص خلقها الله فيه من طيب طعم ورائحة، ولذة طعم، وحسن منظر. وقيل: معنى المعلوم إنهم يتيقنون دوام الرزق لا كرزق الدنيا الذي لا يعلم متى يحصل، ومتى ينقطع. وقيل: معناه أن الرزق على قدر يستحقونه بأعمالهم من ثواب الله وكرامته عليهم، {فَوَٰكِهُ} وهو ما يؤكل لمجرد التلذذ دون الاقتيات، لأنهم مستغنون عن القوت، وهو بدل كل من رزق فالفواكه مساوية للرزق فتشمل الخبز واللحم، لأنهما يؤكلان في الجنة تلذذاً، {وَهُم مُّكْرَمُونَ} عند الله تعالى لا يلحقهم هوان، لأن الأكل الخالي عن التعظيم يليق بالبهائم. {فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ} أي في جنات ليس فيها إلاّ التنعيم، {عَلَىٰ سُرُرٍ} مكللة بالدر والياقوت والزبرجد، {مُّتَقَٰبِلِينَ} أي متواجهين في الزيارة لا يرى بعضهم قفا بعض، وفي بعض الأخبار أنهم إذا أرادوا القرب سار السرير تحتهم {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ} أي بخمر أو بإناء فيه خمر، فالكأس يطلق عليهما {مِّن مَّعِينٍ} أي من نهر جار على وجه الأرض خارج من العيون، {بَيْضَآءَ} مثل اللبن {لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ لاَ فِيهَا غَوْلٌ} أي ليس في شربها صداع في الرأس كما قاله ابن عباس والليث ولا وجع البطن كما قاله قتادة ولا أثم كما قاله الكلبي ، {وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ}.

قرأ حمزة والكسائي بضم الياء وكسر الزاي أي يسكرون. والباقون بفتح الزاي أي يذهب عقولهم وعن سببية أي بسبب الخمر {وَعِندَهُمْ} في الجنة {قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ} أي حور قصرن أبصارهن على أزواجهن لا يمددن طرفاً إلى غيرهم {عِينٌ} أي كبار الأعين حسانها، {كَأَنَّهُنَّ} في الصفاء {بَيْضٌ} للنعام {مَّكْنُونٌ} أي مصون عن القترة، شبههن ببيض النعام المصون من الغبار ونحوه في الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صفرة، فإن

ذلك أحسن ألوان الأبدان {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ}. وهذا معطوف على «يطاف»، أي يشربون ويتحادثون على الشراب فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم، وعن المعارف. {قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ} أي من أهل الجنة في تضاعف محاوراتهم وهو يهوذا: {إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ} أي مصاحب في الدنيا يقال له: نطروس وهما شريكان في بني إسرائيل أحدهما مؤمن وهو يهوذا، والآخر كافر وهو نطروس {يَقُولُ} لي يوبخني على التصديق بالبعث والقيامة: {أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ} بالبعث ويقول تعجباً: {أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَٰماً أَءِنَّا لَمَدِينُونَ}[1] أي لمحاسبون ومجازون. وقرىء «المصدقين» بتشديد الصاد.

وقيل: كان رجل تصدق بماله لوجه الله تعالى فافتقر، فاستجدى بعض إخوانه فقال: أين مالك؟ قال: تصدقت به ليعوضني الله تعالى في الآخرة خيراً منه. فقال: أئنك لمن المصدقين بيوم الدين أو من المتصدقين لطلب الثواب والله لا أعطيك شيئاً، فيكون التعرض لذكر موتهم وكونهم تراباً وعظاماً حينئذٍ لتأكيد إنكار الجزاء المبني على إنكار البعث. {قَالَ} ذلك الرجل الذي هو من أهل الجنة لجلسائه: {هَلْ أَنتُمْ مُّطَّلِعُونَ} إلى أهل النار لأريكم ذلك القرين؟ فذهب إلى بعض أطراف الجنة {فَ طَّلَعَ} عندها إلى النار {فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ} أي فرأى ذلك الرجل قرينه في وسط النار. {قَالَ} له موبخاً: {تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ} أي إنه، أي الشأن قاربت لتهلكني بدعائك إياي إلى إنكار البعث والقيامة.

وقرىء «لتغوين»، أي لتضلني عن الدين، {وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّى} بالإرشاد إلى الحق والعصمة عن الباطل {لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ} في النار مثلك، ثم عاد إلى مخاطبة جلسائه من أهل الجنة فقال: {أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ} أي أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين.

{إِلاَّ مَوْتَتَنَا ٱلأُولَىٰ} التي كانت في الدنيا، {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}. وهذا استفهام تلذذ فهو من سؤال بعضهم لبعض، لأن الذي تتكامل سعادته إذا عظم تعجبه بها قد يقول: أيدوم هذا لي أيبقى هذا لي، وإن كان على يقين من دوامه، ثم عند فراغهم من هذه المباحثات يقولون: {إِنَّ هَٰذَا} أي الذي نحن فيه {لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ}. والوقف هنا تام. وقيل: هو من قول الله تعالى تصديقاً لقولهم. وقرىء «إن هذا» أي الذي ذكر لأهل الجنة لهو الرزق العظيم. قال الله تعالى ترغيباً للمكلفين في عمل الطاعات: {لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ} أي لطلب مثل هذه السعادات المحكية يجب أن يعمل العاملون فليجتهد المجتهدون بالعلم

والعبادة. {أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ} أي أذلك الرزق المعلوم الذي حاصله اللذة والسرور خير حاصلاً أم شجرة الزقوم التي حاصلها الألم والغم، أمر الله ورسوله أن يورد ذلك على كفار قومه ليصير ذلك زاجراً لهم عن الكفر والمعنى أن الرزق المعلوم ضيافة أهل الجنة، وأهل النار ضيافتهم شجرة الزقوم فأيهما خير في كونه ضيافة. وهذا الكلام جيء به على سبيل السخرية بهم، لأنه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر في الخيرية. {إِنَّا جَعَلْنَٰهَا} أي شجرة الزقوم {فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ} أي شبهة في قلوبهم حتى صارت سبباً لتماديهم في الكفر، فإنهم لما سمعوا أن شجرة الزقوم في النار قالوا: كيف يعقل أن تنبت الشجرة في النار مع أنها تحرق الشجر ولم يعلموا أن خالق النار قادر على أن يمنع النار من إحراق الشجر، لأنه إذا جاز أن يكون في النار زبانية والله يمنع النار عن إحراقهم فلم لا يجوز مثل ذلك في هذه الشجرة؟ {إِنَّهَا} أي الزقوم {شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيۤ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ} أي منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها.

وقرىء «نابتة في أصل الجحيم». {طَلْعُهَا} أي ثمرها {كَأَنَّهُ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ} في القبح والهول، وهو تشبيه بالمتخيل كتشبيه الفائق في الحسن بالملك في قوله تعالى حكاية لقول النساء: {إِنْ هَٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ} وذلك أن الناس اعتقدوا في الملائكة كمال الفضل في الصورة والسيرة، واعتقدوا في الشياطين نهاية القبح في الصورة والسيرة، فكما حسن التشبيه بالملك عند إرادة تقرير الكمال، حسن التشبيه برؤوس الشياطين في قبح النظر كأنه قيل: إن أقبح الأشياء في الخيال هو رؤوس الشياطين. وقيل: إن الشياطين حيات هائلة لها رؤوس وأعراف، وهي من أقبح الحيات، والزقوم اسم شجرة صغيرة الورق، دفرة، مرة، كريهة الرائحة تكون في تهامة، {فَإِنَّهُمْ} أي الكفار {لآكِلُونَ مِنْهَا} أي من الزقوم {فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ} لغلبة الجوع أو للقسر على أكلها تكميلاً لعذابهم {ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا} أي الزقوم بعدما شبعوا منها وغلبهم العطش {لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ}، أي لمخلوطاً بماء متناه في الحرارة. والمعنى: إذا غلبهم العطش الشديد سقوا من الماء الحار، فحينئذٍ يخلط الزقوم بماء حميم فيقطع أمعاءهم، نعوذ بالله من ذلك {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى ٱلْجَحِيمِ} فإن الزقوم والحميم ضيافة تقدم إليهم قبل دخولها. وقرىء «إن مصيرهم» أي منقلبهم. {إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ} أي إنهم وجدوهم ضالين في نفس الأمر {فَهُمْ عَلَىٰ ءَاثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ} أي فهم يتبعون آباءهم على دينهم اتباعاً في سرعة من غير تدبر أي إنما

استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد بتقليد الآباء في الدين، وترك اتباع الدليل، {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ} أي قبل قريش {أَكْثَرُ ٱلأَوَّلِينَ} من الأمم السالفة، {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنذِرِينَ} أي أنبياء أولي عدد كثير، وذوي شأن خطير بينوا لهم بطلان ما عليهم، فلم يؤمنوا بهم. وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم في كفر قومه وتكذيبهم له ليكون له أسوة بمن تقدم من الرسل ليصبر كما صبروا. {فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ}. والمقصود من هذا الخطاب خطاب الكفار وإن كان في الظاهر خطاباً مع النبي صلى الله عليه وسلم، لأنهم سمعوا بالأخبار ما جرى على قوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم،

{إِلاَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ} بفتح اللام أي الذين أخلصهم الله تعالى بتوفيقهم للإيمان والعمل وبكسرها، أي الذين أخلصوا دينهم لله تعالى. وهذا استثناء من قوله تعالى: {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنْذَرِينَ} فإنها كانت أقبح العواقب، فإنا أهلكناهم إلاّ عاقبة عباد الله المخلصين، فإنها كانت مقرونة بالخير والراحة لأنا لم نهلكهم، أو استثناء من قوله تعالى: {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلأَوَّلِينَ} وقوله: {إِلاَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ}. أي فإنهم لم يضلوا لأنهم لم يكذبوا رسلهم. {وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ} في أن ننجيه من الغرق أو في إيذاء قومه وقصدهم لقتله {فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ} أي فوالله لنعم المجيبون نحن، {وَنَجَّيْنَٰهُ} أي نوحاً {وَأَهْلَهُ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ} أي الحاصل بسبب الخوف من الغرق، أو الحاصل من أذى قومه {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ ٱلْبَٰقِينَ} إلى يوم القيامة، وكان له ثلاث بنين: سام، وحام، ويافث. فسام: أبو العرب، وفارس، والروم. وحام: أبو الحبش، والبربر، والسند ويافث: أبو الترك والتتار ويأجوج. ومأجوج {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلآخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ} أي وتركنا على نوح في الباقين بعد من الأمم، هذه الكلمة وهي سلام على نوح في العالمين أي يسلمون عليه تسليماً ويدعون له بثبوت هذه التحية في الملائكة والثقلين جميعاً على الدوام، أي أثبت الله التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين، فيسلمون عليه بكليتهم {إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ} أي إنا مثل ذلك الجزاء الكامل نجزي الكاملين في الإحسان {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ}. والمقصود من هذا بيان أن أعظم الدرجات الإيمان بالله والانقياد لطاعته، {ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلآخَرِينَ} وهم كفار قومه أجمعين {وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ} أي ممن تابعه في أصول الدين {لإِبْرَٰهِيمَ} وإن اختلفت فروع شرائعها، وما كان بينهما إلاّ نبيان: هود وصالح عليهم السلام، وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة

وأربعون سنة. {إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}، أي إذ أقبل إبراهيم إلى طاعة ربه بقلب خالص من كل عيب. وقال الأصوليون: المراد أنه عاش ومات على طهارة القلب من كل دنس المعاصي، فيكون سليماً عن الشرك، والغش، والحقد، والحسد.

وعن ابن عباس: أنه كان يحب للناس ما يحب لنفسه وسلم جميع الناس من غشه وظلمه. {إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ} ظرف ل «جاء» أو ل «سليم»، وأما العامل في «إذا» الأولى فهو ما دلّ عليه قوله تعالى: {وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ} من معنى المتابعة. {مَاذَا تَعْبُدُونَ} أي أيّ شيء تعبدونه {أَءِفْكاً ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ} أي أتعبدون آلهة من غير الله لأجل الكذب؟ {فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ} أنه من جنس هذه الأجسام حتى جعلتموها مساوية له في العبودية أو أنه جوَّز جعل هذه الجمادات مشاركة له في العبودية. {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ}، أي في علم النجوم وأراد أن يتخلف عنهم في عيد يخرجون إليه ليبقى خالياً في بيت الأصنام، فيقدر على كسرها ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة، وكان قومه يتعاملون علم النجوم فعاملهم من حيث كانوا يتعاملون به ليتركوه ويعذروه في التخلف عنهم. {فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ} أي سأسقم سقم الموت، لأن من كتب الله عليه الموت يسقم في الغالب، ثم يموت كما قاله الضحاك أو سقيم القلب عليكم لعبادتكم الأصنام، وذلك تورية ليتركوه وقيل: إنه نظر إلى نجم طالع فقال: إن هذا يطلع مع سقمي. وأشار لهم إلى مرض يعدي كالطاعون وكانوا يهربون من الطاعون، {فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ} أي فارين مخافة العدوى وتركوه، وعذروه في أن لا يخرج اليوم ذاهبين إلى عيدهم، فكان ذلك مراده، وكانوا في قرية بين الكوفة والبصرة يقال لها: هرمز {فَرَاغَ إِلَىٰ ءَالِهَتِهِمْ} أي ذهب إلى الأصنام في خفية، {فَقَالَ} استهزاء بها: {أَلاَ تَأْكُلُونَ}؟ أي من الطعام لذي كانوا يصنعونه عندها لتبرك عليه {مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ} بجواب كلامي؟ {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِـ لْيَمِينِ} أي أقبل عليهم مستخفياً ضارباً ضرباً شديداً قوياً،

{ فَأَقْبَلُوۤاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ} أي إنهم لما رجعوا من عيدهم إلى بيت الأصنام وجدوها مكسرة، فسألوا عن المكسر، فظنوا أنه إبراهيم عليه السلام، فأتوا به يسرعون المشي.

وقرأ حمزة «يزفون» بضم الياء، أي يحملون غيرهم على الإسراع في المشي. {قَالَ} لهم إبراهيم، أي بعد أن أتوا به عليه السلام وعاتبوه على كسر الأصنام: {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ} بأيديكم من العيدان والحجارة {وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}؟ أي والحال أن

الله تعالى خلقكم، وخلق معمولكم، فإن فعلهم إذا كان بخلق الله تعالى كان مفعولهم المتوقف على فعلهم أولى بذلك. {قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُ بُنْيَٰناً فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ} أي في النارالشديدة الاتقاد.

قال ابن عباس: بنوا حائطاً من حجر طوله في السماء ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً، وملأوه ناراً، فطرحوا سيدنا إبراهيم فيها {فَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً} أي شراً حرقاً بالنار، {فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلأَسْفَلِينَ} أي الأذلين بإبطال كيدهم بجعل النار عليه برداً وسلاماً، أي أن إبراهيم عليه السلام في وقت المحاجة حصلت الغلبة له وعندما ألقوه في النار صرف الله عنه ضرر النار فصار هو الغالب عليهم. {وَقَالَ} إبراهيم لما انقضت هذه الواقعة: {إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى} أي إلى مواضع دين ربي وهي أرض الشام. فالمراد بالذهاب إلى الرب هو الهجرة من الديار، {سَيَهْدِينِ} إلى ما فيه صلاح ديني، فلما هاجر إلى الأرض المقدسة أراد الولد قفال: {رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ} أي ولداً من المرسلين، فاستجبنا له، {فَبَشَّرْنَٰهُ} على لسان الملائكة {بِغُلَٰمٍ}، أي بولد ذكر {حَلِيمٍ}، أي ذي حلم كثير وهو إسماعيل عليه السلام {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ} أي فوهبنا له فنشأ، فلما بلغ رتبة أن يسعى معه في أشغاله وحوائجه. {قَالَ} إبراهيم لإسماعيل عليهما السلام {يَٰبُنَىَّ إِنِّى أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ} أي إني أرى في المنام ما يوجب أن أذبحك في اليقظة.

روي أن إبراهيم رأى ليلة التروية في منامه كأن قائلاً يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أصبح تروى في ذلك من الصباح إلى الرواح، أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان فمن ثمَّ سمي يوم التروية، فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله، فسمي يوم عرفة، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهمَّ بنحره فسمي يوم النحر. {فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ} بفتح التاء والراء أي أيّ شيء تشير إلي برأيك.

وقرأ حمزة والكسائي بضم التاء وكسر الراء، أي أيّ الذي ترى من نفسك الصبر والتسليم.

وقرىء مبنياً للمفعول أي ما تظن ذلك الرؤيا. {قَالَ} أي ذلك الغلام: {يَٰأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ} أي ما أمرت به، {سَتَجِدُنِىۤ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ} على قضاء الله وعلى الذبح.

{فَلَمَّا أَسْلَمَا} أي انقادا لأمر الله تعالى واتفقا. وقال قتادة: أسلم إبراهيم ابنه وإسماعيل نفسه {وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} أي أضجعه على جنبه، وجواب «لما» محذوف، أي نادته الملائكة من الجبل: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا.

حكي أن إبراهيم لما أراد ذبحه قال: يا بني خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى الشعب نحتطب، فلما توسطا شعب ثبير أخبره بما أمر به فقال: يا أبت اشدد رباطي في كي لا أضطرب، واكفف عني ثيابك كي لا ينضح عليها شيء من دمي فتراه أمي فتحزن، واستحد شفرتك، وأسرع إمرارها على حلقي ليكون أهون علي، فإن الموت شديد، واقرأ على أمي سلامي. وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل فإنه عسى أن يكون أسهل لها. فقال إبراهيم عليه السلام: نِعْمَ العون أنت يا بني على أمر الله، ثم أقبل عليه يقلبه وقد ربطه، وهما يبكيان، ثم وضع السكين على حلقه، فلم تؤثر شيئاً فقال الابن: كبني على وجهي فإنك إذا نظرت وجهي رحمتني وأدركتك رقة تحول بينك وبين أمر الله، ففعل، ثم وضع السكين على قفاه، فانقلبت، فعند ذلك نودي: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا فذلك قوله تعالى: {وَتَلَّهُ أَن يٰإِبْرٰهِيمُ} ف «أن» مفسرة، {قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَآ} أي قد أتيت ما أمرت به في المنام وقد حصل المقصود من تلك الرؤيا {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ} أي كما جزيناهم إبراهيم وابنه بتفريج الكرب، نجزي كل محسن بامتثال الأمر، {إِنَّ هَـٰذَا} أي الذبح {لَهُوَ ٱلْبَلاَءُ ٱلْمُبِينُ} أي لهو الجنة البينة الصعوبة التي لا محنة أصعب منها، {وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ} أي وفدينا إسماعيل بكبش سمين اسمه جرير، وهو الكبش الذي تقرب به هابيل إلى الله تعالى، فقبله، وكان في الجنة يرعى حتى فدى الله تعالى به إسماعيل.

وقال السدي: نودي إبراهيم، فالتفت، فإذا هو بكبش أملح انحط من الجبل، فقام عند إبراهيم، فأخذه. فذبحه، ثم اعتنق ابنه، وقال: يا بني اليوم وهبت لي.

وروي أنه لما ذبحه قال جبريل عليه السلام الله أكبر، الله أكبر فقال الذبيح: لا إله إلاّ الله والله أكبر فقال إبراهيم: الله أكبر ولله الحمد، فبقي ذلك سنة، والفادي في الحقيقة هو إبراهيم، فالله هو المعطي له والآمر به {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلآخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ إِبْرٰهِيمَ}، أي وتركنا على إبراهيم في الباقين من الأمم هذه الكلمة والمعنى: أثبت الله التسليم على إبراهيم وأدامه في الآخرين، فيسلمون عليه أي يدعون له بثبوت هذه التحية {كَذَلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ}، أي مثل ذكره الجميل فيما بين الأمم نجزي المحسنين بالثناء الحسن، {إِنَّهُ} أي إبراهيم، {مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ}، أي الراسخين في الإيمان {وَبَشَّرْنَٰهُ} أي إبراهيم {بِإِسْحَٰقَ نَبِيّاً مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ} أي مقضياً بنبوته، مقدراً كونه من الصالحين فالصلاح غاية للنبوة، {وَبٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَٰقَ} أي

أبقينا الثناء الحسن على إبراهيم وإسحٰاق إلى قيام القيامة وأخرجنا جميع أنبياء بني إسرائيل من صلب إسحٰاق. {وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ} بالإيمان والطاعة، {وَظَٰلِمٌ لِّنَفْسِهِ} بالكفر والمعاصي {مُبِينٌ} أي ظاهر ظلمه. {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ} أي أنعمنا عليهما بمنافع الدنيا، كالحياة، والعقل، والصحة: وبمنافع الدين كالعلم والطاعة، وأعلى هذه الدرجات: النبوة، {وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا} وهم بنو إسرائيل {مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ} من الغرق الذي أغرق الله به فرعون وقومه، ومن إيذاء فرعون، {وَنَصَرْنَٰهُمْ} على فرعون وقومه {فَكَانُواْ} بسبب ذلك {هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ} عليهم بظهور الحجة، ثم بالرفعة، {وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ} أي البليغ في البيان وهو التوراة فإنه كتاب مشتمل على جميع العلوم التي يحتاج إليها في مصالح الدين والدنيا، {وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ}، أي دللناهما على طريق الحق عقلاً وسمعاً، ومددناهما بالتوفيق والعصمة، {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْأَٰخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ}، أي وتركنا عليهما في أمة محمد صلى الله عليه وسلم قولهم: سلام على موسى وهارون، أي دعاءهم لهما بثبوت هذه التحية، {إِنَّا كَذَٰلِكَ} أي مثل الجزاء الكامل {نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ}. وهذا تنبيه على أن الفضيلة الحاصلة بسبب الإيمان أعلى من كل الفضائل، ولولا ذلك لما حسن ختم فضائل المرسلين بكونهم من المؤمنين، {وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ}، وهو إلياس بن ياسين، من ولد هارون أخي موسى عليهم السلام، وهو نبي من أنبياء بني إسرائيل.

قال ابن عباس: وهو ابن عم اليسع عليهما السلام. {إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلاَ تَتَّقُونَ} عذاب الله {أَتَدْعُونَ بَعْلاً}، أي أتعبدون بعلاً وهو اسم صنم لأهل بك قيل: كان من ذهب طوله عشرون ذراعاً، وله أربعة وجوه، وكانوا عظموه حتى جعلوا له أربعمائة سادن، وجعلوهم أنبياء، وكان الشيطان يدخل في جوف بعل، ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وهم أهل بعلبك من بلاد الشام، وببعلبك سميت مدينتهم. {وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ} أي وتتركون عبادة أعظم المصورين.

{ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ}. قرأ حمزة والكسائي، وحفص عن عاصم بالنصب على البدل. والباقون بالرفع على الاستئناف {فَكَذَّبُوهُ} أي إلياس {فَإِنَّهُمْ} بسبب تكذيبهم {لَمُحْضَرُونَ} النار غداً، {إِلاَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ} في التوحيد والعبادة. وهذا استثناء من الواو في فكذبوه، {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى

ٱلاٌّخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ}، أي وتركنا عليه في الآخرين دعاءهم له بثبوت التسليم.

قرأ نافع، وابن عامر، ويعقوب بفتح الهمزة ممدودة، وكسر اللام على إضافة لفظ «آل» إلى لفظ «ياسين». والمراد به إلياس ابن ياسين كأن إلياس آل ياسين. والباقون بكسر الهمزة وسكون اللام، كما يقال: ميكال، وميكائيل، وميكالين، فكذا هٰهنا يقال: إلياس وإلياسين كذا قال الزجاج {إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ} إلى قومه {إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُ} ابنتيه زاعورا وريثا، {أَجْمَعِينَ إِلاَّ عَجُوزاً فِى ٱلْغَٰبِرِينَ} أي إلاّ امرأته المنافقة تخلفت مع المتخلفين بالهلاك، {ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلاٌّخَرِينَ} أي أهلكنا من بقي بعد لوط وابنتيه، {وَإِنَّكُمْ} يا أهل مكة {لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ} أي على قريات قوم لوط، سذوم، وعمورا، وصبورا، ودادوما {مُّصْبِحِينَ وَبِٱلَّيْلِ}، فإن أهل مكة كانوا يسافرون إلى الشام والمسافر في أكثر الأمر إنما يمشي في الليل وفي أول النهار، فلهذا السبب عين الله تعالى هذين الوقتين، {أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} أي أتشاهدون ذلك فليس فيكم عقول تعتبرون به وتخافون أن يصيبكم مثل ما أصابهم {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ} أي هرب من قومه بغير إذن ربه، {إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ} أي إلى السفينة الموقرة، {فَسَٰهَمَ} أي قارع في السفينة، {فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ} أي فصار من المغلوبين بالقرعة {فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ} يقال له: لخم {وَهُوَ مُلِيمٌ} أي مستحق اللوم {فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ} أي كان يقول في بطن الحوت: لا إلٰه إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، أو كان قبل أن التقمه الحوت من المصلين {لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ} أي ذلك الحوت {إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَفَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ} أي أمرنا الحوت بلفظه بالمكان الخالي، عما يغطيه من شجر أو نبت.

قال جعفر: بشاطىء دجلة. وقيل: بأرض اليمن. حكاه ابن كثير.

روي أن الحوت سار مع السفينة رافعاً رأسه يتنفس فيه يونس عليه السلام ويسبح، ولم يفارقهم حتى انتهوا إلى البر، فلفظه سالماً لم يتغير منه شيء، فأسلموا {وَهُوَ سَقِيمٌ} أي مريض صار بدنه كبدن الطفل حين يولد، {وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ} أي من قرع وخص الله القرع، لأنه يجمع برد الظل، ولين الملمس، وكبر الورق، وأن الذباب لا يقربه، فإن جسد يونس حين ألقي على الأرض الواسعة لم يكن يتحمل الذباب.

قال مقاتل بن حبان: كان يونس عليه السلام يستظل بالشجرة، وكانت وعلة تتردد إليه فيشرب من لبنها بكرة وعشياً حتى اشتد لحمه ونبت شعره، {وَأَرْسَلْنَٰهُ} إلى قوم بنينوى، وهي قرية من أرض الموصل {إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}.

قال ابن عباس: إن أو بمعنى الواو، وقد قرىء بالواو.

{فَـَٔامَنُواْ} بعدما شاهدوا علائم حلول العذاب إيماناً خالصاً {فَمَتَّعْنَٰهُمْ} بالحياة الدنيا {إِلَىٰ حِينٍ} أي إلى الوقت الذي جعله الله أجلاً لكل واحد منهم، أي إن أولئك القوم لما آمنوا، أزال الله عنهم الخوف وأمنهم من العذاب، {فَ ٱسْتَفْتِهِمْ} أي سل بعض أجناس العرب ممن قالوا: الملائكة بنات الله كبني مليح، وبني سلمة وجهينة وخزاعة، {أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ} اللاتي هي أوضع الجنسين {وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ}؟ الذين هم أرفعهما، فإن ذلك مما لا يقول به من له أدنى شيء من العقل، {أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰئِكَةَ إِنَٰثاً وَهُمْ شَٰهِدُونَ}؟ أي بل أخلقناهم إناثاً والحال أنهم حاضرون حينئذٍ {أَلاَ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ} أي كذبهم {لَيَقُولُونَ وَلَدَ ٱللَّهُ} فعل وفاعل حيث قالوا: الملائكة بنات الله.

وقرىء «ولد الله»، على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي الملائكة ولد الله {وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ} في مقالتهم ذلك كذباً بيناً. {أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَىٰ ٱلْبَنِينَ} بفتح الهمزة، وهي استفهام إنكار وتقريع، أي اختار الله الإناث على الذكور {مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} بهذا الحكم الجائر، وهو أنهم نسبوا أخس الجنسين إلى الله تعالى وأحسنهما إليهم، فالأول استفهام إنكار عما استقر لهم، والثاني استفهام تعجب من هذا الحكم، {أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ} أي ألا تلاحظون ذلك فلا تتعظون بهٰ {أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ} أي بل ألكم حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بنات الله، {فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ} الذي دل على صحة دعواكم، {إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ} في دعواكم. {وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ} تعالى {وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَباً} أي إن قوماً من الزنادقة يقولون: الله تعالى وإبليس إخوان، فالله تعالى هو الحر الكريم وإبليس هو الشرير اللئيم. ويقولون: إبليس مع الله شريك، فالله خالق الخير، وإبليس خالق الشر وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان وأهرمن {وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} أي ولقد علمت الشياطين أن الله تعالى يحضرهم النار، ويعذبهم بها ولو كانوا شركاء لله في استحقاق العبادة لما عذبهم، ثم نزَّه الله نفسه عما قالوا من الكذب فقال: {سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ} أي عما يقولون من الكذب {إِلاَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ} أي لكن عباد الله المخلصين لله بالاعتقاد والعبادة، فإنهم لا يكذبون على الله، وينزهون الله

تعالى عما يصفه به تعالى الكاذبون، وكل من لم يجعل بين الله وبين الجنة مناسبة فهو عند الله مخلص ممن الشرك، {فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ}، أي فإنكم ومعبوديكم أيها المشركون لستم بفاتنين عليه تعالى بإفساد عباده وإضلالهم، إلا أصحاب النار الذي سبق في علم الله كونهم من أهل النار، فإنهم يصرون على الكفر بسوء اختيارهم. وهذا استثناء مفرغ.

وقرأ العامة «صال الجحيم» بكسر اللام، لأنه منقوص حذفت منه لام كلمته لالتقاء الساكنين. وقرأ الحسن بضم اللام وسقوط الواو لالتقاء الساكنين ومن موحد اللفظ مجموع المعنى، {وَمَا مِنَّآ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ}، أنزل الله تعالى هذه الآية حكاية عن قول الملائكة وهي حكاية لاعتراف الملائكة بالعبودية للرد على عبدتهم، أي وما منا ملك إلا له مكان معلوم في العبادة قاله ابن مسعود وابن جبير وقالت عائشة رضي الله عنها: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما في السماء موضع قدم إلاّ عليه ملك ساجد أو قائم» {وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ} في أداء الطاعة ومنازل الخدمة، {وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ} أي المنزهون لله تعالى عما لا يليق به تعالى {وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ ٱلأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ} أي إن مشركي قريش وغيرهم كانوا يقولون: لو أن عندنا كتاباً من كتب الأولين الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل لأخلصنا العبادة لله، ولما كذبنا كما كذبوا، ثم جاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار والكتاب الشاهد على كل الكتب وهو القرآن، {فَكَفَرُواْ بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} عاقبة هذا الكفر والتكذيب، {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ}، أي وبالله لقد سبق وعدنا لهم وهو {إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ} بالحجة {وَإِنَّ جُندَنَا} وهم أتباع المرسلين.

لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ} على أعدائهم في الدنيا والآخرة، ولا يقدح في ذلك انهزامهم في بعض المشاهد، فإن أساس أمرهم النصرة، وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من المحنة، والحكم للغالب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن لم ينصروا في الدنيا نصروا في الآخرة. وقرىء «على عبادنا» بتضمين «سبقت» معنى حقت. وقرىء «كلماتنا». {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ}، أي أعرض عن كفار مكة إلى مدة يسيرة تؤمر فيها بجهادهم، {وَأَبْصِرْهُمْ} وما يقضي عليهم من القتل والأسر في الدنيا ومن العذاب في الآخرة {فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ} ما يقع عليهم من الأمور، {أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ}.

روي أنه لما نزل {فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ} قالوا على سبيل الاستهزاء: متى هذا الموعود، فنزل: {فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنْذَرِينَ} أي فإذا نزل العذاب بقربهم فبئس صباح المنذرين صباحهم. روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أتى خيبر وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحي قالوا: محمد والخميس، ورجعوا إلى حصنهم فقال صلى الله عليه وسلم: «الله أكبر، خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم {فَسَاءَ صَبَاحُ ٱلْمُنْذَرِينَ}». والصباح: هو وقت نزول العذاب وإن وقع ليلاً .
وقرىء «نزل» بتشديد الزاي وبالبناء للمفعول. {وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ} أي أعرض عنهم إلى يوم بدر أو إلى فتح مكة. {وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ}، أي يبصرونك مع ما قدر لك من النصرة {سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ}. وهذه كلمات محتوية على أقصى الدرجات في معرفة إله العالم، فلفظة سبحان تنزيهه عما لا يليق بصفات الإلٰهية والربوبية دالة على كمال الرحمة، والحكمة والعزة إشارة إلى كمال القدرة وهي دالة على أنه تعالى قادر على جميع الحوادث ومنزه عن الشريك والنظير في الإلٰهية {وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ}. وهذا اللفظ يدل على أنهم في الكمال اللائق بالبشر فاقوا غيرهم، فيجب على كل من سواهم الاقتداء بهم، {وَ ٱلْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ} على نجاة الرسل وسلامة الحال بعد الموت، فالله تعالى غني رحيم، والغني الرحيم لا يعذب.

سورة ص

ويقال لها سورة داود. مكية، ست وثمانون آية، وسبعمائة واثنتان وثلاثون كلمة، وثلاثة آلاف وتسعة وتسعون حرفاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. صٓ} قيل: إنه مفتاح أسماء الله تعالى التي أولها صادٍ كقولنا: صادق الوعد، صانع المصنوعات، صمد. وقيل: معناه صدق محمد في كل ما أخبر به عن الله تعالى، {وَ ٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ} أي ذي الشرف، أو ذي البيان ففيه قصص الأولين والآخرين، {بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} من رؤساء قريش {فِى عِزَّةٍ} أي استكبار وامتناع من متابعة الغير {وَشِقَاقٍ} أي إظهار المخالفة على جهة المساواة للمخالف.
وقرىء «في غرة»، أي في غفلة عما يجب عليه التنبيه له من دواعي الإيمان. {كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم} أي قريش {مِّن قَرْنٍ} أي أمة ماضية، {فَنَادَواْ} بالاستغاثة عند نزول عذاب لينجوا من ذلك،

{وَّلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ} أي والحال أنه ليس الحين حين منجى وغوث، { وَعَجِبُوۤاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ} أي وعجب قريش من أن جاءهم رسول من جنسهم، وأنكروه أشد الإنكار فقالوا: إن محمداً مساو لنا في الخلقة الظاهرة والأخلاق الباطنة والنسب فكيف يعقل أن يختص من بيننا بهذا المنصب العالي؟ {وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ} أي المتوغلون في الكفر: {هَٰذَا} أي محمد {سَٰحِرٌ} فيما يظهره من الخوارق، {كَذَّابٌ} فيما يسنده إلى الله تعالى من الإرسال والإنزال، {أَجَعَلَ ٱلآلِهَةَ إِلَٰهاً وَٰحِداً} بأن نفى الألوهية عنهم وقصرها على واحد، {إِنَّ هَٰذَا} أي القول بالوحدانية {لَشَىْءٌ عُجَابٌ}، أي بليغ في التعجب.

روي أنه لما أسلم عمر فرح به المسلمون فرحاً شديداً، وشق ذلك على قريش فاجتمع خمسة وعشرون نفساً من صناديدهم، ومشوا إلى أبي طالب وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء فجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فاستحضر أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السؤال، فلا تمل كل الميل على قومك. فقال صلى الله عليه وسلم: «ماذا يسألونني؟ قالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلٰهك» فقال صلى الله عليه وسلم: «أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم أتعطوني أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم؟». قالوا نعم. فقال: «قولوا لا إله إلاَّ الله». فقاموا وقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً كيف يكفينا إله واحد في حوائجنا كما يقول محمد إن هذا الشيء عجاب. وقرىء «عجاب» بالتشديد. {وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلأُ مِنْهُمْ} أي انطلق الرؤساء من قريش عتبة بن أبي معيط، وأبو جهل، والعاصي بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث عن مجلس أبي طالب، {أَنِ ٱمْشُواْ}.

وقرأ ابن أبي عبلة بحذف «أن»، أي قال بعضهم لبعض: اذهبوا {وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ} أي اثبتوا على عبادة آلهتكم {إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ} أي إن نفي آلهتنا لشيء يراد من جهة محمد ليستولي علينا فيحكم في أموالنا وأولادنا بما يريد، أو إن الصبر على عبادة الآلهة شيء يراد أن لا ننفك عنه، {مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا} أي التوحيد {فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلآخِرَةِ}، أي في ملة عيسى عليه السلام كما قاله ابن عباس ومحمد بن كعب أو في ملة قريش كما قاله مجاهد أي ما سمعناه عن أسلافنا القول بالتوحيد، {إِنْ هَٰذَا إِلاَّ ٱخْتِلاَقٌ} أي ما هذا الذي يقوله محمد إلا اختلاق من عند نفسه، {أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا} أي أأنزل على محمد القرآن، ونحن

رؤساء الناس وأشرافهم، فكيف يعقل أن يختص هو بهذه الدرجة العالية؟ {بَل هُمْ فَى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ} أي إنكار كفار مكة للقرآن ليس عن علم بل هم في شك منه، وسببه أنهم لم يذوقوا عذابي فإنهم لو ذاقوه لأيقنوا بالقرآن، وآمنوا به وتصديقهم لا ينفعهم حينئذٍ لأنهم صدقوا مضطرين، {أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ}؟ أي بل أعندهم خزائن رحمة ربك من النبوة والكتاب فيعطونهما من شاءوا بمقتضى آرائهم. والمعنى: أن النبوة منصب عظيم عطية من الله تعالى، فالقادر على هبتها يجب أن يكون كامل القدرة عظيم الجود، فلم تتوقف هبته لهذه النعمة على كون الموهوب منه غنياً، أو فقيراً، ولم يختلف ذلك بسبب أن أعداءه يحبونه أو يكرهونه، فهو تعالى الغالب الذي لا يغلب، وهو الوهاب، فله أن يهب كل ما يشاء لمن يشاء، {أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا}؟ أي بل ألهم ملك هذه العوالم العلوية والسفلية حتى يتحكموا في التدابير الإلهية التي ينفرد بها رب العزة، {فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلأَسْبَابِ} أي إن كان لهم ذلك الملك فليصعدوا في طرق السمٰوات التي يتوصل بها إلى العرش حتى يدبروا أمر العالم وينزلوا الوحي على من يختارون، {جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّن ٱلأَحْزَابِ}، و «جند» خبر مبتدأ محذوف و «ما» مزيدة للتحقير، أو صفة لـ ه، و «هنالك» ظرف ل «مهزوم» و «مهزوم»، وصفة ثانية ل «جند»، و «من الأحزاب» صفة ثالثة ل «جند»، أي هم جند ضعيفون من المتحزبين على رسول الله سيصيرون منهزمين في الموضع الذي ذكروا فيه تلك الكلمات، وذلك الموضع هو مكة، وذلك الانهزام يوم فتح مكة فكيف يكونون مالكي السمٰوات والأرض وما بينهما ومن أين لهم التصرف في الأمور الربانية؟ {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ} أي قبل قومك يا أكرم الرسل {قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وفِرْعَوْنُ ذُو ٱلأَوْتَادِ}، كان ينصب الخشب في الهواء، وكان يمد يدي المعذب ورجليه إلى تلك الخشب الأربع، ويضرب على كل واحد من هذه الأعضاء وتداً ويتركه في الهواء إلى أن يموت.

وقال مجاهد: كان يمد المعذب مستقلياً بين أربعة أوتاد في الأرض يشد رجليه ويديه ورأسه على الأرض بالأوتاد. قال السدي: ويرسل عليه العقارب والحيات. وقيل: إن عساكره كانوا كثيرين، وكانوا كثيري الأهبة، عظيمي النعم. وكانوا يكثرون من الأوتاد لأجل الخيام، فعرف بها. {وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لأيْكَةِ} أي الأشجار المجتمعة من قوم شعيب عليه السلام، {أُوْلَئِكَ ٱلأَحْزَابُ} أي الذين تحزبوا على أنبيائهم عليهم السلام، {إِن كُلٌّ

إِلاَّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ} أي ما كل حزب منهم إلاّ كذب الرسل كما كذبك قومك، {فَحَقَّ عِقَابِ} أي فوقع على كل منهم عقابي، فأهلك الله قوم نوح بالغرق والطوفان، وقوم هود بالريح، وفرعون مع قومه بالغرق، وقوم صالح بالصيحة، وقوم لوط بالخسف، وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة. {وَمَا يَنظُرُ هَـٰؤُلآءِ إِلاَّ صَيْحَةً وٰحِدَةً} أي وما ينتظر كفار مكة إن كذبوك إلا نفخة ثانية، {مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ} أي من توقف.

وقرأ حمزة والكسائي بضم الفاء.

{وَقَالُواْ رَبَّنَا} بطريق الاستهزاء عند سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة {عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا} أي حظنا من العذاب الذي توعدنا به، {قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ} ولا تؤخره إلى يوم الحساب الذي مبدؤه النفخة الثانية. وقيل: إنهم قالوا ذلك حين ذكر الله في كتابه فأما من أوتي كتابه بيمينه وأما من أوتي كتابه بشماله. فالمعنى: عجل لنا صحيفة أعمالنا قبل يوم الحساب لننظر ما فيها ولنعلمه. وقيل: لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد الله تعالى المؤمنين بالجنة فقالوا ذلك على سبيل السخرية. فالمعنى: عجل لنا نصيبنا من الجنة التي تقول في الدنيا، وذلك لأنهم كانوا في غاية الإنكار للقول بالنشر والحشر. ولما بلغوا في السفاهة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره الله تعالى بالصبر على سفاهتهم فقال: { ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ} من أمثال هذه المقالات الباطلة؛ والوقف هنا تام. {وَ ٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا ٱلأَيْدِ} أي ذا القوة على أداء الطاعة وعلى الاحتراز عن المعاصي، {إِنَّهُ أَوَّابٌ} أي رجاع في أموره كلها إلى طاعتنا، {إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُ} بطريق الاقتداء به في عبادة الله تعالى، {يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلإِشْرَاقِ} أي يقدسن الله تعالى بخلق الله تعالى فيها الكلام، فكان داود يسبح عقب صلاته عند طلوع الشمس، وعند غروبها، {وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً}، أي وسخرنا الطير محشورة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان داود إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير، فسبحت معه. واجتماعها إليه هو حشرها فيكون حاشرها هو الله.

وقرىء و «الطير محشورة» بالرفع على الابتداء والخبرية. {كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ} أي كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيح داود رجاع إلى التسبيح، أي كلما رجع داود إلى التسبيح جاوبته، وبهذا اللفظ فهمنا دوام تلك الموافقة، {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ} بالهيبة، وكثرة الجنود.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه كان يحرسه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل فإذا أصبح قيل: ارجعوا فقد رضي عنكم نبي الله.

وعن عكرمة عن ابن عباس: أن رجلاً ادعى عند داود على رجل أخذ منه بقرة فأنكر المدعى عليه، فقال داود: للمدعي أقم البينة فلم يقمها. فرأى داود في منامه أن الله يأمره أن يقتل المدعى عليه، فتأخر داود وقال: هو منام، فأتاه الوحي بعد ذلك في اليقظة، فأحضر المدعى عليه وأعلم ه ان الل ه أمره بقتله. فقال: صدق الله إني كنت قتلت أبا هذا الرجل غيلة فقتله داود. فقال الناس: إن أذنب أحد ذنباً أظهره الله عليه، فهابوه، وعظمت هيبته في القلوب، فهذه الواقعة شدت ملكه. {وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ} أي النبوة وكمال العلم وإتقان العمل، {وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ} أي فصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل، {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ} أي خبر خصمي داود، {إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ}، أي إذا أتوا البيت الذي كان داود يدخل فيه ويشتغل بطاعة ربه من أعلاه، أي تصعدوا حائطه المرتفع، {إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ}.

روي أن جماعة من الأعداء طمعوا في أن يقتلوا نبي الله داود عليه السلام، وكان له يوم يخلو فيه بنفسه ويشتغل بطاعة ربه، فانتهزوا الفرصة في ذلك اليوم، وتسوروا المحراب، فلما دخلوا عليه وجدوا عند أقواماً يمنعونه منهم، فخافوا، فوضعوا كذباً فقالوا: خصمان أي نحن فريقان إلى آخر القصة، فعلم عليه السلام غرضهم فهمَّ بأن ينتقم منهم {بَغَىٰ بَعْضُنَا} أي تطاول {عَلَىٰ بَعْضٍ} جئناك لتقضي بيننا، {فَٱحْكُمْ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ} أي بالأمر الذي يطابق الحق {وَلَا تُشْطِطْ} أي لا تجر في الحكومة، {وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ} أي دلنا إلى وسط طريق الحق، {إِنَّ هَٰذَآ أَخِى} في الدين، أو في الصحبة، {لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً} أي أنثى من الضأن، {وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا}، أي اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي، {وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ} أي غلبني في الكلام، بأن جاء بحجاج لم أقدر على رده.

وقرىء و «عازني» أي غالبني.

{قَالَ} داود: {لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ} أي والله لقد ظلمك أخوك بسؤال إضافة نعجتك إلى نعاجه، {وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ} أي الشركاء الذي خلطوا أموالهم {لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ} أي ليعتدي بعضهم {عَلَىٰ بَعْضٍ}، فلم يراع حق الصحبة والشركة {إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ} منهم، فإنهم يتحامون على الظلم

{وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ}، أي وهم قليل، و «ما» مزيدة للتعجب من قلتهم. {وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّـهُ} و «مـا» كافـة زائـدة، أي وظـن داود أنـا فتناه بهذه الواقعة، لأنها جارية مجرى الامتحان فتنبه عليه السـلام لذلك، {فَ سْتَغْفَرَ رَبَّهُ} مما همَّ بـه مـن الانتقـام منهـم. وقيـل: إن دخولهم على داود كان فتنة له إلاّ أنه عليه السـلام اسـتغفر لـذلك الداخل العازم على قتله. وقيل: إن أوريا كـان قـد خطـب المـرأة، فأجابوه، ثم خطبها داود في حال غيبـة أوريـا فـي غزاتـه، فزوجـت نفسها منه عليه السلام لجلالته، وعلى هـذا فمعنـى «وعزنـي فـي الخطاب»، أي غلبني في خطبة المرأة.

وقيل: كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن يطلق امرأته حتى يتزوجها إذا أعجبته، وكان داود عليـه السـلام مـا زاد على قوله لأوريا: انزل لي عن امرأتك، وذلـك أنـه وقـع بصـره على تلك المرأة من غيـر قصـد، فأحبهـا ومـال قلبـه إليهـا، فسـأل زوجها النزول عنها فاستحيا أن يرده عليه السلام، ففعل، فتزوجها، وهي أم سلمان، وكان ذلك جـائزاً فـي شـريعته معتـاداً فيمـا بيـن الناس، غير مخل بالمروءة، وعلى هـذا فمعنـى «أكفلنيهـا»: انـزل لي عن تلك النعجة الواحدة، وأعطينها، فعوتب داود بشيئين:

أحدهما: خطبته على خطبة أخيه المؤمن.

والثاني: إظهار الحرص على التزوج مع كثرة نسائه. وهذا وإن كان جائزاً في الشريعة إلاّ أنـه لا يليـق بجنـابه عليـه السـلام فـإن حسـنات الأبـرار سـيئات المقربيـن. وقيـل: إن ذنـب داود الـذي استغفر منه ليس بسبب أوريا، والمرأة وإنما هو بسبب قوله لأحـد الخصمين لقد ظلمك بسـؤال نعجتـك إلـى نعـاجه، فلمـا كـان هـذا الحكم مخالفاً للصواب اشتغل داود بالاستغفار والتوبة، فثبت بهذه الوجوه نزاهة داود عليه السلام مما نسب إليـه مـن الكبـائر، وإنمـا يلزم في حقه ترك الأفضل والأولى والله أعلم. وكان داود استغفر ربه منه {وَخَرَّ رَاكِعاً}، أي سقط داود للسجود مصلياً فكأنه أحـرم بركعتي استغفار، {وَأَنَابَ} أي أقبل إلى الله تعالى بالتوبة.

وروي أنه عليه الصلاة والسلام بقي ساجداً أربعين يوماً وليلة لا يرفع رأسه إلاّ لصلاة مكتوبة، أو لما لا بد منه، ولا يرقأ دمعـه حـتى نبت العشب منه إلى رأسه، ولا يشـرب مـاء إلاّ ثلثـاه دمـع، وجهـد نفسه راغباً إلى الله تعالى في العفو عنه حتى يكاد يهلك واشـتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له: ايشا على ملكه، ودعـا إلى نفسه فاجتمع إليه أهل الزيغ من بني إسـرائيل، فلمـا غفـر لـه حاربه فهزمه.

قال الحسن: وكان داود عليه السلام قبل الخطيئة يقوم نصف الليل، ويصوم نصف الدهر، فلما كان من خطيئته ما كان صام الدهر كله، وقام الليل كله.

وقال ثابت: كان داود إذا ذكر عقاب الله انخلعت أوصاله فلا يشدها إلاّ الأسار، وإذا ذكر رحمة الله تراجعت. {فَغَفَرْنَا لَهُ ذٰلِكَ} أي ما استغفر منه، {وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ}، أي لقربة في الدرجات بعد المغفرة {وَحُسْنَ مَآبٍ} أي حسن مرجع في الجنة،

{يٰدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلأَرْضِ} أي نبياً ملكاً على بني إسرائيل نافذ الحكم عليهم، {فَٱحْكُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ} أي بالعدل، لأن الأحكام إذا كانت مطابقة للشريعة الحقية الإلهية انتظمت مصالح العالم واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه أما إذا كانت أحكام السلطان القاهر على وفق هواه، ولطلب مصالح دنياه، عظم ضرره على الخلق، فإنه يجعل الرعية فداء لنفسه، وذلك يفضي إلى تخريب العالم، ووقوع الهرج والمرج في الخلق، وذلك يفضي إلى هلاك الملك. {وَلاَ تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ} أي هوى النفس في الحكومات وغيرها من أمور الدين والدنيا، {فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ} أي إن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله، وهو يوجب سوء العذاب، لأن الهوى يدعو إلى الاستغراق في اللذات الجسمانية، وهو يمنع الاشتغال في طلب السعادات الروحانية، {إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ} أي عن الإيمان بالله، وعن طاعة الله {لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ} أي بنسيانهم يوم الحساب، أي بتركهم الإيمان بذلك اليوم وتركهم العمل لذلك اليوم، {وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بٰطِلاً} أي عبثاً جزافاً بلا أمر ولا نهي.

وهذه الآية تدل على كونه تعالى خالقاً للأعمال، لأنها حاصلة بين السماء والأرض، فوجب أن يكون الله تعالى خالقاً لها. وهذه الآية تدل أيضاً على الحشر والنشر والقيامة. وذلك لأنه تعالى خلق الخلق في هذا العالم، فإما أن يقال: إنه تعالى خلقهم لا للانتفاع ولا للإضرار، فهذا باطل، لأن هذه الحالة حاصلة حين كانوا معدومين أو للإضرار، فهذا باطل، لأن ذلك لا يليق بالرحيم الكريم، أو للانتفاع وذلك إما أن يكون في حياة الدنيا أو في حياة الآخرة فإن كان الانتفاع في حياة الدنيا فهو باطل، لأن منافع الدنيا قليلة ومضارها كثيرة وتحمل المضار الكثيرة للمنفعة القليلة، لا يليق بالحكمة، فثبت القول بوجود حياة أخرى بعد الحياة الدنيوية، وذلك هو القول بالحشر والقيامة فثبت بما ذكرنا أنه تعالى ما خلق السماء والأرض، وما بينهما باطلاً وإذا لم يكن خلقهما باطلاً كان

القول بالحشر والنشر، لازماً، وكل من أنكر القول بالحشر والنشر كان شاكاً في حكمة الله تعالى في خلق السماء والأرض، وهذا هو المراد من قوله تعالى: {ذَٰلِكَ} أي خلق ما ذكر لا لأجل الأمر والنهي، ولا لأجل الثواب والعقاب {ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} بأمر البعث والجزاء {فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ} أي فشدة العذاب للذين كفروا بالبعث بعد الموت بسبب النار المترتبة على ظنهم أن لا بعث ولا حساب، وذلك نفي لحكمة الله تعالى في خلق السماء والأرض وفي أمره تعالى ونهيه، {أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلأَرْضِ} أي بل أنجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين في أقطار الأرض كما يقتضيه عدم البعث والجزاء لاستواء الفريقين في التمتع بالحياة الدنيا، بل الكفرة أوفر حظاً منها من المؤمنين لكن ذلك الجعل محال فتعين البعث والجزاء حتماً لرفع الأولين إلى أعلى عليين، ورد الآخرين إلى أسفل سافلين. {أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ} أي بل أنجعل أتقياء المؤمنين كعلي بن أبي طالب، وحمزة بن المطلب، وعبيدة بن الحرث كأشقياء الكفرة كعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة، وهم الذين بارزوا يوم بدر علياً وحمزة، وعبيدة فقتل على الوليد بن عتبة، وقتل حمزة عتبة بن ربيعة، وقتل عبيدة شيبة بن ربيعة. قيل: نزلت هذه الآية لما قال كفار مكة للمؤمنين، إنا نعطي في الآخرة من الخير مثل ما تعطون وتقرير هذه الآية: إنا نرى في الدنيا من أطاع الله واحترز عن معصيته في الفقر، والزمانة، وأنواع البلاء، ونرى الكفرة، والفساق في الراحة والغبطة، فلو لم يكن حشر ونشر، ومعاد كان حال المطيع أدون من حال العاصي، وذلك لا يليق بحكمة الحكيم الرحيم، وإذا كان ذلك قادحاً في الحكمة ثبت أن إنكار الحشر والنشر، يوجب إنكار حكمة الله تعالى {كِتَٰبٌ} أي هذا قرآن {أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ} صفة لكتاب {مُبَٰرَكٌ}، أي كثير المنافع الدينية والدنيوية خبر مبتدأ مضمر. وقرىء «مباركاً» على الحال اللازمة، لأن البركة لا تفارقه، {لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِ} أي ليتفكروا في معانيها اللطيفة، وفي أسرارها العجيبة، {وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلأَلْبَٰبِ} أي وليتعظ به ذوو العقول السليمة، فإن من يتدبر ولم يساعده التوفيق الإلهي لم يقف على الأسرار العجيبة المذكورة في هذا القرآن العظيم، {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَٰنَ} من المرأة التي أخذها من أوريا، {نِعْمَ ٱلْعَبْدُ} أي سليمان {إِنَّهُ} أي سليمان {أَوَّابٌ} أي رجاع إلى الله تعالى بالتوبة، مقبل إلى طاعة الله.

{إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ}، أي بعد الظهر {ٱلصَّـٰفِنَٰتُ}، أي الخيل التي تقوم على طرف سنبك يد أو رجل { ٱلْجِيَادُ}، أي سراع الجري. وعن إبراهيم التيمي أنها عشرون ألف فرس. {فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى} أي إني ألزمت حب الخيل لأجل كتاب ربي وهو التوراة فإن معنى الخير هو المال الكثير. والمراد به هنا الخيل، {حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ} أي استترت الصافنات عن النظر {رُدُّوهَا} أي الصافنات {عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ}، أي فردوها عليه، فأخذ سليمان عليه السلام يمسح سوقها وأعناقها، وذلك أن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم، كما أنه كذلك في دين محمد صلى الله عليه وسلم، ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل، وأمر بإجرائها وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه. وهو المراد من قوله عن ذكر ربي، ثم إنه عليه السلام أمر بتسييرها حتى غابت عن بصره، وهو معنى قوله: {حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ} ثم إنه أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه، فلما عادت إليه شرع يمسح سوقها وأعناقها تشريفاً لها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو، ولأنه أراد أن يظهر أنه يتضع حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه، وأنه يضبط السياسة والملك، ولأنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها، فكان يمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض، {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً}.

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قال سليمان: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل امرأة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل: إن شاء الله فطاف عليهن، فلم تحمل إلاّ امرأة واحدة جاءت بشق رجل، فجيء به على كرسيه، فوضع في حجره فوالذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون». قال العلماء: والشق هو الجسد الذي ألقى على كرسيه حين عرض عليه وهي محنته.

وقيل: إن فتنة سليمان أنه ولد له ابن فقالت الشياطين: إن عاش صار مسلطاً علينا مثل أبيه فسبيلنا أن نقتله فعلم سليمان ذلك، فأمر السحاب، فحمله، فكان يربيه في السحاب، فبينما هو مشتغل بمهماته إذ ألقي ذلك الولد ميتاً على كرسيه فتنبه على خطئه في أنه لم يتوكل فيه على الله.

وقيل: إنه أصابه مرض شديد فصار يجلس على كرسيه وهو مريض وفتنته هو مرضه، ولشدة المرض ألقاه الله على كرسيه والعرب تقول في الضعيف: إنه لحم على وضم وجسم بلا روح

ولماتو في سليمان بعث بختنصر فأخذ الكرسي، فحمله إلى أنطاكية، فأراد أن يصعد عليه ولم يكن له علم كيف يصعد عليه فلما وضع رجله ضرب الأسد رجله، فكسرها، وكان سليمان إذا صعد وضع قدميه جميعاً، ومات بختنصر، وحمل الكرسي إلى بيت المقدس فلم يستطع قط ملك أن يجلس عليه، {ثُمَّ أَنَابَ} أي رجع إلى حال الصحة أو تاب من خطئه، {قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى} أي ما صدر عني من الزلة، وهو ترك الأفضل والأولى لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين، وطلب المغفرة دأب الأنبياء والصالحين هضماً للنفس وإظهاراً للذل والخشوع، وطلباً للترقي في المقامات، {وَهَبْ لِى مُلْكاً لاَّ يَنبَغِى لأَحَدٍ مِّن بَعْدِىۤ} أي غيري بحيث لا يقدر أحد على معارضته ليكون معجزة لي، لأن المعجزة أن لا يقدر أحد على معارضتها فكان المراد أقدرني على أشياء لا يقدر عليها غيري ألبتة ليصير اقتداري عليها معجزة تدل على صحة نبوتي ورسالتي. {إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ} بالملك والنبوة لمن شئت، {فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ} أي فذللناها لطاعته إجابة لدعوته {تَجْرِى بِأَمْرِهِ} إياها {رُخَآءً} أي لينة في أثناء سيرها، أما في أوله فهي عاصفة، حَيْثُ أَصَابَ} إلى أي موضع قصده وأراده {وَٱلشَّيَٰطِينَ} عطف على الريح {كُلَّ بَنَّآءٍ} يبنون له ما شاء من الأبنية وهو بدل من الشياطين، {وَغَوَّاصٍ} في قعر البحر فيستخرجون اللؤلؤ.

{وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلأَصْفَادِ} أي مسلسلين في أغلال الحديد، وهم المردة من الشياطين الذين لا يبعثهم إلى عمل إلاّ انقلبوا، {هَٰذَا} أي الملك {عَطَآؤُنَا فَ ٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} لكثرته.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أعط من شئت وامنع من شئت، أي غير محاسب علي منك وإمساكك أي ليس عليك حرج فيما أعطيت، وفيما أمسكت من الأمر الذي أعطيناكه. وقيل: المعنى هذا أي تسخير الشياطين عطاؤنا فامنن على من شئت من الشياطين فخل سبيلهم من الغل، أو احبس من شئت في الغل من غير أن تحاسب وتأثم بذلك {وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا} في الآخرة {لَزُلْفَىٰ} أي قربى عظيمة {وَحُسْنَ مَآبٍ} وهو الجنة {وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ} بن عيصن بن إسحاق عليه السلام، {إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ} اسمه معيط {بِنُصْبٍ} أي بلاء {وَعَذَابٍ}، أي وسوسة وإلقاء الخواطر الفاسدة.

روي أن إبليس سأل ربه فقال: هل في عبيدك من لو سلطتني عليه يمتنع مني؟ فقال الله: نعم، عبدي أيوب، فجعل يأتيه بوساوسه وهو يرى إبليس عياناً، ولا يلتفت إليه. فقال: يا رب إنه

قد امتنع علي فسلطني على ماله، فكان الشيطان يجيئه ويقول له: هلك من مالك كذا وكذا فيقول: الله أعطى والله أخذ، ثم يحمد الله تعالى. فقال الشيطان: يا رب إن أيوب لا يبالي بماله فسلطني على ولده فجاء إليه وزلزل الدار فهلك أولاده بالكلية، وأخبره به فلم يلتفت إليه. فقال: يا رب أيوب لا يبالي بولده فسلطني على جسده فأذن فيه، فنفخ في جلد أيوب، فحدثت أسقام عظيمة وآلام شديدة فيه، فمكث في ذلك البلاء سنين حتى صار بحيث استقذره أهل بلده، فخرج إلى الصحراء، وما كان يقرب منه أحد، فجاء الشيطان إلى امرأته ليا بنت يعقوب عليه السلام، وقال: إن زوجك إن استغاث بي خلصته من هذا البلاء فذكرت المرأة ذلك لزوجها، فحلف بالله لئن عافاه الله تعالى ليجلدنها مائة جلدة، وحين كان الألم على الجسد لم يذكر أيوب شيئاً، فلما عظمت الوساوس خاف على القلب والدين، فتضرع، ومن الوساوس أن الشيطان كان يذكره النعم التي كانت، والآفات التي حصلت ومنها: أنه كان يقنطه من ربه ويزين له أن يجزع، فشق ذلك عليه عليه السلام فتضرع إلى الله تعالى وقال: إني مسني الشيطان بنصب وعذاب فإنه كلما كانت تلك الخواطر أكثر كان ألم قلبه منها أكثر، فأجاب الله دعاءه وأوحى إليه بقوله تعالى: { ٱرْكُضْ} أي اضرب {بِرِجْلِكَ} الأرض، فضربها، فنبعت عين فقيل له: {هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ} أي ماء تغتسل به فيبرأ ظاهرك {وَشَرَابٌ}، أي وتشرب منه فيبرأ باطنك أي إن الله تعالى أظهر من تحت رجل أيوب عيناً باردة طيبة، فاغتسل وشرب منها، فأذهب الله عنه كل داء في ظاهره وباطنه ورد عليه أهله وماله كما قال تعالى {وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ} بإحيائهم بعد هلاكهم كما قاله الحسن أو بجمعهم بعد تفرقهم كما قيل {وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ} فكان له من الأولاد ضعف ما كان له قبل {رَحْمَةً مِّنَّا} أي لأجل رحمة عظيمة عليه على سبيل الفضل منا، لا على سبيل اللزوم {وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلأَلْبَٰبِ}، أي ولتذكير أصحاب العقول بحاله عليه السلام ليصبروا على الشدائد كما صبروا، ويلجأوا إلى الله تعالى كما لجأ ليظفروا كما ظفر،

{وَخُذْ بِيَدِكَ} يا أيوب {ضِغْثاً} أي قبضة من سنبل فيها مائة سنبلة مختلطة الرطب باليابس {فَٱضْرِب بِّهِ}، أي امرأتك رحمة بنت يوسف الصديق. لأنه قد حلف ليضربنها مائة ضربة، لأنه لقيها إبليس في صورة طبيب فدعته إلى مداواة أيوب فقال: أداويه على أنه إذا برىء قالت: أنت شفيتني لا أريد جزاء سواه قالت: نعم، فأشارت على أيوب بذلك، فحلف ليضربنها وقال: ويحك ذلك

الشيطان كذا حكاه ابن عباس. {وَلاَ تَحْنَثْ} أي لا تأثم في يمينك بترك ضربها، ولقد شرع الله تعالى هذه الرخصة رحمة عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها {إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِراً}، فيما أصابه في النفس والأهل والمال، وليس في شكواه إلى الله تعالى إخلال بذلك الصبر، فإنه يسمى جزعاً كتمني العافية، وطلب الشفاء على أنه عليه السلام قال ذلك خيفة الفتنة في الدين حيث كان الشيطان يوسوس إلى قومه، بأنه لو كان نبياً لما ابتلى بمثل ما ابتلي به. ويروى أنه عليه السلام قال في مناجاته إلهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي، ولم يتبع قلبي بصري ولم يهنني ما ملكت يميني ولم آكل إلاّ ومعي يتيم ولم أبت شبعان، ولا كاسياً ومعي جائع أو عريان، فكشف الله تعالى عنه {نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ} أي أيوب {إِنَّهُ أَوَّابٌ} أي مقبل إلى طاعة الله، {وَ ٱذْكُرْ عِبَادَنَآ إِبْرٰهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلأَيْدِى وَٱلأَبْصٰرِ} أي أولي القوة في الطاعة والبصيرة في الدين فقوله تعالى: {أُوْلِى ٱلأَيْدِى} إشارة إلى القوة العاملة، فأشرف ما يصدر عنها طاعة لله. وقوله: {وَٱلأَبْصٰرُ} إشارة إلى القوة العالمة، فأشرف ما يصدر عنها معرفة الله وما سوى هذين القسمين باطل.

وقرأ ابن كثير «عبدنا» على التوحيد {إِنَّآ أَخْلَصْنٰهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ}، أي إنا جعلناهم خالصين لنا بسبب خصلة خالصة، وهي استغراقهم في ذكر الدار الآخرة حتى نسوا الدنيا، وقرأ نافع وهشام بإضافة خالصة، أي إنا اختصصناهم بإخلاصهم ذكر الآخرة وتناسيهم عند ذكرها ذكر الدنيا، وقد جاء المصدر على فاعلة كالعاقبة، {وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلأَخْيَارِ} أي لمن المختارين من أبناء جنسهم المستعلين عليهم في الخير، {وَ ٱذْكُرْ إِسْمٰعِيلَ وَ ٱلْيَسَعَ} بن أخطوب استخلفه إلياس على بني إسرائيل، ثم استنبىء وهو ابن عم إلياس واللام زائدة. وقرأ حمزة والكسائي بتشديد اللام وسكون الياء {وَذَا ٱلْكِفْلِ} وهو ابن عم يسع، أو بشر بن أيوب {وَكُلٌّ} أي كل المتقدمين من داود إلى هنا {مِّنَ ٱلأَخْيَارِ} أي وكلهم من المشهورين بالخيرية وهم أنبياء تحملوا الشدائد في دين الله تعالى، {هٰذَا} أي ما تقدم من ذكر محاسنهم {ذِكْرٌ} أي شرف لهم وثناء جميل في الدنيا، {وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَأَابٍ} أي مرجع في الآخرة {جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلأَبْوَابُ} منها، ف «جنات» عطف بيان و «مفتحة» حال منها، وقرئتا مرفوعتين هي جنات عدن مفتحة، {مُتَّكِئِينَ فِيهَا} أي جالسين على السرر في الحجال ناعمين في الجنة، {يَدْعُونَ فِيهَا بِفٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ}، أي يسألون في الجنة بألوان الفاكهة

وألوان الشراب، {وَعِندَهُمْ} في الجنة {قَٰصِرٰتُ ٱلطَّرْفِ} أي جِوار حابسات العين على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم، {أَتْرَابٌ} أي مستويات في السن والحسن، {هَٰذَا} أي المذكور {مَا تُوعَدُونَ} في الدنيا {لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ} أي لأجل وقوعه في يوم القيامة.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء على الغيبة، {إِنَّ هَٰذَا} أي ما ذكر من ألوان النعم {لَرِزْقُنَا} أعطيناكموه {مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ}، أي فناء {هَٰذَا} أي الأمر هذا المذكور {وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ} أي للكافرين {لَشَرَّ مَأَابٍ} أي مرجع في الآخرة {جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا} أي يدخلونها {فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ} أي المفرش {هَٰذَا} أي عذاب جهنم، {فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ} فالحميم ماء حار يحرقهم بحره والغساق ماء بارد منتن يحرقهم ببرده.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص بتشديد السين والوقف على «فليذوقوه» كافٍ إن جعل خبراً لهذا، أو جعل هذا مفعولاً لفعل محذوف يفسره «فليذوقوه» ويكون «حميم» خبر مبتدأ محذوف، وإن جعل هذا حميم مبتدأ وخبر وما بينهما اعتراض، فالوقف على غساق وهو كافٍ.

{وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَٰجٌ} أي ومذوق آخر من مثل هذا المذوق أجناس.

وقرأ أبو عمرو و «أخر» بضم الهمزة، أي ومذوقات أخر من مثل هذا المذوق في الشدة والفظاعة أنواع مختلفة و «آخر» مبتدأ و «أزواج» خبره قال خزنة جهنم لرؤساء الكفار في أتباعهم إذا دخلوا النار، {هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ} أي هذا جمع كثيف قد دخل معكم النار كما كانوا قد دخلوا معكم في الضلال فقال هؤلاء الرؤساء: {لاَ مَرْحَباً بِهِمْ} أي لا اتسعت منازلهم في النار {إِنَّهُمْ صَالُو ٱلنَّارِ}، أي داخلون فيها كما دخلنا فيها. {قَالُواْ} أي الأتباع عند سماعهم ما قيل في حقهم خطاباً بالرؤساء: {بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ} أي لا وسع الله عليكم في منازلكم في النار، أي أن الدعاء الذي دعوتم به علينا أيها الرؤساء أنتم أحق به، {أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا} أي أنتم قدمتم الطغيان الذي هذا العذاب جزاؤه فاقتدينا بكم {فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ} أي بئس المسكن لنا ولكم جهنم.

{قَالُواْ} أي الأتباع معرضين عن خصومتهم متضرعين إلى الله تعالى: {رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِى ٱلنَّارِ}، أي يا ربنا من شرع لنا هذا الطغيان من الرؤساء فزده عذاباً مضاعفاً في النار.

قال ابن مسعود: والمراد بالضعف الحيات والأفاعي {وَقَالُواْ} أي الطاعون: {مَا لَنَا لاَ نَرَىٰ رِجَالاً} من فقراء المؤمنين، {كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ ٱلأَشْرَارِ} أي يقول أبو جهل: ما لنا لا نرى في النار عماراً وبلالاً، وصهيباً وخباباً كنا نعدهم من السفلة {أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيّاً}.

قرأه نافع بضم السين {أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلأَبْصَٰرُ}. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، ونافع، وعاصم وابن عامر «أتخذناهم» بقطع الهمزة على الاستفهام للتوبيخ والتعجب فيوقف على الأشرار وهو كافٍ والمعنى: الأجل إنا قد اتخذناهم سخرياً في الدنيا، فأخطأنا، فلم يدخلوا النار، فلذلك لا نراهم أم لأجل أنه زاغت عنهم أبصارنا ولم نعلم مكانهم وهم فيها.

وقرأ ابن كثير والأعمش، وأبو عمرو، وحمزة والكسائي «اتخذناهم» بوصل الهمزة فلا يوقف على الأشرار، لأن اتخذناهم صفة أخرى لرجالاً. والمعنى: ما لنا لا نرى في النار رجالاً سخرناهم وحقرناهم في الدنيا بل مالت أبصارنا عنهم فلا نعدهم شيئاً {إِنَّ ذَلِكَ} أي الذي حكيناه عنهم {لَحَقٌّ}، أي واجب وقوعه فلا بد وأن يتكلموا به {تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ}، أي وهو كلام أهل النار في النار بخصومة بعضهم مع بعض.

وقرىء «تخاصم» بالنصب على أنه بدل من ذلك. {قُلْ} يا أفضل الخلق لكفار مكة: {إِنَّمَآ أَنَاْ مُنذِرٌ} أي مخوف بعذاب الله لمن عصى، {وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ} موجود {إِلاَّ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ} الذي لا يقبل الشركة {ٱلْقَهَّارُ} لخلقه، {رَبُّ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} أي خالقهما، {ٱلْعَزِيزُ} أي الغالب فلا يغلب في أمر من الأمور، {ٱلْغَفَّارُ} لمن تاب {قُلْ هُوَ}، أي ما أنبأتكم به {نَبَأٌ عَظِيمٌ} وارد من الله تعالى {أَنتُمْ عَنْهُ} أي عن ذلك النبأ {مُعْرِضُونَ}، أي تاركون له. وهذه الجملة صفة ثانية {مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلإِ ٱلأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ}، أي ما كان لي من علم بكلام الملائكة وقت اختصامهم في أمر آدم عليه السلام، {إِن يُوحَىٰ إِلَىَّ إِلاَّ أَنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} أي ما يوحى إلي حال الملائكة إلاّ كوني نذيراً مبيناً، أي أنا ما عرفت هذه المخاصمة إلاّ بالوحي وإنما أوحى الله إلي هذه القصة لأنذركم بها، ولتصير هذه القصة حاضة لكم على الإخلاص في الطاعة والاحتراز عن الجهل والتقليد، {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌ بَشَراً} أي آدم {مِّن طِينٍفَإِذَا سَوَّيْتُهُ} أي جمعت أجزاء بدنه وصورته بالصورة الإنسانية، {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى} أي أفضت عليه الروح، وهي عرض صار البدن بوجودها حياً وهي جوهر يسري في البدن سريان الضوء في الفضاء، وسريان النار

في الفحم، {فَقَعُواْ لَهُ} أي اسقطوا له {سَٰجِدِينَ} تحية له وتكريماً، فخلقه إنساناً فسواه فجعل الروح فيه، {فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} أي فسجد الملائكة كلهم بطريق المعية لآدم بحيث لم يبق منهم أحد إلاّ سجد له، ولم يتأخر في ذلك السجود أحد منهم عن أحد.

{إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ} أي تعظم عن السجود لآدم، {وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ} أي وصار إبليس من الكافرين بأبائه عن أمر الله بعد أن كان مسلماً عابداً فإنه عبد الله ثمانين ألف عام. {قَالَ} الله له: {يَٰٓإِبْلِيسُ} أي يا خبيث {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} أي لماَ خلقته بقدرتي، وإرادتي من غير توسط أب وأم، {أَسْتَكْبَرْتَ} أي أتكبرت عن السجود لآدم من غير استحقاق، {أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَٰلِينَ} أي من المستحقين للتفوق؟ {قَالَ} إبليس: {أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} والنار أفضل من الطين، لأن النار تأكل الطين فلذلك لم أسجد له. {قَالَ} الله له: {فَٱخْرُجْ مِنْهَا} أي من الخلقة التي كنت عليها فإنه كان يفتخر بخلقته، فغير الله خلقته فاسود بعدما كان أبيض، وقبح بعد ما كان حسناً وأظلم بعد ما كان نورانياً، {فَإِنَّكَ رَجِيمٌ} أي مطرود من كل خير {وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ} أي سخطي {إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ} أي يوم الحساب.

{قَالَ} إبليس: {رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ} من القبور، أي إذا جعلتني رجيماً فلا تمتني إلى يوم يبعث آدم وذريته من القبور للجزاء بعد فنائهم، وأراد الخبيث بذلك أن يجد فسحة لإغوائهم وأن لا يذوق الموت. {قَالَ} الله: {فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ} الذي قدره الله وعينه لفناء الخلائق وهو وقت النفخة الأولى، لا إلى وقت البعث الذي هو المسؤول. {قَالَ} إبليس: {فَبِعِزَّتِكَ} أي فاقسم بعزتك {لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}، أي لأضلن ذرية آدم عن دينك بتزيين المعاصي لهم {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ} أي المعصومين من الغواية، أو المخلصين قلوبهم وأعمالهم لله. {قَالَ} الله: {فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ}.

قرأ عاصم وحمزة برفع الأول ونصب الثاني، أي فأنا الحق، أو فالحق قسمي ولا أقول إلاّ الحق. وقرأ الباقون بنصبهما أي فبالحق أي أقسم بالحق. وقرىء بجرهما على أن الثاني حكاية لفظ المقسم به على أن معنى الحق نقيض الباطل.

وقرىء بجر الأول على إضمار حرف القسم ونصب الثاني على المفعولية {لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ}، ومن جنسك من الشياطين، {وَمِمَّن تَبِعَكَ} في الغواية {مِنْهُمْ} أي من ذرية آدم {أَجْمَعِينَ}

تأكيداً للكاف و «ما» عطف عليه. {قُلْ} يا أشرف الرسل: {مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ} أي على هذه الدعوة {مِنْ أَجْرٍ} أي دنيوي {وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ} أي الحاملين للمشقة في الشريعة على الناس، أي إن هذا الذي أدعوكم إليه دين لا يحتاج في معرفة صحته إلى التكلفات الكثيرة، بل هودين يشهد العقل بصحته، فإني أدعوكم أولاً إلى الإقرار بوجود الله، ثم أدعوكم ثانياً إلى تنزيهه تعالى عن كل ما لا يليق به تعالى، ثم أدعوكم ثالثاً إلى الإقرار بكونه تعالى موصوفاً بكمال العلم والقدرة والحكمة والرحمة، ثم أدعوكم رابعاً إلى الإقرار بكونه تعالى منزهاً عن الشركاء، ثم أدعوكم خامساً إلى الامتناع عن عبادة الأوثان، ثم أدعوكم سادساً إلى تعظيم الملائكة والأنبياء، ثم أدعوكم سابعاً إلى الإقرار بالبعث والقيامة، ثم أدعوكم ثامناً إلى الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة.

فهذه الأصول الثمانية هي الأصول المعتبرة في دين الله تعالى، وأوائل الأفكار شاهدة بصحة هذه الأصول الثمانية، فثبت أني لست من المتكلفين في الشريعة التي أدعوا الخلق إليها، بل كل عقل سليم يشهد بصحتها وبعدها عن الفساد. وهو المراد من قوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ} أي ما هذا القرآن إلا عظة من الله تعالى للثقلين كافة، {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} أي إنكم إن أصررتم على الجهل والتقليد، وأبيتم قبول هذه البينات التي ذكرناها في القرآن فستعلمون بعد الموت أنكم كنتم مصيبين في إعراضكم عنه أو مخطئين.

سورة الزمر

ويقال لها سورة الغرف مكية، إلاّ آيتين نزلتا بالمدينة إحداهما: {ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ} والأخرى: {قُلْ يٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ} الآية. وهي خمس وسبعون آية، وألف ومائة واثنتان وتسعون كلمة، وأربعة آلاف وسبعمائة وثمانية أحرف

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ}، أي هذه السورة تنزيل الكتاب من الله {إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ} أي ملتبساً بكل ما فيه حق لا ريب فيه موجب للعمل به حتماً، {فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ ٱلدِّينَ}، أي فاعبده تعالى ممحضاً له الدين من شوائب الشرك والرياء.

وقرأ ابن أبي عبلة برفع الدين على أنه مبتدأ خبره الجار والمجرور قبله، {أَلاَ لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ} أي ألا هو الذي يجب أن يخص بإخلاص الطاعة له لأنه المنفرد بصفات الألوهية {وَ ٱلَّذِينَ

ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَى}، والموصول مبتدأ وهو عبارة عن المشركين وخبره محذوف، والوقف على «زلفى» كاف، كما قاله أبو عمرو. وقيل: تام أي والمشركون الذي عبدوا من غير الله أرباباً ملائكة وعيسى وعزيراً، والأصنام، والشمس، والقمر، والنجوم يقولون: ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله في المنزلة، {إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}.

وقرىء «ما نعبدكم إلاّ لتقربونا» حكاية لما خاطبوا له آلهتهم، {إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِى} أي لا يوفق للاهتداء إلى الحق {مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ} في وصفهم لغير الله بأنهم آلهة مستحقة للعبادة {كَفَّارٌ} لاعتقادهم في غير الله بالإلٰهية ولكفرانهم نعمة المنعم، وهو الله تعالى فإن العبادة نهاية التعظيم، وهي لا تليق إلاّ بمن يصدر عنه غاية الإنعام {لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً} من الملائكة والآدميين كما قالت اليهود والنصارى، وبنو مليح {لاَّصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ} إذ كل موجود سواه مخلوق له، لكن اتخاذ الولد من خلقه باطل لاستحالة كون المخلوق من جنس الخالق، ولأن كونه منه يستلزم حدوث الخالق، وهو ممتنع عقلاً ونقلاً {سُبْحَـٰنَهُ} أي تنزيهاً له عن اتخاذ الولد {هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ}، أي إن كون الله إلٰهاً واجب الوجود لذاته يوجب كونه واحداً في حقيقته وكونه واحداً في حقيقته يمنع من ثبوت الولد فثبت أن كونه واحداً يمنع من ثبوت الولد، ثم إن كونه تعالى قهار يمنع من ثبوت الولد له فلأن المحتاج إلى الولد هو الذي يموت ويحتاج إلى من يقوم مقامه، لأنه يكون مقهوراً بالموت، أما الذي يكون قاهراً لا يموت كان الولد في حقه محالاً. وقوله: {هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ} ألفاظ مشتملة على دلائل قاطعة في نفي الولد عن الله تعالى {خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلاٌّرْضَ بِـ ٱلْحَقِّ}، أي ملتبسة بالصواب مشتملة على الحكم والمصالح {يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ}، أي يغشى كل واحد منهما الآخر ويزيد كل واحد منهما بقدر ما ينقص الآخر، {وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ} أي جعلهما منقادين لأمره تعالى، {كُلٌّ يَجْرِى لاَجَلٍ مُّسَمًّى} أي كل منهما يجري في فلكه لمنتهى دورته، {أَلا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ} أي إن خلق هذه الإجرام العظيمة دليل على كمال القدرة فهو يوجب الخوف والرهبة إلاّ أنه تعالى غفار، فكونه تعالى غفاراً دليل على كثرة رحمته فهي توجب الرجاء والرغبة، {خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ} خلقها وهي نفس آدم وحدها، {ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا} أي من تلك النفس، {زَوْجَهَا} حواء خلقها من ضلع من أضلاعه القصرى {وَأَنزَلَ لَكُمْ} أي أحدث لكم

بأسباب نازلة من السماء، كالأمطار وأشعة الكواكب {مِّنَ ٱلأَنْعَـمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ} أي أفراد من الإبل، اثنين ذكر وأنثى. ومن البقر اثنين ومن الضأن اثنين ومن المعز اثنين، {يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ}، أي حيواناً سوياً من بعد عظام مكسوة لحماً من بعد عظام عارية، من بعد مضغ، من بعد علق، من بعد نطف، {فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ} البطن والرحم والمشيمة، {ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ} أي ذلكم الذي عرفتم عجائب أفعاله هو الله المربي لكم، بالخلق والرزق، فهو المستحق لعبادتكم، {لَهُ ٱلْمُلْكُ} في الدنيا والآخرة ليس لغيره شركة في ذلك {لاۤ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ}، أي لا معبود للخلق أجمعين إلاّ الله، {فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ} أي فكيف تصرفون عن عبادة الله تعالى مع وفور دواعيها إلى عبادة غيره تعالى من غير داع إليها، {إِن تَكْفُرُواْ} به تعالى {فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ}، أي فاعلموا أن الله تعالى ما كلف المكلفين ليجر إلى نفسه منفعة، أو ليدفع عن نفسه مضرة، لأن الله تعالى غني عن إيمانكم وشرككم، {وَلاَ يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ} أي وإن كان لا ينفعه تعالى إيمان ولا يضره كفر، إلاَّ أنه لا يرضى بالكفر {وَإِن تَشْكُرُواْ} بأن تقروا باللسان بحصول النعمة، وتعتقدوا صدور النعمة من الله تعالى، وتعملوا الصالحات بجوارحكم {يَرْضَهُ لَكُمْ} أي يرضى الشكر لأجل منفعتكم، لأنه سبب لفوزكم بسعادة الدارين لا لانتفاعه تعالى به.

وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر، وعاصم، وحمزة بضم الهاء مختلسة.

وقرأ أبو عمرو وحمزة في بعض الروايات ساكنة الهاء للتخفيف. وقرأ نافع في بعض الروايات وابن عامر والكسائي، وابن ذكوان، والدوري مضمومة الهاء مشبعة. {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ} أي لا تحمل نفس حاملة للوزر حمل نفس أخرى، فكل مأخوذ بذنبه. وهذا بيان لعدم سراية كفر الكافر إلى غيره أصلاً {ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ} بالبعث بعد الموت. فأهم المطالب للإنسان أن يعرف خالقه بقدر الإمكان وأن يعرف ما يضره وما ينفعه وأن يعرف أحواله بعد الموت {فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، أي يجازيكم بأعمال الكفر والإيمان في الدنيا ثواباً وعقاباً. وهذا تهديد للعاصي وبشارة للمطيع {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ} فيعلم ما في قلوبكم من الدواعي والصوارف. وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أقوالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». {وَإِذَا مَسَّ ٱلإِنسَٰنَ}، أي الكافر كعتبة بن ربيعة وأبي جهل {ضُرٌّ} في جسمه، أو ماله، أو أهله، أو ولده {دَعَا رَبَّهُ} أي استجار به {مُنِيباً إِلَيْهِ} أي مقبلاً إليه بالنداء في

إزالة ذلك الضر، ولم يؤمل فيه سواه، {ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ} أي أعطاه {نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ}، أي ترك دعاء ربه الذي يتضرع إليه من قبل إعطاء النعمة، كأنه لم يفزع إليه ونسي أن لا إله سواه، فعاد إلى اتخاذ الشركاء مع الله تعالى كما قال تعالى: {وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً} أي أعدالاً في العبادة {لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ}.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء بعد لام العاقبة، أي ليثبت على الضلال عن دين الإسلام والباقون بضمها أي ليضل غيره عنه. {قُلْ} للكافر: {تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً} أي عش في كفرك في هذه الدنيا بقية عمرك وهذا الأمر زجر عن الكفر وتعريف لقلة تمتعه في الدنيا. {إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ} أي من المعذبين في النار على الدوام، وفي هذا إقناط للكافر من النجاة.

{أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ}. وقرأ نافع وابن كثير وحمزة «أمن» بتخفيف الميم والهمزة «إما» للاستفهام التقريري ومقابله محذوف تقديره «أمن» هو قائم بما يجب عليه من الطاعة في ساعات الليل حالتي السراء والضراء، كمن جعل لله أنداداً ودعا عند مساس الضر فقط، أو للنداء، أي يا من هو قائم في ساعات الليل قل: كيت وكيت أنت من أهل الجنة. وقرأ الباقون بتشديد الميم ف «أم» داخلة على «من» الموصولة وهي إما متصلة ومعادلها محذوف تقديره الكافر خير، أم من هو قائم بأداء وظائف العبادات. أو منفصلة تقدر ب «بل» والهمزة، أي بل أمن هو مطيع لله كالكافر المقول له تمتع بكفرك {سَٰجِداً وَقَآئِماً} حال من ضمير قانت.

وقرىء بالرفع على أنه خبر بعد خبر، {يَحْذَرُ ٱلْأٌّخِرَةَ} أي يخاف عذاب الآخرة {وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ}، أي جنة ربه فينجو مما يخافه، ويفوز بما يرجوه. {قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ} توحيد الله وأمره ونهيه وهو أبو بكر وأصحابه، {وَٱلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} ذلك وهو أبو جهل وأصحابه ويجوز أن يراد هذا سبيل التشبيه أي كما لا يستوي العالمون والجاهلون لا يستوي القانتون والعاصون، {إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو ٱلْأَلْبَٰبِ} أي إنما يتعظ بهذه البيانات الواضحة أصحاب العقول الصافية، ولا يعرف التفاوت الحاصل بين العلماء والجهال إلاّ أصحاب القلوب النيرة.

وقيل لبعض العلماء: إنكم تقولون: العلم أفضل من المال، ثم نرى العلماء يجتمعون عند أبواب الملوك ولا نرى الملوك مجتمعين عند أبواب العلماء، فأجاب بأن هذا أيضاً يدل على فضيلة العلم، لأن العلماء علموا ما في المال من المنافع فطلبوه، والجهال لم

يعرفوا ما في العلم من المنافع فتركوه. {قُلْ يٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ} أي قل لهم ربكم يقول: أطيعوا ربكم في الصغير والكبير من الأمور {لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ}، والجار والمجرور إما صلة لأحسنوا والمعنى للذين عملوا الأعمال الحسنة في هذه الدنيا على وجه الإخلاص حسنة عظيمة في الآخرة، وهي الجنة. وإما صلة لحسنة. والمعنى: الذين أحسنوا في هذه الدنيا أمن وصحة وكفاية {وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةٌ}، أي فإن لم يتمكنوا من صرف الهمم إلى الإحسان في بلادهم فقل لهم: فإن أرض الله واسعة فلتهاجروا من تلك البلاد إلى بلاد تقدرون فيها على الاشتغال بالعبادات، واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم ليزدادوا طاعة إلى طاعتهم، لأنه لا عذر ألبتة للمقصرين في الإحسان {إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ} على مفارقة أوطانهم وعشائرهم، واحتمال البلايا في طاعة الله تعالى {أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}، أي بغير نهاية بهنداز ونحوه. {قُلْ} يا أشرف الرسل لكفار قريش حيث قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: ما حملك على هذا الدين الذي أتيتنا به، ألا أنتظر إلى ملة أبيك وجدك وسادات قومك، يعبدون اللات والعزى، فتأخذ بها : {إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ ٱلدِّينَ} أي العبادة عن شوائب الشرك والرياء وغير ذلك، {وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ} أي وأمرت بأن أكون أول من تمسك بالعبادات التي أرسلت بها، فإني لست من الملوك الجبابرة الذين يأمرون الناس بأشياء وهم لا يفعلون ذلك، بل كل ما أمرتكم به فأنا أول الناس شروعاً فيه، وأكثرهم مداومة عليه، والعبادة لها ركنان: عمل القلب، وعمل الجوارح. فعمل القلب: هو الإخلاص، وعمل الجوارح: هو الإسلام. وهذا فائدة إتيان الأمر مرتين، ثم بيَّن الله أن هذا الأمر للوجوب فقال: {قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} ومعنى هذا العصيان ترك الأمر الذي تقدم ذكره {قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِى}، أي لا أعبد أحداً سوى الله. والأول إخبار بأنه صلى الله عليه وسلم مأمور من جهة الله تعالى بالإتيان بالعبادة وإخلاص القلب له تعالى. وهذا إخبار بأنه صلى الله عليه وسلم أمر أن لا يعبد أحداً غير الله، وإخبار بامتثاله صلى الله عليه وسلم بالأمر على أبلغ وجه،

{فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُمْ} أن تعبدوه {مِّن دُونِهِ} تعالى. وفي هذا دلالة على شدة الغضب عليهم. {قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوۤاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ}، أي حين يدخلون النار حيث أوقعوهما في هلكة لا هلكة وراءها، {أَلاَ} أي تنبهوا لهذه الخسرة

العظيمة، {ذَلِكَ} أي الأمر العظيم {هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ}، فلا خسران وراءه، فكل خسران يصير في مقابلته كلا خسران، {لَهُمْ} أي لهؤلاء الخاسرين {مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ} أي قطع كبار {مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ}، أي فراش من النار. والمراد إحاطة النار بهم من جميع الجوانب، وإنما سمي ما تحتهم بالظلل، لأن التي تكون تحتهم تكون ظللاً لآخرين تحتهم، لأن النار دركات وأيضاً إن الظلة التحتانية تشابه الفوقانية في الحرارة والإحراق {ذَٰلِكَ} العذاب هو الذي {يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ} المؤمنين ليخلصوا في الطاعة، {يٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ} أي يا أيها المؤمنون بالغوا في الخوف والحذر، {وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ} أي الشيطان {أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ} أي أقبلوا إليه بالطاعات {لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ} بنوع من الخير عند قرب الموت، وعند الوضع في القبر، وعند الخروج منه، وعند الوقوف في عرصة القيامة وعلى باب الجنة. وقوله تعالى: {أَن يَعْبُدُوهَا} بدل الاشتمال. والمعنى: والذين تركوا عبادة الشيطان إلخ، فإن عبادة غير الله تعالى عبادة للشيطان إذ هو الآمر بها، {فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}.

وعن ابن عباس أن المراد من هذا الرجل يجلس مع القوم، ويسمع الحديث في ذلك المجلس محاسن ومساوىء، فيحدث بأحسن ما سمع، ويترك ما سواه.

وقرأ السوسي «عبادي» بياء مفتوحة في الوصل ساكنة في الوقف. والباقون بغير الياء. {أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَاهُمُ ٱللَّهُ} للصواب ولمحاسن الأمور {وَأُوْلَٰئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلأَلْبَٰبِ} أي هم ذوو العقول السليمة عن منازعة الهوى، {أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ} أي أفمن ثبت عليه كلمة العذاب أفأنت تهدي من هو منغمس في الضلال بدعائك له إلى الإيمان فتنقذه من النار. وهذا تنبيه على أن المحكوم عليه بالعذاب بمنزلة الواقع في النار. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحرص على إيمان قوم، وقد سبقت لهم من الله الشقاوة، فنزلت هذه الآية.

قال ابن عباس: نزلت في حق أبي لهب وولده ومن تخلف من عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان. {لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ رَبَّهُمْ} بأن أطاعوه {لَهُمْ غُرَفٌ} أي منازل في الجنة رفيعة {مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ} أي من فوق تلك المنازل منازل أرفع منها {مَّبْنِيَّةٌ} أي قوية كبناء المنازل المبنية على الأرض في الأحكام بخلاف منازل الدنيا، فالفوقاني فضيلته الارتفاع ونقصانه السخافة، والتحتاني فضيلته القوة ونقصانه التسفل. أما منازل

الجنة فهي مستجمعة للفضائل، فهي مرتفعة قوية وقوله تعالى: {لَكِنِ} إضراب عن قصة إلى قصة مخالفة للأولى، وليست للاستدراك {تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَـٰرُ} أي تجري من تحت تلك الغرف الفوقانية والتحتانية الأنهار المختلفة من غير تفاوت بين العلو والسفل {وَعْدَ ٱللَّهِ} أي وعدهم الله بذلك وعداً، وهو مصدر مؤكد لمضمون الجملة أن الله {لاَ يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ} أي وعده للمؤمنين. وفي الآية دقيقة شريفة وهي أنه تعالى لم يذكر في آيات الوعيد ألبتة مثل هذا التأكيد، وذلك يدل على أن جانب الوعد من جانب الوعيد. أما قوله تعالى: {مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ} (ق: 92) ليس تصريحاً بجانب الوعيد بل هو كلام عام يتناول الوعد والوعيد، فثبت أن ترجيح الوعد حق خلافاً للمعتزلة.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى ٱلأَرْضِ}؟ أي ألم تعلم أن الله أنزل من السماء مطراً إلى بعض المواضع، ثم يقسمه فيدخله في مجاري في خلال الأرض كالعروق في الأجساد. ويقال: فيدخل ذلك المطر في خلال الأرض حال كونه مياهاً نابعة في الأرض، {ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ} أي ينبت بالمطر {زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ} أي أصنافه من بر وشعير وسمسم وغيرها، وصفاته من طعوم وألوان خضرة، وحمرة، وصفرة، وبياض وغير ذلك. {ثُمَّ يَهِيجُ} أي يتم جفافه {فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً} بعد خضرته.

وقرىء مصفاراً {ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَماً} أي منكسرة {إِنَّ فِى ذَلِكَ} أي المذكور من الأفعال الخمسة {لَذِكْرَىٰ لأُوْلِى ٱلأَلْبَـٰبِ}، أي لتذكيراً عظيماً لأصحاب العقول الصافية يتذكرون بذلك أن حال الحياة الدنيا في سرعة الانصرام كما يشاهدونه من حال الحطام كل عام، فلا يغترون ببهجتها، ويجزمون بأن من قدر على إنزال الماء من السماء وإجرائه في عيون الأرض قادر على إجراء الأنهار من تحت الغرف في الجنة، {أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ} أي أكل الناس سواء فمن جعله مستعداً للإسلام فهو على هداية من ربه ف «من» شرطية وخبرها ما بعدها.

وقيل: اسم موصول مبتدأ خبره محذوف والتقدير: أفمن شرح الله صدره للإسلام فاهتدى فهو على لطف إلٰهي فائض عليه كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته {فَوَيْلٌ}، أي عذاب وخسران {لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ}، أي من أجل ذكر الله، فإذا سمعوه نفروا وازدادوا قسوة، ولما نزل قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنْسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مّن طِينٍ} (المؤمنون: 21) وكان قد حضر هناك عمر بن الخطاب وإنسان آخر، فلما انتهى رسول الله صلى

الله عليه وسلم إلى قوله تعالى: {ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً} (المؤمنون: 41) قال كل واحد من القوم فتبارك الله أحسن الخالقين. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اكتب فهكذا أنزلت». فازداد عمر إيماناً على إيمان وازداد ذلك الإنسان كفراً على كفر.

وقرىء «عن ذكر الله»، أي عن قبول ذكر الله {أُوْلَٰئِكَ} أي الذين قست قلوبهم {فِى ضَلَٰلٍ} أي بعد عن الحق {مُّبِينٍ}، أي ظاهر كونه ضلالاً لكل أحد قيل: نزلت هذه الآية في حمزة وعلي رضي الله عنهما، وأبي لهب وولده. وقيل: في عمار بن ياسر، وأبي جهل وأصحابه. {ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ} بحسب لفظه لفصاحته وجزالته وبحسب معناه لاشتماله على الغيوب الكثيرة في الماضي والمستقبل، ولأن العلوم الموجودة فيه كثيرة جداً، {كِتَٰباً مُّتَشَٰبِهاً} أي يشبه بعضه بعضاً كما قاله ابن عباس فإن كل ما فيه من الآيات يقوي بعضها بعضاً. والمقصود منها بأسرها الدعوى إلى الدين وتقرير عظمة الله، {مَّثَانِيَ} فإنه أكثر الأشياء المذكورة وقعت زوجين زوجين: آية الرحمة والعذاب، وآية الوعد والوعيد، وآية الأمر والنهي، وآية القصص والأحكام وغير ذلك. {تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ} فإن الإنسان إذا تأمل في الدلائل الدالة على أنه يجب تنزيه الله عن التحيز والجهة فهٰهنا يقشعر جلده، لأن إثبات موجود لا داخل العالم ولا خارج عنه، ولا متصل بالعالم، ولا منفصل عنه مما يصعب تصوره فهٰهنا تقشعر الجلود، وإذا تأمل في الدلائل الدالة على أنه يجب أن يكون الله تعالى فرداً أحداً، وثبت أن كل متحيز منقسم فهٰهنا يلين جلده وقلبه إلى ذكر الله، و «عدي» و «تلين» ب «إلى»، لأن تقدير الكلام: تلين جلودهم وقلوبهم حال وصولها إلى حضرة الله، وهو لا يحسن بالإدراك ويقال: إنهم إذا سمعوا القرآن وذكر آيات العذاب أصابتهم خشية أو ذكر آيات الرحمة اطمأنت جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله وإنما قال الله إلى ذكر الله، ولم يقل إلى ذكر رحمة الله، لأن المحب المحق الذي في الدرجة العالية هو من أحب الله لا لشيء سواه، وأما من أحب الله لأجل رحمته، فهو ما أحب الله وإنما أحب شيئاً غيره {ذَٰلِكَ} أي الكتاب الذي هو أحسن الحديث {هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَآءُ} وهو الذي شرح صدره لقبول هذه الهداية، {وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ} أي ومن جعل الله قلبه قاسياً مظلماً بليد الفهم، منافياً لقبول هذه الهداية {فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}، يخلصه من ورطة الضلال.

وقرأ ابن كثير بإثبات الياء في الوقف.

{أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِ سُوۤءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ} والهمزة للاستفهام الإنكاري، والفاء عاطفة على جملة مقدر، و «من» اسم موصول مبتدأ وخبره محذوف. وقيل: معطوف على «يتقي». وتقدير الكلام: أكل الناس سواء فمن يجعل وجهه قائماً مقام الدرقة يقي به وجهه العذاب الشديد يوم القيامة وتقول لهم خزنة النار: ذوقوا عذاب ما كنتم تكسبونه في الدنيا، كمن هو آمن من العذابٰ قيل: يلقى الكافر في النار مغلوبة يداه إلى عنقه، وفي عنقه صخرة من كبريت مثل الجبل العظيم فتشتعل النار فيها وهي في عنقه فحرها على وجهه لا يطيق دفعها عنه للأغلال التي في يديه وعنقه. قيل: نزلت هذه الآية في حق أبي جهل وأصحابه. {كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} أي قبل قومك من الأمم السالفة، {فَأَتٰهُمُ ٱلْعَذَابُ} المقدر لكل أمة منهم {مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ}، أي من الجهة التي لا يحتسبون، ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها بينما هم آمنون إذ أتاهم العذاب من الجهة التي توقعوا الأمن منها {فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ} أي الذل {فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلاٰخِرَةِ أَكْبَرُ}، أي فالعذاب المدخر لهم في يوم القيامة أعظم من ذلك الذي وقع، {لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} عذاب الآخرة ما كذبوا رسلهم، ولكن لا علم لهم أصلاً، {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا} بيَّنا {لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ} أي وجه يحتاج إليه الناظر في أمور دينه {لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}، أي كي يتعظوا به {قُرْءَاناً عَرَبِيّاً}، أي أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته {غَيْرَ ذِى عِوَجٍ} أي بريئاً عن التناقض.

وقيل: أي غير مخالف لسائر الكتب كالتوراة والإنجيل والزبور بالتوحيد. وقال السدي: أي غير مخلوق. {لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} أي لكي يتقوا بالقرآن عما نهاهم الله تعالى {ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً} ف «مثلاً». مفعول ثانٍ ل «ضرب» و «رجلاً» مفعوله الأول. {فِيهِ شُرَكَآءُ} أي سادات {مُتَشَٰكِسُونَ} أي متخالفون، سيئة أخلاقهم {وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ}، أي ورجلاً خالصاً لسيد واحد.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو «سالماً» بالألف وكسر اللام. والباقون بفتح السين واللام بغير الألف. وقرىء «سلماً» بفتح السين وكسرها مع سكون اللام. وقرىء «ورجل سالم» بالرفع على الابتداء، أي وهناك رجل سالم لرجل {هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً} أي صفة، أي هل يستوي حالاهما وصفتاهما. والمعنى اضرب يا أشرف الرسل لقومك مثلاً وقل: ما تقولون في رجل مملوك قد اشترك فيه شركاء بينهم تنازع، فكل واحد منهم يدَّعي أنه عبده، فهم يتجاذبون في حوائجهم، وهو متحيِّر في أمره، فكلما أرضى

أحدهم غضب الباقون، وإذا احتاج في مهم إليهم، فكل واحد منهم يرده إلى الآخر فهو يبقى متحيراً لا يعرف أيهم أولى بأن يطلب رضاه، وأيهم يعينه في حاجاته فهو بهذا السبب يلقى منهم التعب العظيم، وفي رجل آخر له مخدوم واحد يخدمه على سبيل الإخلاص وذلك السيد يعينه على حاجاته، فإن أطاعه عرف له وإن أخطأ صفح عن خطأه فأيّ هذين العبدين أحسن حالاً وأحمد شأناً، وأقل تعباً وهذا مثل ضربه الله الكافر الذي يعبد آلهة شتى، والمؤمن الذي يعبد الله وحده. {ٱلْحَمْدُ للَّهِ} أي لما بطل القول بإثبات الشركاء وثبت أنه لا إله إلاّ الله الواحد الأحد ثبت أن الحمد له لا لغيره، {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} أن الحمد له تعالى لا لغيره وأن المستحق للعبادة هو الله لا غيره، ويقال: لا يعلمون أمثال القرآن {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ} أي كفار مكة {مَّيِّتُونَ} أي إنك وإياهم، وإن كنتم أحياء في أعداد الموتى {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} أي تتكلمون أنتم ورؤساء الكفار بالحجة. والمراد أن هؤلاء الأقوام وإن لم يلتفتوا إلى هذه الدلائل القاهرة بسبب استيلاء الحرص والحسد عليهم في الدنيا، فلا تبال يا أشرف الرسل بهذا، فإنك ستموت وهم سيموتون أيضاً، ثم تحشرون يوم القيامة وتختصمون عند الله تعالى، والعادل الحق يحكم بينكم، فيوصل إلى كل واحد ما هو حقه وحينئذٍ يتميز الحق من الباطل.

{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ علَى ٱللَّهِ} أي لا أحد أظلم ممن أثبتوا لله ولداً. وشركاء. و «كذب» بتخفيف الذال، {وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ} أي بالأمر الذي هو نفس الصدق وهو ما جاء النبي صلى الله عليه وسلم: من لا إله إلاّ الله والقرآن وغير ذلك. {إِذْ جَآءَهُ} أي في أول مجيء ذلك الأمر من غير تدبر فيه {أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ}، أي لهؤلاء الذين افتروا على الله وسارعوا إلى تكذيب الصدق من أول الأمر، {وَ ٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ} أي بعين الحق {وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ}، أي المنعوتون بالتقوى، والموصول عبارة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي صدّق بنفس الصدق هو أبو بكر. وهذا القول مروي عن علي بن أبي طالب، وجماعة من المفسرين. وقيل: المراد من الموصول كل من جاء بالصدق، وهم الأنبياء والذي صدق به الأتباع، ويؤيد هذا القول قراءة ابن مسعود رضي الله عنه، والذي جاءوا بالصدق وصدقوا به.

وقرىء «وصدَق به» بتخفيف الدال، أي صدق الرسول بذلك الصدق الذي هو بمعنى القرآن الناس، ولم يكذبهم بأن أداه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف.

وقيل: صار الرسول صادقاً بسبب الصدق الذي هو القرآن، لأنه معجزة، وهي تصديق من الله تعالى، فيصير المدعي للرسالة صادقاً بسبب تلك المعجزة.

وقرىء وصدق به على البناء للمفعول، أي صدق الرسول بالقرآن، {لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ} أي لهم كل ما يشاءونه من جلب المنافع ودفع المضار في الآخرة لا في الجنة فقط لما أن بعض ما يشاءونه من تكفير السيئات والأمن من الفزع الأكبر، وسائر أهوال القيامة، إنما يقع قبل دخول الجنة، {ذَلِكَ} أي حصول ما يشاءونه {جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ} أي الذين أحسنوا أعمالهم {لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ} أي أقبح أعمالهم دفعاً لمضارهم {وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ} أي بإحسانهم، إعطاء لمنافعهم. والمراد أنهم إذا صدقوا الأنبياء عليهم السلام فيما أتوا فإن الله يكفر عنهم أسوأ أعمالهم وهو الكفر السابق على ذلك الإيمان ويوصل إليهم أحسن أنواع الثواب. وقوله تعالى: {لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ} بمتعلق بقوله تعالى: {لَهُم مَّا يَشَاءونَ}، باعتبار فحواه حيث كان إخباراً بما سيثبت لهم فيما سيأتي، وهو في معنى الوعد كأنه قيل وعدهم الله جميع ما يشاءونه من زوال المضار وحصول المسار، ليكفر عنهم بموجب ذلك الوعد أسوأ الذي عملوا إلخ. {أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} وهو محمد صلى الله عليه وسلم كما قال السدي ويقال: هو خالد بن الوليد مما يريدون به.

وقرأ حمزة والكسائي «عباده»، وهم الأنبياء عليهم السلام، فإن قومهم قصدوهم بسوء لقوله تعالى: {وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ} (غافر: 5) ودخول همزة الإنكار على كلمة النفي تفيد معنى إثبات الكفاية، أي هو كافٍ عبده {وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِ} تعالى، وهم اللات والعزى ومناة أي إن قريشاً يقولون لك: يا محمد لا تشتمها ولا تعبها فتخبلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وروي أنه صلى الله عليه وسلم بعث خالداً إلى العزى ليكسرها فقال له سادنها. لا تدركها أحذركها يا خالد إن لها شدة لا يقوم لها شيء، فعمد خالد إليها، فهشم أنفها، فنزلت هذه الآية {وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ} عن دينه حتى غفل عن كفاية الله لعبده محمد وخوفه بما لا ينفع ولا يضر {فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}، أي مرشداً إلى دينه {وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ} لدينه {فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ} عن دينه، {أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ} أي غالب على أمره {ذِى ٱنتِقَامٍ} من أعدائه لأوليائه.

{وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ} أي كفار مكة {مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ} خلقهما لوضوح الدليل على تفرده تعالى بكونه خالقاً لهما. {قُلْ} تبكيتاً لهم: {أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ} أي إذا لم يكن خالق سوى الله تعالى وقد أقررتم بأن خالق العالم العلوي والسفلي هو الله تعالى، فأخبروني بأن ما تعبدون من غير الله وهي اللات والعزى ومناة، {إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ} أي بلاء {هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِ}، أي رافعات بلائه تعالى عني، {أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ} أي بنفع {هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِ}، أي مانعات نعمته عني حتى تأمروني بعبادتها وتخوفوني معرتها وقوله تعالى: {أَفَرَءَيْتُمُ} متعدٍ لاثنين: أولهما: «ما تدعون». والثاني: الجملة الاستفامية.

وقرأ أبو عمرو بتنوين «كاشفات» و «ممسكات» ونصب «ضره» و «رحمته». وروي أنه صلى الله عليه وسلم لما سألهم قالوا: لا، أي لا تكشف ولا تمسك فنزل قوله تعالى: {قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ}. أي قل لهم: إذا كان الأمر كذلك كانت عبادة الله كافية، وكان الاعتماد عليه كافياً، فثقتي في جميع أموري من إصابة الخير، ودفع الشر بالله تعالى، وبه تعالى يثق الواثقون لا على غيره أصلاً، لعلمهم بأن كل ما سواه تعالى تحت ملكوته تعالى. {قُلْ يٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ} أي على حالتكم، وهي الكفر والعناد.

وقرأ شعبة «مكاناتكم» بالجمع. وهو مروي عن عاصم أيضاً {إِنِّى عَٰمِلٌ} على حالتي {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَمَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ} أي يهلكه في الدنيا {وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ}، أي ومن ينزل عليه عذاب دائم هو عذاب النار، و «من» موصولة مفعول «تعلمون»، والأمر للتهديد أي أنتم تعتقدون في أنفسكم أنكم في نهاية القوة، فاجتهدوا في أنواع كيدكم، فإني عامل في تقرير ديني، فسوف تعلمون أن الخزي في الدنيا بالجوع والسيف، والعذاب الدائم في الآخرة يصيبني أو يصيبكم. {إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ} أي لنفع الناس ولاهتدائهم به، {بِٱلْحَق} أي مقروناً بالحق، وهو المعجز الذي يدل على أنه من عند الله، {فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ} أي فمن عمل بما فيه فنفعه يعود إلى نفسه، {وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} أي ومن لم يعمل بما فيه فضير ضلاله يعود إلى نفسه، {وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} أي إنك لست مأموراً بأن تجبرهم على الإيمان والهدى، وما وظيفتك إلاّ البلاغ، فالهداية والضلال لا يحصلان إلاّ من الله تعالى، ومن عرف هذه الحقيقة فقد عرف سر الله في القدر ومن عرف سر الله في القدر هانت عليه

المصائب. {ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلأَنفُسَ حِينَ مِوْتِهَا وَ ٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا} أي الله يقبض الأرواح من الأبدان حين موت أجسادها بخلق الموت، وإزالة الحس بالكلية، ويقبض الأرواح التي لم تمت حين تنام بإزالة الإدراك وخلق الغفلة في محل الإدراك، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف {فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ} فلا يردها إلى البدن.

وقرأ حمزة والكسائي «قضى» على البناء للمفعول ورفع الموت، {وَيُرْسِلُ ٱلأُخْرَىٰ} أي يزيل الحابس عن النائمة، فتعود عند التيقظ كما كانت {إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى} وهو وقت النفخة الثانية في الممسوكة، ووقت الموت في المرسلة، فالجار والمجرور متعلق بكل من «يمسك» و «يرسل».

قال ابن عباس وغيره من المفسرين: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى الأجساد أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها.

وقال علي رضي الله عنه: فما رأته نفس النائم وهي في السماء قبل إرسالها إلى جسدها فهي الرؤيا الصادقة، وما رأته بعد إرسالها وقبل استقرارها في جسدها فهي الرؤيا الكاذبة، لأنها من إلقاء الشيطان. {إِنَّ فِى ذَٰلِكَ} أي التوفي على الوجهين والإمساك في أحدهما والإرسال في الآخر {لآيَٰتٍ} عجيبة دالة على كمال قدرته تعالى وحكمته وشمول رحمته، {لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} في كيفية تعلق الأرواح بالأبدان، وقبضها عنها تارة بالكلية كما عند الموت، وحبسها عن التصرف تارة أخرى كما عند النوم، وإزالة حبسها عنه حيناً بعد حين إلى انقضاء آجالها،

{أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ} أي إن الكفار قالوا: نحن لا نعبد هذه الأصنام لاعتقاد أنها آلهة تضر وتنفع وإنما نعبدها لأجل أنها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقربين، فنحن نعبدها لأجل أن يصير أولئك الأكابر شفعاء لنا عند الله تعالى، فأجاب الله تعالى بقوله: {بَلِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ تَعَالَى شُفَعَاءَ} تشفع لهم عنده تعالى {قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ يَعْقِلُونَ} أي قل لهم أيشفعون في حال كونهم لا يملكون شيئاً من الأشياء، وفي حال كونهم لا يعقلونه؟ {قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعاً} أي أن هؤلاء الكفار إما أن يطمعوا في تلك الشفاعة من هذه الأصنام، أو من أولئك العلماء الذين جعلت هذه الأصنام تماثيل لهم، فهذه الأصنام لا تملك شيئاً ولا تعقله، فكيف يعقل صدور الشفاعة عنها ولا يملك أحد من العلماء وغيرهم شيئاً؟ ولا يقدر أحد على الشفاعة إلاّ بإذن

الله؟ فيكون الشفيع في الحقيقة هو الله لأنه الذي يأذن في الشفاعة، فكان الاشتغال بعبادته أولى من الاشتغال بعبادة غيره. {لَّهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ} أي له ملكها، وما فيهما من المخلوقات، لا يملك أحد أن يتكلم في أمر من أموره بدون إذنه تعالى ورضاه، {ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} يوم القيامة فيفعل يومئذٍ ما يريد {وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ} دون الآلهة { ٱشْمَأَزَّتْ} أي انقبضت {قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِٱلآخِرَةِ}، أي بالبعث بعد الموت حتى يظهر أثر ذلك الانقباض في أديم الوجه، {وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِ} أي فرادى، أو مع ذكر الله {إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} حتى يظهر أثر ذلك السرور في بشرة الوجه. {قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ عَالِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ}، أي يا عالم ما غاب عن العباد وما علموه، {أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ} من أمر الدين. وعن أبي سلمة قال: سألت عائشة رضي الله عنها بم كان يفتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته بالليل؟ قالت: كان يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السمٰوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك لتهدي من تشاء إلى صراط مستقيم». {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ مِن سُوۤءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ} أي لو أن لهؤلاء الكفار جميع ما في الدنيا من الأموال ومثله معه لجعلوا كل ذلك فدية لأنفسهم من العذاب الشديد يوم القيامة، {وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ}، أي ظهر لهم من فنون العقوبات ما لم يكن في حسابهم {وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ} أي وظهر لهم سيئات كسبهم حين تعرض عليهم صحائفهم، {وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ} أي أحاط بهم من كل الجوانب جزاء ما كانوا يستهزئون به، {فَإِذَا مَسَّ ٱلإِنسَٰنَ} أي الكافر {ضُرٌّ} أي فقر ومرض، {دَعَانَا} أي يفزعون إلينا ويعتقدون أن دفع ذلك لا يكون إلاّ منّا، {ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا} أي إذا أعطيناه مالاً أو عافية في البدن تفضلاً منا. {قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ} أي خير علمه الله مني، فإن كانت النعمة سعة في المال قال: إنما حصل هذا بكسبي، وإن كانت صحة قال: إنما حصلت هذه الصحة بسبب العلاج الفلاني. {بَلْ هِىَ} أي النعمة {فِتْنَةٌ} أي اختبار أيشكر أم يكفر، ذلك لأن عند حصولها يجب الشكر وعند فواتها يجب التصبر، ويختبر بها من أوتي النعمة. {وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ} أي هؤلاء القائلين هذا الكلام {لاَ يَعْلَمُونَ} أي هذا التخويل، إنما كان لأجل اختبار أي إنا نتفضل على ذلك الإنسان وهو يظن أنه إنما وجده بالاستحقاق،

{قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} أي قد قال الذين من قبل قومك يا أفضل الخلق مثل هذه المقالة وذلك مثل قارون وغيره {فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} أي فما دفع عنهم ما كانوا يكسبون من متاع الدنيا، ويجمعون منه شيئاً من عذاب الله، {فَأَصَٰبَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ} أي بل أصابهم جزاء أعمالهم من العذاب، {وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ} بالعتو {مِنْ هَٰؤُلاَءِ} أي من مشركي قومك {سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ} أي عقوبات ما عملوا كما أصاب الأمم، {وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ} أي هم لا يعجزونني في الدنيا والآخرة.

{أَوَلَمْ يَعْلَمُوۤاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ}، أي أقالوا ذلك ولم يعلموا أن الله يوسع الرزق لمن يشاء، وإن كان لا قوة له ويضيق الرزق لمن يشاء، وإن كان قوياً شديد الحيلة، وليس ذلك لأجل الطبائع والأنجم لأن الساعة التي ولد فيها السلطان قد ولد فيها أنواع الناس، وأنوع الحيوانات، وأنواع النباتات، وحدوث هذه الأشياء الكثيرة في الساعة الواحدة مع كونها مختلفة في السعادة والشقاوة دليل على أن المؤثر فيه هو الله تعالى وحده دون الطوالع قال الشاعر: فلا السعد يقضي به المشتري ولا النحس يقضي علينا زحل ولكنه حكم رب السما وقاضي القضاة تعالى وجل {إِنَّ فِى ذَٰلِكَ} أي البسط والتضييق {لأيٰتٍ} دالة على أن الحوادث كلها من الله تعالى {لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} إذ هم المستدلون بها على مدلولاتها. {قُلْ يٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ}، أي أفرطوا في الجناية عليها بالمعاصي. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي بسكون الياء وسقوطها في الوصل. والباقون بفتحها وكلهم يقفون بإثبات الياء إلا في بعض روايات أبي بكر عن عاصم، فإنه يقف بغير ياء. {لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ} لا تيأسوا من مغفرة الله وتفضله، أي واقلعوا عن ذنوبكم فإنها قاطعة عن الخير مبعدة عن الكمال، {إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً}، أي بالتوبة إذا صحت توبته، ومن مات قبل أن يتوب فهو موكول إلى مشيئة الله تعالى فيه، فإن شاء غفر له، وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه، ثم يدخله الجنة بفضله ورحمته. فالتوبة واجبة في كل واحد وخوف العقاب قائم. {إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ} لمن تاب من الكفر وآمن بالله. قيل: إن هذه الآية نزلت في أهل مكة فإنهم قالوا: يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس لم يغفر له، وقد عبدنا وقتلنا فكيف نسلم؟ وعن ابن عمر قال: كنا معشر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نرى ليس شيء من حسناتنا إلاّ وهي مقبولة حتى نزلت: {أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُواْ أَعْمَٰلَكُمْ} (محمد: 33) فلما نزلت هذه الآية

قلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقيل لنا: الكبائر والفواحش فكنا إذا رأينا من أصاب منها شيئاً خفنا عليه، ومن لم يصب منها شيئاً رجونا له. فأنزل الله تعالى: {قُلْ يٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ} وأراد بالإسراف ارتكاب الكبائر. {وَأَنِيبُوۤاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ}، أي أقبلوا إلى ربكم بالتوبة من الكفر، {وَأَسْلِمُواْ لَهُ} أي أطيعوا الله {مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ} إن لم تتوبوا، {ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ} أي لا تمنعون من عذاب الله نزلت هذه الآية في وحشي وأصحابه {وَ ٱتَّبِعُوۤاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ} وهو القرآن لقوله تعالى: {ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتٰباً}.

وقال الحسن معناه: والتزموا إطاعة الله واجتنبوا معصية الله فإن الذي أنزل على ثلاثة أوجه ذكر القبيح ليتجنب عنه، والأدون لئلا يرغب فيه، والأحسن ليتبع وليتقوّى به. {مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ} بمجيئه لتتأهبوا له، {أن تَقُولَ نَفْسٌ} مفعول لأجله، أي أنيبوا إلخ كراهة أن تقول نفس: {يٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ ٱللَّهِ} أي يا ندامتا على تفريطي في حق الله وأمره وطاعته، {وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ} أي والحال إني كنت لمن المستهزئين بدين الله وأهله، {أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَانِى} أي بيّن لي الإيمان {لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ} أي من الموحدين.

{أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً} أي رجعة إلى دار الدنيا، {فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ} في العقيدة والعمل. فيقول الله تعالى رداً على ذلك: {بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايٰتِى} أي وهي القرآن، مرشدة لك {فَكَذَّبْتَ بِهَا وَ ٱسْتَكْبَرْتَ} أي تكبرت عن الإيمان بها {وَكُنتَ مِنَ ٱلْكٰفِرِينَ}. فبيَّن الله تعالى أن الحجة عليهم لله لا أن الحجة لهم على الله. {وَيَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ} بأن وصفوه بما لا يليق بشأنه تعالى كاتخاذه تعالى الولد. وكقولهم: إن الله تعالى حرم البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام. وبأن وصفوا الأصنام بالآلهة. {وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ} سواداً مخالفاً لسائر أنواع السواد وهو سواد يدل على الجهل بالله والكذب على الله، {أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ} ؟ أي منزل للمتكبرين عن الإيمان والطاعة. {وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ}. وقرأ حمزة والكسائي، وأبو بكر عن عاصم «بمفازاتهم» بالجمع، أي ينجي الله الذين بالغوا في وقاية أنفسهم من غضبه تعالى من منزل المتكبرين ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم الذي هو الجنة، فكما وقاهم الله في الدنيا من المخالفات حماهم

في الآخرة من العقوبات، {لاَ يَمَسُّهُمُ ٱ لسُّوۤءُ} أي العذاب، {وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} على فائت، لأنه لا يفوت لهم شيء أصلاً. وقيل: المعنى أن النجاة في القيامة حصلت بسبب فوزهم في الدنيا بالطاعات والخيرات، ثم فسرت تلك النجاة بقوله تعالى: {لاَ يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوء} إلخ {ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ} من خير وشر وإيمان وكفر بمباشرة الكاسب لأسبابها، {وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ} أي إن الأشياء كلها موكولة إليه تعالى، فهو القائم بحفظها وتدبيرها من غير منازع ولا مشارك، فيتولى التصرف فيها كيفما يشاء {لَّهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلاٌّرْضِ}، أي له تعالى مفاتيحها لا يتمكن من التصرف فيها غيره. وقيل: سأل عثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى: {لَّهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلاْرْضِ} فقال: «يا عثمان ما سألني عنها أحد قبلك، تفسيرها: لا إله إلاّ الله، والله أكبر، سبحان الله، وبحمده، أستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير». والمعنى أن لله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد بيده وهي مفاتيح خير السمٰوات والأرض، من تكلم بها من المتقين أصابه. وقال قتادة ومقاتل: له مفاتيح السمٰوات والأرض بالرزق والرحمة. وقال الكلبي: له خزائن المطر والنبات. {وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأايٰتِ ٱللَّهِ} أي الناطقة بكونه تعالى خالقاً للأشياء كلها وكونه مالكاً مقاليد السمٰوات والأرض بأسرها، {أُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ} خسراناً لا خسار وراءه.

{قُلْ} يا أشرف الخلق لأهل مكة حيث قالوا له: أسلم ببعض آلهتنا ونؤمن بإلهك : {أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ}؟ أي بعد مشاهدة الآيات الدالة على انفراده تعالى أعبد غيره تعالى بأمركم. و«غير الله» منصوب ب«أعبد»، و«تأمروني» اعتراض. وقيل: «أن أعبد» معمول ل«تأمروني» على إضمار «أن» المصدرية، فلما حذفت بطل عملها وجاز تقديم معمول صلة «أن» على الموصول ب«أن» المحذوفة، والأصل: أتأمروني بأن أعبد غير الله ويؤيد هذا القول قراءة «أعبد» بالنصب. وقرأ نافع «تأمروني» بنون واحدة مخففة مع فتح الياء، وهي نون الرفع كسرت للمناسبة. وابن كثير بنون مشددة وفتح الياء وابن عامر بنونين ساكنة الياء والباقون بنون واحدة مشددة وسكون الياء. {وَلَقَدْ أُوْحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ} من الرسل عليهم السلام: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ}. وهذه قضية شرطية، والقضية الشرطية لا يلزم من صدقها صدق جزأيها كقوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا اٰلِهَةٌ إِلاَّ ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا}

(الأنبياء: 22) ، ولم يلزم من هذا صدق أن فيهما آلهة وأنهما قد فسدتا، {بَلِ ٱللَّهَ فَ ٱعْبُدْ}. وهذا رد لما أمروه صلى الله عليه وسلم به من الإسلام ببعض آلهتهم كأنه صلى الله عليه وسلم قال: إنكم تأمرونني بأن لا أعبد إلاّ غير الله، وكأنه تعالى قال: فلا تعبد إلاّ الله. {وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ} لله على ما هداك إلى أنه لا يجوز إلاّ عبادة الإله القادر العليم الحكيم، وعلى ما أرشدك إلى أنه يجب الإعراض عن عبادة كل ما سوى الله تعالى، ،{وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ وَٱلسَّمٰوٰتُ مَطْوِيَّٰتٌ بِيَمِينِهِ} أي وما عظموا الله حق تعظيمه، أي تعظيماً لائقاً به تعالى بل أنزلوه عن قدره ومنزلته، إذ زعموا أن له شركاء، وأنه لا يقدر على إحياء الموتى. والحال أن الأرض جميعاً مقدورته تعالى يوم القيامة والسمٰوات مطويات بقدرته تعالى، أو ما عرفوا الله حق معرفته حيث وصفوه بما لا يليق بشؤونه الجليلة، حيث قالوا: يد الله مغلولة. وقالوا: إن الله فقير يطلب منا القرض إلخ، ومقصود هذه الآية إشارة إلى أن المتولي لإبقاء السمٰوات والأرض في هذه الدار هو المتولي لتخريبهما يوم القيامة، وذلك يدل على قدرته التامة على الإيجاد والإعدام، فإذا حاول تخريب الأرض يزيلها، فكأنه يقبض قبضة صغيرة ويريد إفناءها، وذلك يدل على كمال الاستغناء.

وقرىء «قبضة» بالنصب على الظرف، أي في ملكه تعالى وقدرته.

وقرىء «مطويات» بالنصب على الحال و«السمٰوات» معطوفة على الأرض. {سُبْحَٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ} أي إن هذا القادر القاهر العظيم الذي حارت العقول في وصف عظمته، تنزه عن أن تجعل الأصنام شركاء له في المعبودية وأن يكون تعالى عاجزاً ومحتاجاً إلى شيء، {وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ} نفخة الموت {فَصَعِقَ} أي مات {مَن فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَمَن فِى ٱلأَرْضِ إِلاَّ مَن شَآءَ ٱللَّهُ}.

قال كعب الأحبار: هم اثنا عشر جبريل وميكائيل وإسرافيل، وملك الموت، وحملة العرش، وهم ثمانية. {ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ} أي الصور بعد أربعين سنة نفخة {أُخْرَىٰ} وهي نفخة البعث تمطر السماء كنطف الرجال، {فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ} من قبورهم {يَنظُرُونَ}، أي يقلبون أبصارهم في الجوانب كالمبهوتين، و«ينظرون» حال من ضمير «قيام» وقرىء «قياماً» بالنصب على الحال من ضمير «ينظرون»، فهو حينئذٍ خبر المبتدأ {وَأَشْرَقَتِ ٱلأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} أي وأضاءت الأرض الجديدة التي يوجدها الله في ذلك الوقت

لتحشر الناس فيها بعدل ربها، {وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ} أي صحائف الأعمال وهي ديوان الحفظة في أيدي العمال، {وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّيْنَ وَٱلشُّهَدَآءِ}، أي الذين يشهدون على الأمم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ومن الملائكة الحفظة، {وَقُضِيَ بَيْنَهُم} أي بين العباد {بِٱلْحَقِّ} أي بالعدل، {وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} أي لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم، {وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ}، أي وفيت كل نفس برة وفاجرة جزاء ما عملته من خير وشر، {وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ} ولا حاجة به تعالى إلى كتاب ولا إلى شاهد ومع ذلك تشهد الكتب والشهود إلزاماً للحجة. {وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ} بالعنف والدفع، {زُمَراً} أي أفواجاً متفرقة بعضها عقب بعض على حسب ترتب طبقاتهم في الضلالة والشرارة، {حَتَّىٰ إِذَا جَآءُوهَا} أي جهنم {فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا} أي طرقها لهم ولم تكن قبل ذلك مفتوحة، {وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ} وهم الزبانية تقريعاً وتوبيخاً: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ} أي من جنسكم؟ وقرىء «نذر منكم»؟ {يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ} من القرآن وغيره، {وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا}، أي لقاء وقتكم هذا هو وقت دخولهم النار؟ {قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ} أي بلى قد أتونا وتلوا علينا وأنذرونا، ولكن ثبتت علينا كلمة العذاب، ومن وجبت عليه كلمة العذاب فكيف يمكنه الخلاص من العذاب؟

{قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ} أي ثم إن الملائكة إذا سمعوا منهم هذا الكلام قالوا لهم: ادخلوا {أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا} أي مقدراً خلودكم فيها، {فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ} أي على الأنبياء جهنم، أي أنهم دخلوا النار، لأنهم تعظموا عن الإيمان بالرسل ولم يقبلوا قولهم، ولم يلتفتوا إلى دلائلهم. {وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ} مساق إعزاز وتشريف للإسراع بهم إلى دار الكرامة، ولأن بعضهم قالوا: لا ندخلها حتى يدخلها أحبائي وأصدقائي، ولأن بعضهم استغرقوا في مشاهدة مواقف الجلال والجمال، وهي مانعة لهم عن الرغبة في الجنة وكلهم راكبون فتساق مراكبهم {زُمَراً}، أي متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم في الفضل وعلو الطبقة {حَتَّىٰ إِذَا جَآءُوهَا} أي الجنة {وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا} «الواو» للحال أي وقد فتحت أبوابها قبل وصولهم إليها، {وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا} على باب الجنان: {سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ} من كل الآفات {طِبْتُمْ}، أي صلحتم لكسناها، لأنكم نظفتم من دنس المعاصي، وطهرتم من خبث الخطايا، {فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ} وجواب «إذا» محذوف تقديره: اطمأنوا وسعدوا. {وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ للَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ} في

قوله تعالى: لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. {وَأَوْرَثَنَا ٱلأَرْضَ}، أي أورثنا الله أرض الجنة بأن وفقنا للإتيان بأعمال أورثت الجنة {نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ} أي ينزل كل واحد في أي مكان أراده من جنته الواسعة، فهو يتخير في منازل قسمه فلا يختار أحد مكان غيره مع أن في الجنة مقامات معنوية لا يتمانع واردوها، {فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ} الجنة. وهذا من كلام الله تعالى {وَتَرَى ٱلْمَلَٰئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ} أي محدقين بالعرش، أي كما أن دار ثواب المتقين هي الجنة، فكذلك دار ثواب الملائكة هو جوانب العرش وأطرافه، {يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} فثوابهم هو عين ذلك التحميد والتسبيح، وأعظم درجات الثواب استغراق قلوب العباد في درجات التنزيه ومنازل التقديس، {وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِٱلْحَقِّ} أي إن الملائكة على مراتب متفاوتة فلكل واحد منهم في درجات المعرفة والطاعة حد محدود لا يتجاوزه {وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ}، أي قال الملائكة: الحمد لله رب العالمين على قضائه بيننا بالحق، وهم ما حمدوه تعالى لأجل ذلك القضاء بل حمدوه تعالى بصفته تعالى الواجبة له، وهي كونه تعالى رباً للعالمين، فإن من حمد المنعم لأجل أن إنعامه وصل إليه فهو في الحقيقة ما حمد المنعم، وإنما حمد الإنعام ويقال: إن هذا من بقية شرح ثواب المؤمنين فيقال: في التقرير كما أن حرفة المتقين في الجنة الاشتغال بهذا التحميد والتمجيد، فكذلك حرفة الملائكة الاشتغال بالتحميد والتسبيح، ثم إن جوانب العرش ملاصقة لجوانب الجنة، فالمؤمنون والملائكة يصيرون متوافقين على الاستغراق في تحميد الله وتمجيده وتسبيحه، فكان ذلك سبباً لمزيد التذاذهم. وقال تعالى: {وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ} أي بين البشر {بِٱلْحَقّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ} أي إنهم يقدمون التسبيح، فالتسبيح عبارة عن إقرارهم بتنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به وهو صفات الجلال والتحميد عبارة عن إقرارهم بكونه تعالى موصوفاً بصفات الإكرام، ثم إن الله تعالى لم يبين ذلك القائل. والمقصود من هذا الإبهام التنبيه على أن خاتمة كلام العقلاء في الثناء على حضرة ذي الجلال والكبرياء ليس إلاّ أن يقولوا الحمد لله رب العالمين.

سورة المؤمن

وتسمى سورة الطول وسورة غافر. مكية، خمس وثمانون آية، ألف ومائة وتسع وتسعون كلمة، أربعة آلاف وتسعمائة وستون حرفاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ} أي هذه السورة المسماة ب«حم» تنزيل الكتاب، {مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ} أي الذي لا يوجد له مثل {ٱلْعَلِيمِ} بوجوه المصالح والمفاسد، {غَافِرِ ٱلذَّنبِ} أي غافر للذنوب الكبار، قبل التوبة ممن قال: لا إله إلاَّ الله، {وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ} لمن تاب من الشرك {شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ} لمن مات على الشرك {ذِى ٱلطَّوْلِ} أي ذي الفضل على من آمن به بترك العقاب المستحق، وذي الغنى على من لم يؤمن به {لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ} فيجب الإقبال الكلي على طاعته في أوامره ونواهيه، {إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ} أي مرجع من آمن به ومن لم يؤمن به، {مَا يُجَٰدِلُ فِى ءَايَٰتِ ٱللَّهِ} بالجدال الباطل، {إِلاَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} بها وهو أن يقال في حق القرآن: إنه سحر، أو إنه شعر، أو إنه قول الكهنة، أو إنه أساطير الأولين، أو إنما يعلمه بشر أو أشباه ذلك مما كانوا يقولونه من الشبهات الباطلة. قال صلى الله عليه وسلم: «إن جدالاً في القرآن كفر». وقال: «لا تماروا في القرآن فإن المراء فيه كفر». {فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلاَدِ} أي لا ينبغي أن تغتر بأني أتركهم سالمين في أبدانهم وأموالهم يتصرفون في البلاد للتجارات وطلب المعاش، وإني سآخذهم كما فعلت بأشكالهم من الأمم الماضية. {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ} أي قبل قومك {قَوْمُ نُوحٍ وَٱلأَحْزَابُ} أي الأمم المتفرقة {مِن بَعْدِهِمْ}، أي من بعد قوم نوح كقوم عاد وثمود، {وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ} أي وعزمت كل أمة من هؤلاء المكذبين أن يأخذوا رسولهم ليقتلوه ويهلكوه، {وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ} أي خاصموا رسلهم بإيراد الشبهات {لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ}، أي ليزيلوا بإيراد تلك الشبهات الصدق {فَأَخَذْتُهُمْ} بسبب ذلك {فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ}، أي عقابي إياهم أليس كان مهلكاً مهيباً في السماع؟ {وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوۤاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ}، أي كما ثبت حكمه تعالى بالتعذيب على أولئك الأمم الكاذبة على رسلهم، ثبت على الذين كفروا وتحزبوا عليك كونهم مستحقي أشد العقوبات التي هي عذاب النار. فقوله تعالى: {أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ} في محل رفع بدل من قوله تعالى: {كَلِمَتُ رَبّكَ} أو في محل نصب بحذف لام التعليل، أي لأنهم ملازمو النار أبداً. وقرأ نافع وابن عامر «كلمات» بالجمع. {ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ} وهم في الدنيا أربعة، وفي يوم القيامة ثمانية، أرجلهم في الأرض السفلى ورؤوسهم قد خرقت العرش، وهم خشوع لا يرفعون طرفهم، {وَمَنْ حَوْلَهُ} وهم الكروبيون وهم سادات الملائكة، {يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ}. قال شهر بن حوشب:

وحملة العرش يوم القيامة ثمانية: فأربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على علمك وحلمك. وأربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ا ه. ولا شك أن حملة العرش أشراف الملائكة وأكابرهم. روي في الحديث: «أن الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة». {وَيُؤْمِنُونَ بِهِ}. وهذا تنبيه على أن الله تعالى لو كان حاضراً بالعرش لكان حملة العرش والحافون حوله يشاهدونه ولما كان إيمانهم بوجود الله موجباً للمدح، لأن الإقرار بوجود شيء حاضر معاين لا يوجب الثناء، ألا ترى أن الإقرار بوجود الشمس وكونها مضيئة لا يوجب المدح، فلما ذكر الله تعالى إيمانهم بالله على سبيل المدح والتعظيم علم أنهم آمنوا به من غير أن يشاهدوه تعالى حاضراً هناك، {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ} شفقة على خلق الله، وقد ثبت أن كمال السعادة مربوط بأمرين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله. ويجب أن يكون التعظيم لأمر الله مقدماً على الشفقة لخلق الله، فالتسبيح مشعر بالتعظيم لله والدعاء للمؤمنين مشعر بالشفقة عليهم. وقيل: هذا الاستغفار في مقابلة قولهم: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَاء} (البقرة: 03) . فلما صدر هذا منهم أولاً تداركوه بالاستغفار لمن تكلموا فيهم، وهو كالتنبيه لغيرهم على أنه يجب على من تكلم في أحد بشيء يكرهه أن يستغفر له، وعلى من آذى غيره أن يجبره بإيصال نفع إليه. {رَبَّنَا} وهذا معمول لقول مضمر في محل نصب على الحال من فاعل «يستغفرون» أي قائلين {رَبَّنَا} إلخ. . وهذا دليل على أن السنة في الدعاء أن يبدأ فيه بالثناء على الله تعالى، ثم يدعو عقبه فإن الملائكة لما زعموا على الدعاء للمؤمنين بدأوا بالثناء فقالوا ربنا: {وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً}، أي وسعت رحمتك وعلمك، فكل موجود نال من رحمة الله نصيباً، لأن وجود الممكن بإيجاده تعالى، فذلك رحمة فلا موجود غير الله إلاّ وقد وصل إليه نصيب من رحمة الله، وعلمه تعالى محيط بجميع المعلومات التي لا نهاية لها من الكليات والجزئيات، {فَ ٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ} من الكفر، وإن أصروا على الفسق بأن تقسط العقاب عنهم، {وَ ٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ} في الشريعة {وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ} أي ادفع عنهم عذاب النار {رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدْتَّهُمْ} إياها.

وقرىء «جنة عدن» {وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ} و«من» معطوف على مفعول «أدخل»، أي وأدخل

معهم في الجنة من آمن من هؤلاء الطوائف الثلاثة ليتضاعف ابتهاجهم. قال سعيد بن جبير: يدخل المؤمن الجنة فيقول: أين أبي أين زوجتي أين ولدي؟ فيقال له: إنهم لم يعملوا مثل عملك فيقول: إني كنت أعمل لي ولهم فيقال: أدخلوهم الجنة فإذا اجتمع بأهله في الجنة كان أكمل في سروره ولذته. وقرأ ابن أبي عبلة «صلح» بضم اللام. وقرأ عيسى «وذريتهم» بالإفراد {إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ}، أي القادر الذي لا يساويه أحد في القدرة { ٱلْحَكِيمُ} أي الذي لا يفعل إلاّ ما تقتضيه الحكمة، {وَقِهِمُ ٱلسَّيِّئَٰتِ} أي ادفع عنهم العقوبات عند موقف القيامة، وعند الحساب والسؤال أو صنهم في الدنيا عن العقائد الفاسدة. والأعمال الفاسدة {وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّئَٰتِ يَوْمَئِذٍ} أي ومن تدفع عنه العقوبات، أو من تصنه في الدنيا عن المعاصي، {فَقَدْ رَحِمْتَهُ} أي عصمته وعظمته، {وَذَلِكَ} أي الرحمة {هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ} حيث وجدوا بأعمال منقطعة نعيماً لا ينقطع، وبأعمال حقيرة ملكاً لا تصل العقول إلى كنه عظمته.

{إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ}. أي إن الذين كفروا يناديهم خزنة جهنم لإنكار الله لكم في الدنيا حين تدعون من جهة الأنبياء إلى الإيمان فتأبون قبوله وتختارون عليه الكفر اتباعاً لأنفسكم الأمارة بالسوء، أو اقتداء بأخلائكم المضلين أكبر من إنكاركم أنفسكم الأمارة بالسوء الآن، أو من إنكار بعضهم بعضاً اليوم، وذلك أنهم إذا شاهدوا القيامة والجنة والنار مقتوا أنفسهم على إصرارهم على تكذيب هذه الأشياء في الدنيا، أو أن الأتباع يشتد مقتهم الآن للرؤساء الذين دعوهم إلى الكفر في الدنيا، والرؤساء يشتد إنكارهم للأتباع الآن أيضاً، و«إذ» ظرف ل«المقت» الأول. وقيل: يناديهم المتقون في الآخرة من مكان بعيد وهم في النار، وإذ تدعون تعليل لما بين الظرف والسبب. والمعنى: لمقت الله إياكم الآن أكبر من مقتكم أنفسكم الآن لما كنتم تدعون إلى الإيمان فتكفرون. {قَالُواْ} أي الكفار: {رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ} أي إماتتين، مرة بقبض أرواحنا، ومرة بعدما سألنا منكر ونكير في القبور. {وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ} أي إحياءتين، مرة عند سؤال منكر ونكير في القبور، ومرة عند البعث. وهذا أنسب بحالهم فإن مقصودهم تعديد أوقات البلاء، وهي أربعة: الموتة الأولى، والحيلة في القبر. والموتة الثانية، والحياة في القيامة فهذه الأربعة أوقات المحنة. فأما الحياة في الدنيا فليست من أقسام أوقات البلاء، فلهذا السبب لم يذكروها، {فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا} أي بشركنا وجحدونا

بالبعث، {فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ}؟ أي فهل إلى خروج من النار ورجوع إلى الدنيا لنصلح أعمالنا من سبيل، أي طريق فأجاب الله تعالى لهم بقوله: {ذَٰلِكُم} أي العذاب في النار والمقت {بِأَنَّهُ} أي بسبب أن الشأن {إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ} أي إذا عبد الله منفرداً كفرتم بتوحيده، {وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُواْ} أي إن يجعل له شريك تصدقوا بالإشراك. ويقال: ذلكم، أي عدم سبيل خروج لكم إنما وقع بسبب كفركم بتوحيد الله تعالى وإيمانكم بالإشراك به {فَٱلْحُكْمُ للَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ} فالله أعلى كل شيء وأكبر كل شيء بحسب القدرة والإلهية، وذلك حيث حكم عليكم بالعذاب السرمدي، {هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِ}، أي علامات وحدانيته وقدرته {وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقاً} أي سبب رزق وهو المطر، فالله تعالى راعى مصالح أديان العباد بإظهار الآيات وراعي مصالح أبدانهم بإنزال الرزق من السماء. فالآيات لحياة الأديان والأرزاق لحياة الأبدان، وعند حصولهما يكمل الأنعام. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون {وَمَا يَتَذَكَّرُ}، أي وما يتعظ بتلك الآيات الباهرة {إِلاَّ مَن يُنِيبُ}، أي إلا من يقبل على الله بالكلية ويعرض عن غير الله {فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ}، أي فاعبدوا الله أيها المؤمنون، {مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ} من الشرك ومن الالتفات إلى غير الله، {وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ} إخلاص العبادة منكم،

{رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ} أي الله العظيم الصفات فهو تعالى أرفع الموجودات في جميع صفات الجلال والكمال، لأنه واجب الوجود لذاته، وهو أول وآخر لكل ما سواه، وليس له أول وآخر، وهو عالم بجميع الذوات والصفات، والكليات والجزئيات، وهو غني عن كل ما سواه، وهو واحد يمتنع أن يحصل له ضد وند، وشريك ونظير. وقرىء «رفيع الدرجات» بالنصب على المدح. {ذُو ٱلْعَرْشِ} أي مالكه ومدبره وخالقه، وهذان خبران آخران ل«هو». {يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ} أي ينزل الوحي الجاري من القلوب منزلة الروح من الأجساد هو أمره تعالى، {عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ} وهم الأنبياء، {لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلاَقِ}، والفاعل يعود إلى «من يشاء» وهو الملقى عليه. وقرىء لتنذر على أن الفاعل هو الروح، لأنها قد تؤنث وهذا الفعل ينصب مفعولين محذوفين، أي لينذر من يختاره الله الناس العذاب يوم القيامة أو إن المفعول الثاني هو يوم التلاق بدليل قراءة لينذر يوم التلاق على البناء للمفعول، ورفع «يوم» وسمي يوم القيامة بيوم التلاق، لأن الأرواح متلاقية للأجساد، ولأن الخلائق يتلاقون فيه، فيقف بعضهم على حال بعض، ولأنه يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض، ولأن كل أحد يصل إلى جزاء عمله

ويلتقي فيه العابدون والمعبودون ويلتقي فيه الظالم والمظلوم، {يَوْمَ هُم بٰرِزُونَ} أي خارجون عن بواطن القبور، وظاهرون لا يسترهم شيء من جبل وغيره، وليس عليهم ثياب، وتظهر أعمالهم وتنكشف أسرارهم، {لاَ يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ} فيعلم ما فعله كل واحد منهم فيجازي كلاً منهم بحسبه إن خيراً فخيراً، وإن شراً فشر، وينادي مناد: {لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ} فيجيبه أهل المحشر: {لِلَّهِ ٱلْوٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ}، أي الذي قهر الخلق بالموت، فالمؤمنون يقولونه تلذذاً بهذا الكلام حيث نالوا المنزلة الرفيعة، والكفار يقولونه على وجه التحسر والندامة على ما فاتهم في الدنيا، { ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ} برة أو فاجرة، {بِمَا كَسَبَتْ} من خير أو شر {لاَ ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ} بنقص ثواب، أو زيادة عذاب، أي يقال لهم: إذا أقروا بالملك يومئذٍ لله وحده { ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ} إلخ. {إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ}، إذ لا يشغله شأن عن شأن، فيحاسب الخلائق قاطبة في أقرب زمان {وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ}، ف«إذ» بدل من يوم الآزفة، أي وأنذرهم يوم القرب من العذاب، ومشارفتهم دخول النار، فعند ذلك ترتفع قلوبهم من أماكنها، فتلتصق بحلوقهم من شدة الخوف، {كٰظِمِينَ} أي مغمومين يتردد الغيظ في أجوافهم، فلا يمكنهم أن ينطقوا ويبينوا خوفهم، {مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ} أي قريب مشفق، {وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ} أي ولا شفيع مقبول شفاعته، {يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلأَعْيُنِ} أي استراق النظر إلى ما لا يحل، {وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ} أي مضمرات القلوب، {وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ} إذا علم المذنب أن الله لا يحكم إلاّ بالحق في كل ما دق وجل، كان خوف المذنب من الله في الغاية القصوى. {وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَقْضُونَ بِشَىْءٍ} أي والذين يعبدونهم من دون الله تعالى من الأوثان، لا يصنعون شيئاً من الشفاعة يوم القيامة، ولا يأمرون بخير في الدنيا، فإن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام، فلذلك بيَّن الله تعالى أنه لا فائدة فيها ألبتة بهذه الآية.

وقرأ نافع وهشام «تدعون» بتاء الخطاب {إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ} أي يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام، ويبصر سجودهم لهم ولا يسمع منهم ثناءهم على الله، ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم لله. {أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلأَرْضِ} أي أغفلوا ولم يسافروا في الأرض فيعتبروا بمن قبلهم {فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ} من الأمم المكذبة لرسلهم {كَانُواْ هُمْ} أي الذين مضوا من الكفار {أَشَدَّ مِنْهُمْ} أي من هؤلاء الحاضرين

من الكفار {قُوَّةً}، أي قدرة على التصرفات. وقرأ ابن عامر وحده «منكم» بكاف {وَءَاثَاراً فِى ٱلأَرْضِ} أي قصوراً للسكنى وحصوناً للقتال ومصانع للمياه {فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ}، أي أهلكهم الله بسبب تكذيبهم الرسل بضروب الهلاك {وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ}، أي لم يجدوا من يمنعهم من الله ومن يخلصهم من عذاب الله. وقرأ ابن كثير بالياء في الوقف.

{ذَلِكَ} العذاب في الدنيا {بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ} أي بالأحكام الظاهرة، وبالمعجزات الباهرة، {فَكَفَرُواْ} بذلك، {فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ} أخذاً وبيلاً، {إِنَّهُ قَوِىٌّ} بأخذه {شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ} لمن عاقبه {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِأَايَٰتِنَا}، وهي معجزاته {وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ}، أي حجة مبينة {إِلَىٰ فِرْعَوْنَ} ملك مصر {وَهَٰمَٰنَ} وزير فرعون {وَقَٰرُونَ} ابن عم موسى {فَقَالُواْ} لموسى فيما أظهره من المعجزات: هذا {سَٰحِرٌ} وفيما ادعاه من رسالة رب العالمين: هذا {كَذَّابٌ فَلَمَّا جَآءَهُمْ بِٱلْحَقِّ}، أي بتلك المعجزات الباهرة {مِنْ عِندِنَا قَالُواْ} أي فرعون وأتباعه {ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ وَ ٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ}، أي لا تقتلوا بناتهم للخدمة. وهذا القتل غير القتل الذي وقع في وقت ولادة موسى عليه السلام، لأن فرعون قد كف عن قتل الولدان بعد ولادة موسى، فلما بعث الله موسى أعاد القتل على بني إسرائيل، لئلا ينشأوا على دين موسى، فيقوى بهم، زعماً منه أن القتل يمنع الناس من الإيمان وظناً منهم أن موسى هو الذي حكم المنجمون والكهنة بزوال ملكهم على يده. {وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلاَّ فِى ضَلَٰلٍ}، أي بطلان. لأن الله تعالى شغلهم عن ذلك القتل بما أنزل إليهم من أنواع العذاب: كالضفادع، والقمل، والدم، والطوفان إلى أن خرجوا من مصر، فأغرقهم الله تعالى، ولأن الناس لا يمتنعون من الإيمان وإن فعل بهم مثل هذا. {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ} وغرض فرعون من هذا الكلام إخفاء خوفه لأن أحداً ما منع فرعون من قتل موسى، وقد كان فرعون استيقن أن موسى نبي وأن ما جاء به آيات باهرة، وما هو بسحر، ولكن كان يخاف إن همَّ بقتله أن يعاجل بالهلاك، ويخاف من أنه لو حاول قتله لظهرت منه معجزات قاهرة تمنعه من قتله، فيفتضح، وكان من دهائه ووقاحته قال هذا تمويهاً لقومه: أنه إذا امتنع من قتله رعاية لقلوبهم ربما ظنوا أن موسى كان محقاً، وعجزوا عن جوابه، فقتلوه إيهاماً أنهم هم الكافّون له عن قتله ولولاهم لقتله وما كان الذي يكفه إلاّ ما في نفسه من الفزع الهائل.

{وَلْيَدْعُ رَبَّهُ} الذي يزعم أنه أرسله إلي حتى يخلصه مني. وهذا على سبيل الاستهزاء في إظهار عدم المبالاة بدعائه، {إِنِّى أَخَافُ} إن لم أقتله {أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ} الذي أنتم عليه من عبادة فرعون والأصنام، {أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلأَرْضِ ٱلْفَسَادَ} من قتل أبنائكم واستخدام نسائكم. وقرأ نافع وأبو عمرو «وأن يظهر» بالواو الجامعة بين أمرين. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم «أو يظهر» بفتح الياء والهاء ورفع «الفساد» فالقراءات السبعية أربعة: ثنتان مع «أو» وهما: نصب «الفساد» ورفعه. وثنتان مع «الواو». كذلك، وقرىء «يظهر» بتشديد الظاء والهاء أي يتتابع {وَقَالَ مُوسَىٰ} لقومه حين سمع ما يقوله اللعين من حديث قتله {إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ}، وموسى عليه السلام ولم يأتِ في دفع شر فرعون إلاّ بأن استعاذ بالله واعتمد على فضل الله، فصانه الله عن كل بلية وأوصله إلى كل أمنية، والمسلم إذا قال عند القراءة، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فالله تعالى يصون دينه وإخلاصه عن وساوس شياطين الجن، فكذلك إذا قال المسلم: أعوذ بالله عند توجه الآفات والمخافات، فالله يصونه عن كل الآفات والمخافات من شياطين الإنس. {وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ} وكان قبطياً ابن عم لفرعون آمن بموسى سراً، أو غريباً موحداً، أو اسمه حزقيل أو شمعان، {يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُ} من فرعون وملئه خوفاً على نفسه مائة سنة، {أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ} أي أتقصدون قتل رجل لأجل أن يقول: ربي الله وحده من غير تأمل في أمره، {وَقَدْ جَآءَكُمْ بِ ٱلْبَيِّنَٰتِ} أي بالمعجزات الظاهرات {مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ} أي وإن كان هذا الرجل كاذباً كان ضرر كذبه عائداً عليه فاتركوه، {وَإِن يَكُ صَٰدِقاً} وقد كذبتموه، {يُصِبْكُمْ بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ} من العذاب في الدنيا. فكان الأولى على كلا التقديرين إبقاءه حياً. والحاصل أن المقصود بيان أنه لا حاجة إلى قتله بل يكفيكم أن تعرضوا عنه وأن تمنعوه عن إظهار دينه {إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ}.

وهذا كلام ذو وجهين أي لو كان موسى مسرفاً كذاباً لما هداه الله تعالى إلى الأحكام، ولما قواه بعلامات النبوة. وإن كان كذلك أهلكه الله فلا حاجة لكم إلى قتله. وهذا إشارة إلى علو شأن موسى على طريق الرمز، وإلى التعريض لفرعون بأن الله لا يهديه منهاج النجاة، لأنه مسرف في عزمه على قتل موسى، كذاب في جرأته على ادّعاء الإلهية، والله تعالى لا يهدي من هذا شأنه، بل يهدم أمره، ولما أقام مؤمن آل فرعون أنواع الدلائل

على أنه لا يجوز الإقدام على قتل موسى خوفهم في ذلك بعذاب الله فقال: {يٰقَومِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلأَرْضِ} أي عالين الناس في أرض مصر فلا يقاومكم أحد في هذا الوجه، {فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا}، أي فلا تفسدوا أمركم ولا تتعرضوا لعذاب الله بقتل موسى فإنه إن جاءنا لم يمنعنا منه أحد، ولما قال ذلك المؤمن هذا الكلام. {قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلاَّ مَآ أَرَىٰ} أي لا أشير إليكم برأي سوى ما ذكرته أنه يجب قتله حسماً لمادة الفتنة، ولا أسر عنكم غير ما أظهره. ولقد كذب فرعون حيث كان مضمراً للخوف الشديد، ولكنه كان يتجلد ولولاه لما استشار أحد أبداً {وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ} أي ما أدعوكم بهذا الرأي إلاّ إلى طريق الصواب والصلاح. وقرىء بتشديد الشين للمبالغة {وَقَالَ ٱلَّذِىۤ ءَامَنَ} راداً لهذا الكلام على فرعون، مخاطباً لقومه: {يٰقَوْمِ إِنِّىۤ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِّثْلَ يَوْمِ ٱلأَحْزَابِ} أي مثل أيام الأمم الماضية المتفرّقة فكل أمة كان لها يوم معين في البلاء، {مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَ ٱلَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ} كقوط لوط، أي مثل جزاء دأبهم من الكفر، وإيذاء الرسل. والحاصل أن حزقيل خوّفهم بهلاك معجل في الدنيا، {وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ} أي أن تدمير الله أولئك الأحزاب كان عدلاً منه تعالى، لأنهم استوجبوه بسبب تكذيبهم للأنبياء، فتلك العلة قائمة هٰهنا فوجب حصول الحكم هٰهنا {وَيٰقَوْمِ إِنِّىۤ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ}، أي يوم القيامة فإن أهل النار ينادون أهل الجنة، وأهل الجنة ينادون أهل النار، وينادي أصحاب الأعراف وينادي بعض الظالمين بعضاً بالويل والثبور فيقولون: يا ويلنا وينادى باللعنة عليهم وينادى بالسعادة والشقاوة: ألا إن فلان ابن فلان سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وفلان ابن فلان شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً.

وقرأ ابن عباس «يوم التناد» بتشديد الدال، أي يوم فرار بعضهم من بعض {يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ}، أي منصرفين عن الموقف، لأنهم إذا سمعوا زفير النار ندوا هاربين، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفاً فبينما هم يموج بعضهم في بعض إذ سمعوا منادياً أقبلوا إلى الحساب فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، {مَا لَكُمْ مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ} أي ما لكم مانع من عذاب الله. والجملة حال أخرى من «ضمير تولون» {وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ} عن دينه، {فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} أي مرشد، {وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ} بن يعقوب عليهما السلام {مِن قَبْلُ} أي من قبل موسى، فإن وفاة يوسف قبل مولد موسى بأربع وستين سنة،

وفرعون أدرك يوسف بن يعقوب وكان عمره أربعمائة سنة وأربعين سنة.

وقيل: إن يوسف هذا هو يوسف بن أفراييم بن يوسف بن يعقوب، أرسله الله تعالى إلى القبط. فأقام فيهم عشرين سنة نبياً وهذا من تمام وعظ حزقيل {بِـ لْبَيِّنَٰتِ} أي بالمعجزات الواضحة {فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُمْ بِهِ} يوسف من الدين {حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ}، أي مات يوسف {قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِن بَعْدِهِ} أي من بعد موت يوسف {رَسُولاً} وهذا تكذيب لرسالة من هو بعده مضموماً إلى تكذيب رسالته، {كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ} أي مثل هذا الإضلال يضل الله من هو متغال في عصيانه شاك فيما تشهد به البينات لغلبة الانهماك في التقليد،

{ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ}، أي حجة {أَتَٰهُمْ} من الله {كَبُرَ مَقْتاً} أي عظم بغضاً والوقف على «مرتاب» صالح، وعلى «أتاهم» كاف. وهذا إذا جعل «الذين» بدلاً من «من» فهو في محل نصب، أو بدلاً من مسرف فهو في محل رفع، وعلى هذا فهذا من كلام الرجل المؤمن أيضاً، وإن جعل الذين مبتدأ خبره كبر كان الوقف على «مرتاب» تاماً، ولا يوقف على «أتاهم» لتأخر الخبر عنه، وعلى هذا فهذا ابتداء كلام الله تعالى، وفاعل «كبر» ضمير يعود إلى «من» على الاحتمال الأول، وإلى «الجدال» على الاحتمال الثاني، أي كبر من ذكر أو كبر جدالهم بغير حجة، بل بالبناء على التقليد أو بالبناء على الشكوك الخسيسة مقتاً، {عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} فمقت الله إظهار خزيهم وإحلال العذاب بهم، ومقت المؤمنين لهم كراهتهم أشد الكراهة، {كَذَٰلِكَ} أي مثل ذلك الطبع {يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ} عن الإيمان {جَبَّارٍ} عن قبول الحق.

قرأ ابن عامر وأبو عمرو، وقتيبة عن الكسائي بتنوين «قلب». والباقون بغير تنوين على الإضافة، ويشهد لهذه القراءة قراءة عبد الله «على قلب كل متكبر» {وَقَالَ فَرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحاً} أي بناء عالياً {لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلأَسْبَٰبَ}، أي أصعد الطرق {أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ}، أي طرقها الموصلة إليها {فَأَطَّلِعَ} أي أنظر {إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ}.

وقرأ حفص عن عاصم «أطلع» بالنصب على أنه جواب الأمر، أو منصوب على التوهم كما قاله أبو حيان، لأن خبر «لعل» قد يجيء مقروناً بأن، أو على أنه جواب الترجي. والباقون بالرفع عطفاً على «أبلغ». والمقصود: أنه لما عرف كل أحد أن هذا الطريق ممتنع، كان الوصول إلى معرفة وجود الله بطريق الحسن

ممتنعاً، فحينئذ لا سبيل إلى معرفة الإله الذي يثبته موسى، {وَإِنِّى لاَظُنُّهُ كَٰذِباً} فيما يدعيه من الرسالة، {وَكَذَٰلِكَ} أي مثل ذلك التزيين {زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوۤءُ عَمَلِهِ} فانهمك فيه أنهماكاً لا يكف عنه بحال {وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ}.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بالبناء للمفعول أي صرف فرعون عن الحق. والباقون بالبناء للفاعل أي منع فرعون الناس عن الطريق الموصلة إلى الله. وقرىء «وصد» بكسر الصاد على نقل حركة الدال إليه. وقرىء «وصد» بالرفع على أنه معطوف على «سوء عمله». وقرىء «وصدوا» أي هو وقومه. {وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِى تَبَابٍ}، أي وما صنع فرعون في إبطال آيات موسى إلاَ في هلاك. {وَقَالَ ٱلَّذِىۤ ءَامَنَ} وهو حزقيل {يٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ} فيما دعوتكم إليه، {أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ} أي أدلكم على سبيل يؤدي سالكه إلى الخير، وفي هذا تصريح بأن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الضلال. {يٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتٰعٌ}، أي منفعة قليلة لسرعة زوالها، فهي كمتاع البيت لا يبقى. {وَإِنَّ ٱلاٰخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ}، أي الثبات، فلا تحول عنها {مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً}، في الدنيا {فَلاَ يُجْزَىٰ} في الآخرة {إِلاَّ مِثْلَهَا} أي إلا ما يقابلها في الاستحقاق، فالكافر يعتقد في كفره كونه طاعة، فكان عقابه في النار مؤبداً، لأنه على عزم أن يبقى مصراً على ذلك الاعتقاد أبداً بخلاف الفاسق، فإن عقابه منقطع فإنه يعتقد في فسقه كونه خيانة، فيكون على عزم أن لا يبقى مصراً عليه. {وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ} الذين عملوا ذلك {يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ} فالآتي بالإيمان والمواظب على التوحيد مدة ثمانين سنة قد أتى بأعظم الصالحات، وبأحسن الطاعات، فوجب أن يدخل الجنة.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة «يدخلون» بالبناء للمفعول {يُرْزَقُونَ فِيهَا} أي الجنة {بِغَيْرِ حِسَابٍ} أي بلا هنداز في الكثرة والسعة. {وَيٰقَوْمِ مَا لِىۤ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ} أي أيّ شيء من المصالح في أني أدعوكم إلى الإيمان الذي يوجب النجاة شفقة عليكم واعترافاً بحقكم، {وَتَدْعُونَنِىۤ إِلَى ٱلنَّارِ} أي وأيّ شيء تدعونني، إلى الكفر الذي يوجب الهلاك في النار.

{تَدْعُونَنِى لأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ} أي ولأشرك بالله ما ليس بإله، وما ليس بإله كيف يعقل جعله شريكاً للإله {وَأَنَاْ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّارِ}؟ أي إلى الإيمان بإله العالم، فإنه وإن كان قادراً على التعذيب لا يغالب، لكنه غفار يغفر كفر سبعين سنة بإيمان ساعة واحدة، {لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىۤ إِلَيْهِ

لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلاَ فِى ٱلآٌّخِرَةِ} أي حق أن الذي تدعونني إلى عبادته من الأوثان ليس له دعوة في الدنيا إلى نفسه، لأنها جمادات، والجمادات لا تدعو أحداً إلى عبادة نفسها أصلاً وأن الله تعالى إذا قلبها حيواناً في الآخرة تتبرأ من عابديها، {وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ} بالموت، فأي عاقل يجوز له عقله أن يشتغل بعبادة الأشياء الباطلة، وأن يعرض عن عبادة الإله الذي لا بد وأن يكون مرجعنا إليه، {وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ} في معصية الله كالإشراك وسفك الدماء {هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ}، أي ملازموها، {فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ} من النصائح وقت الموت ووقت مشاهدة الأهوال في القيامة {وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ}: قيل: لما قال ذلك المؤمن هذه الكلمات قصدوا قتله، فهرب منهم إلى الجبل، فطلبوه ولم يقدروا عليه، لأنه قد عول في دفع مكرهم على الله، {فَوقَاهُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ} أي شدائد مكرهم. قيل: نجا مع موسى عليه السلام. وقيل: إنه لما فر منهم إلى الجبل أرسل فرعون ألفاً ليقتلوه فأكلت السباع بعضهم، ورجع بعضهم هارباً، فقتل فرعون من رجع عقوبة على عدم قتله لذلك الرجل المؤمن. {وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوۤءُ ٱلْعَذَابِ}، أي أحاط بفرعون وقومه شدة العذاب وهو القتل، والغرق، والنار كما قال تعالى: {ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا} بإحراقهم بها، {غُدُوّاً وَعَشِيّاً}، أي تعرض أرواحهم في البرزخ على النار من حين موتهم إلى قيامة الساعة، ولا يوقف على «سوء العذاب» إن جعل «النار» بدلاً منه، وإن جعل خبر مبتدأ محذوف. فالوقف على «سوء العذاب» حسن، وكذا إن قرىء «النار» منصوباً على الاختصاص، أو نحوه، وإن جعل «النار» مبتدأ وخبره ما بعده فالوقف على «العذاب» تام، {وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوۤاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ}.

قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم بفتح الهمزة، وكسر الخاء، أي ويوم القيامة يقول الله لخزنة جهنم أدخلوا آل فرعون في أشد العذاب. والباقون بهمزة الوصل وضم الخاء، والمعنى: ويوم القيامة يقال لهؤلاء الكفار: ادخلوا يا آل فرعون أشد العذاب وهو عذاب جهنم. {وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ} أي واذكر يا أشرف الخلق لقومك وقت تخاصم بعضهم بعضاً في النار، {فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَاءُ} أي السفلة من الكفار {لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوۤاْ}، أي للقادة الذين تعظموا عن الإيمان: {إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً} أي أتباعاً في دينكم، {فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ ٱلنَّارِ}، أي فهل تقدرون على أن تدفعوا عنا جزءاً من العذاب. والمقصود من هذا الكلام: المبالغة في تخجيل أولئك الرؤساء وإيلام قلوبهم. {قَالَ ٱلَّذِينَ

ٱسْتَكْبَرُوٓاْ} وهم القادة للسفلة: {إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ} أي نحن وأنتم واقعون في هذا العذاب، فلو قدرت على إزالة العذاب عنكم لدفعته عن أنفسنا ف «كل» مبتدأ و «فيها» خبره والجملة خبران. وقرىء «كلا» بالنصب على التأكيد لاسم «إن»، أي إن كلنا واقعون في النار، ثم يقولون: {إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ} أي يوصل إلى كل أحد مقدار حقه من النعيم، أو من العذاب فلا معقب لحكمه، فعند ذلك يحصل اليأس للأتباع من المتبوعين فيرجعون إلى خزية جهنم، {وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ} من الضعفاء والمستكبرين إذا اشتدت عليهم النار، وقل صبرهم {لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ}، أي للملائكة الموكلين بعذاب أهل النار، { ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ ٱلْعَذَابِ} أي يخفف عنا شيئاً من العذاب في وقت من الأوقات.

{ قَالُوٓاْ} أي الخزنة: {أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ}؟ أي ألم تنتبهوا عن هذا، ولم تكن تأتيكم رسلكم في الدنيا على الاستمرار بالحجج الواضحة الدالة على سوء الكفر والمعاصي {قَالُواْ بَلَىٰ} أي أتونا بها فكذبناهم، {قَالُواْ} أي الخزنة استهزاء بهم وإظهاراً لخيبتهم: {فَٱدْعُواْ} أي إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم فإنا لا نجتريء على الدعاء ولا نشفع إلا بالإذن في الشفاعة وإلا لمن كان مؤمناً {وَمَا دُعَاءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلاَّ فِى ضَلَٰلٍ}، أي ضياع. وهذا من كلام الله إخباراً لنبيه، فالوقف على «ادعوا» تام أو من كلام الخزنة كما قاله الرازي وأبو السعود قال تعالى: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} بالرسل {فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا} بانتقام الكفرة، {وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلأَشْهَٰدُ} أي يوم يقوم كل من يشهد بأعمال العباد يوم القيامة من ملك، ونبي، ومؤمن بالحجة والاعتذار، {يَوْمَ لاَ يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ} من الكفر. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر «لا تنفع» بالتاء الفوقية. والباقون بالياء التحتية {وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ} أي الإهانة {وَلَهُمْ سُوۤءُ ٱلدَّارِ} وهو العقاب الشديد.

{وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ} أي التوراة والمعجزات، {وَأَوْرَثْنَا بَنِىۤ إِسْرَٰءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ}، أي وتركنا عليهم من بعد موسى التوراة {هُدًى وَذِكْرَىٰ لأُوْلِى ٱلأَلْبَٰبِ} أي لأجل الهداية من الضلالة، ولأجل التذكرة لذوي العقول السليمة، فكتب أنبياء الله مشتملة على هذين القسمين، بعضها دلائل في أنفسها، وبعضها مذكرات لما ورد في الكتب الإلهية المتقدمة، {فَٱصْبِرْ} يا أكرم الرسل على أذى اليهود والنصارى والمشركين، {إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ}، فالله ناصرك ومنجز وعده في حقك، {وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ} أي تب من ترك الأولى، والأفضل في بعض الأحايين، فإنه تعالى كافيك في

نصرة دينك، وإظهاره على الدين كله، {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلإِبْكَارِ}، أي ودم على التسبيح ملتبساً بحمده تعالى. والمراد منه الأمر بالمواظبة على ذكر الله باللسان، وبأن لا يغفل القلب عنه، {إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىۤ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ}، وجملة «إن في صدورهم» إلخ خبر ل «إن»، وجملة «ما هم» إلخ صفة ل «كبر»، أي إن الذين يجحدون بآيات الله بغير برهان أتاهم في ذلك من الله تعالى ما في قلوبهم إلا تكبر عن الحق ما هم ببالغي كبره، أي الذين يناصبون الجدال معك بغير حجة إنما يحملهم على هذا الجدال الباطل كبر في صدورهم، وذلك الكبر هو أنهم لو سلموا بنبوّتك لزمهم أن يكونوا تحت تصرفك، لأن النبوة تحتها كل رئاسة وملك، وهم لا يرضون أن يكونوا في خدمتك وإنما هم يريدون أن تكون تحت يدهم ولا يصلون إلى هذا المراد، بل لا بد وأن يصيروا تحت أمرك ونهيك، فَ ٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ} أي فالتجىء إليه تعالى من كيد من يجادلك، {إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ} لأقوالهم { ٱلْبَصِيرُ} بأعمالهم، {لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ}، أي فالذي قدر على ابتداء خلق السمٰوات والأرض مع عظمها، قادر على إعادة الإنسان الذي خلقه أولاً، {وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} أي أن هذا البرهان مع قوته صار بحيث لا يعرفه من ينكرون الحشر والنشر، فظهر أن هؤلاء يجادلون في آيات الله بغير حجة، بل بمجرد الحسد والكبر، {وَمَا يَسْتَوِى ٱلأَعْمَىٰ وَ ٱلْبَصِيرُ} أي لا يستوي الجاهل المقلد المستدل، {وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلاَ ٱ لْمُسِىۤءُ} أي ولا يستوي الآتي بالأعمال الصالحة، والآتي بالأعمال الفاسدة. {قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ} أي أن المجادلين وإن كانوا يعلمون أن العلم خير من الجهل، وأن العمل الصالح خير من العمل الفاسد إلا أنهم ما يتعظون اتعاظاً قليلاً من أمثال القرآن، فإن الحسد يعمي قلوبهم فيعتقدون في الجهل والتقليد أنه محض المعرفة، وفي الحسد والكبر أنه محض الطاعة.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي «تتذكرون» على الخطاب. والباقون بالغيبة.

{إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا} أي لا شك في مجيئها بإجماع الرسل على الوعد بوقوعها. {وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ} وهم الذين ينكرون البعث، {لاَ يُؤْمِنُونَ} بمجيء الساعة، {وَقَالَ رَبُّكُمْ ٱ دْعُونِىۤ أَسْتَجِبْ لَكُمْ} أي اعبدوني أثبكم وأغفر لكم، {إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَٰخِرِينَ} أي أذلاء.

ويقال: إن الدعاء هو السؤال، أي ادعوني أقبل إليكم، فالدعاء اعتراف بالعبودية والذلة فكأنه قيل: إن تارك الدعاء إنما تركه لأجل أن يستكبر عن إظهار العبودية، وكل من دعا الله وفي قلبه ذرة من الاعتماد على ماله وجاهه، واجتهاده وأقاربه وأصدقائه، فهو في الحقيقة ما دعا الله إلا باللسان، أما قلبه فهو معول في تحصيل ذلك المطلوب على غير الله، فهذا ما دعا الله في الحقيقة في وقت. أما إذا دعا في وقت لا يبقى في القلب التفات إلى غير الله، فإنه تحصل الاستجابة وانقطاع القلب بالكلية، عما سوى الله لا يحصل إلا عند القرب من الموت، فإن الإنسان قاطع في ذلك الوقت بأنه لا ينفعه شيء سوى فضل الله تعالى.

وقرأ ابن كثير وشعبة «سيدخلون» على صيغة المبني للمفعول. {ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ} بارداً مظلماً {لِتَسْكُنُواْ فِيهِ} أي لتستريحوا فيه بالنوم وبالعبادة {وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً} أي مضيئاً. وهذا إعلام بوجود الإله القادر، فإن الاشتغال بالدعاء لا بدّ وأن يكون مسبوقاً بحصول المعرفة، وبأن من أنعم قبل السؤال بهذه النعم العالية فكيف لا ينعم بالأشياء القليلة بعد السؤال؟ {إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ} كافة باختلاف الليل والنهار، وما يحتويان عليه من المنافع {وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ}. إما لكونه حريصاً على الدنيا محباً للمال والجاه، فإذا فاته وقع في كفران هذه النعم العظيمة، أو لأنها لما دامت واستمرت نسيها الإنسان، أو لاعتقاده أن هذه النعم ليست من الله تعالى، بأن يعتقد أن هذه الأفلاك واجبة الدوران لذواتها. {ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ}، أي ذلكم المعلوم المميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد هو الله ربكم، {خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ}. وهذه أخبار أربعة عن اسم الإشارة.

وقرىء «خالق» بالنصب على الاختصاص، فيكون لا إله إلا هو استئنافاً {فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ} أي فمن أي وجه تصرفون عن عبادته تعالى إلى عبادة غيره، ولم تعدلوا عن هذه الدلائل؟ ومن أين تكذبون على الله بجعلكم له شركاء؟ {كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِأايٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ}، أي مثل الصرف البعيد عن مناهج العقلاء يصرف الذين كانوا ينكرون آيات الله تعالى. {ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ قَرَاراً} أي منزلاً في حال الحياة وبعد الممات، {وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً} أي مثل القبة المضروبة على الأرض من غير عماد {وَصَوَّرَكُمْ} أي أحدث صورتكم على غير نظام واحد، {فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ} ولم يخلق الله تعالى حيواناً أحسن صورة من الإنسان، {وَرَزَقَكُمْ مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ} أي اللذائذ لا كرزق الدواب، {ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ

رَبُّكُمْ} أي ذلكم الذي نعت بالنعوت الجليلة هو الله المحسن إليكم، {فَتَبَـٰرَكَ ٱللَّهُ} أي ثبت الله مع كثرة الخيرات {رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ} أي مالكهم {هُوَ ٱلْحَىُّ}، أي المنفرد بالحياة الذاتية {لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ} فلا موجود يدانيه في ذاته وصفاته وأفعاله، {فَٱدْعُوهُ} أي اعبدوه {مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ} أي الطاعة من الشرك { ٱلْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ}.

قال الفراء: هو خبره وفيه إضمار الأمر أي فادعوه واحمدوه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما من قال: لا إله إلا الله فليقل بعدها الحمد لله رب العالمين، أي ولما كان تعالى موصوفاً بصفات الجلال والعزة استحق لذاته أن يقال له: الحمد لله رب العالمين.

{قُلْ} لأهل مكة يا أكرم الرسل حين قالوا لك: ارجع إلى دين آبائك : {إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ} أي الذين تعبدون من الأوثان {لَمَّا جَآءَنِى ٱلْبَيِّنَٰتُ} أي الدلائل {مِن رَّبِّى}، وهي أن إله العالم قد ثبت كونه موصوفاً بصفات الجلال والعظمة، {وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ} أي أن أنقاد له وأخلص توحيدي له، {هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ} فكل إنسان مخلوق من مني وهو مخلوق من الدم، وهو يتولد من الأغذية، وهي منتهية إلى النباتية، والنبات إنما يكون من التراب والماء، {ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ} أي دم عبيط {ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ} من بطون أمهاتكم {طِفْلاً ثُمَّ} يبقيكم {لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ}، أي كمالكم في القوة والعقل، {ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً}.

وقرأ نافع وأبو عمرو، وهشام، وحفص بضم الشين. والباقون بكسرها وقرىء «شيخاً»، {وَمِنكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ}، أي من قبل الشيخوخة بعد بلوغ الأشد، أو قبله أو قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطاً يفعل ذلك لتعيشوا، {وَلِتَبْلُغُواْ أَجَلاً مُّسَمًّى} وهو وقت الموت {وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، أي ولكي تعقلوا ما في هذه الأحوال العجيبة من أنواع العبر وأقسام الدلائل، فإن دلائل وجود الله تعالى وقدرته إما من دلائل الآفاق، وهي: الليل، والنهار، والأرض والسماء. أو من دلائل الأنفس وهي: التصوير وحسن الصورة، ورزق الطيبات. أو من عمر الإنسان وهو على ثلاث مراتب: كونه طفلاً وهو في التزايد شيئاً فشيئاً وبلوغه كمال النشوء وظهوره في النقص. {هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِ وَيُمِيتُ}، فكما أن الانتقال من صفة إلى صفة أخرى يدل على الإله القادر كذلك الانتقال من الحياة إلى الموت، وبالعكس يدل على الإله القادر. {فَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً} أي أراد أيّ أمر كان، {فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن

فيَكُونُ} فعبَّر الله عن نفاذ قدرته في الكائنات من غير معارض بما إذا قال: كن فيكون. {أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِى ءَايَٰتِ ٱللَّهِ} أي انظر إلى هؤلاء المجادلين في آياته تعالى، الواضحة، الموجبة للإيمان بها {أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ} أي كيف يصرفون عنها مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها، {ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ} أي بالقرآن، {وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا} من سائر الكتب {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ}، والوقف هنا تام أو كاف كما قاله أبو عمرو و«إذ» بمعنى إذا، وهو ظرف ليعلمون، والسلاسل عطف على الأغلال. والمعنى فسوف يعلمون وقت أن يكون الإغلال والسلاسل في أعناقهم {يُسْحَبُونَ فِى ٱلْحَمِيمِ}، أي وهم يجرون بتلك السلاسل في الماء المسخن بنار جهنم.

وقرىء «والسلاسل يسحبون» بنصب «السلاسل» على أنه مفعول مقدم ل «يسحبون» بفتح الياء.

وقرىء «والسلاسل» بالجر على إضمار الباء كما يدل عليه القراءة به. {ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ} أي يحرقون، {ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ} بعد أن يعذبوا بأنواع العذاب: {أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ} أي مع الله {قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا} أي غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا نستشفع بهم، {بَل لَّمْ نَكُنْ نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئاً} أي بل لم نكن نعبد من قبل هذه الإعادة شيئاً يضر ولا ينفع، ولا يبصر، ولا يسمع. وهذا اعتراف بأن عبادتهم الأصنام كانت باطلة أو يقال: بل لم نكن نعبد من قبل هذا الوقت شيئاً من دون الله. وهذا إنكار لعبادة الصنم {كَذَلِكَ} أي مثل ذلك الإضلال {يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ} عن طريق الجنة {ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ}، أي ذلكم العذاب بما كنتم تظهرون في الدنيا من السرور بالمعصية، وعبادة الأصنام، وبكثرة المال والأتباع والصحة، {ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ} أي السبعة المقسومة لكم {خَٰلِدِينَ فِيهَا} أي لا يخرجون منها ولا يموتون فيها، {فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ} عن الحق، جهنم.

{فَٱصْبِرْ} على إيذائهم وإيحاشهم بتلك المجادلات. {إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ} بالنصرة لك، وبإنزال العذاب على أعدائك {حَقٌّ} أي كائن بلا شك، {فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ} أي فإن نرك بعض الذي نعد أولئك الكفار من أنواع العذاب، فذلك هو المطلوب {أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ} قبل إنزال العذاب عليهم، {فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} يوم القيامة فننتقم منهم أشد الانتقام، ويجوز أن يكون هذا جواباً للشرطين. فالمعنى: أن نعذبهم في حياتك أو لم نعذبهم فيها فإنا نعذبهم في الآخرة أشد العذاب. {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن

قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِأايَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللَّهِ} أي أنت يا أشرف الرسل كالرسل من قبلك وقد ذكرنا حال بعضهم لك، ولم نذكر حال الباقين، وليس فيهم أحد أعطاه الله معجزات إلا وقد جادله قومه فيها، وكذبوه فيها، وجرى عليهم من الهم مثل ما جرى عليك وصبروا، وكان قومهم يقترحون عليهم إظهار المعجزة الزائدة على قدر الحاجة على سبيل التعنت، ثم إن كان الصلاح في إظهارها أظهرناها وإلا لم نظهرها، ولم يكن ذلك قادحاً في نبوتهم، فكذلك الحال في اقتراح قومك عليك المعجزات الزائدة، {فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ} أي جاءكم الله بنزول العذاب على الأمم الماضية، {قُضِىَ بِـ لْحَقِّ} أي نفذ حكم الله بالعدل، {وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ}، أي وهلك في وقت مجيء العذاب من يقترحون المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل التعنت، {ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَنْعَـٰمَ} أي الإبل كما قاله الزجاج {لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا} أي الإبل {وَمِنْهَا} أي من لحوم الإبل، {تَأْكُلُونَوَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ}، كألبانها وأوبارها وجلودها، {وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ} بحمل أثقالكم من بلد إلى بلد، {وَعَلَيْهَا} أي الإبل بالهودج في البر، {وَعَلَى ٱلْفُلْكِ} أي السفن في البحر {تُحْمَلُونَ} وتسافرون، {وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِ} أي دلائله الدالة على كمال قدرته ووفور رحمته، {فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ} أي ليس في شيء من هذه الدلائل ما يمكن إنكاره، لأنها كلها ظاهرة باهرة، {أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلأَرْضِ} أي أقعدوا، فلم يسيروا في أقطار الأرض؟ {فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} من الأمم الماضية المتكبرين؟ {كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ} أي من أهل مكة في العدد يعرف في الأخبار {وَأَشَدَّ قُوَّةً} بالبدن {وَءَاثَاراً فِى ٱلأَرْضِ} قد بقيت بعدهم بحصون عظيمة مثل الأوهرام الموجودة بمصر {فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ}، أي فلم ينفعهم الذي كانوا يكسبونه أو فأي شيء نفعهم مكسو بهم، {فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِ لْبَيِّنَـٰتِ} أي بالمعجزات {فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُمْ مِّنَ ٱلْعِلْمِ}. أي علم عقائدهم الزائغة وشبههم الداحضة، أو علمهم بأمور الدنيا وهو علمهم بالطبائع والصنائع يقال أي استهزاء الكفار بالبينات، وبما جاء الرسل به من علم الوحي، إذ لم يأخذوه بالقبول، {وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ}، أي دار بالكافرين جزاء استهزائهم بالرسل، {فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا} أي شدة عذابنا {قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ} أي بالأصنام التي كنا مشركين بها مع الله تعالى لأنا علمنا أنها لا تدفع عنا شيئاً من عذاب الله {فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا}، أي فلم

يصح أن ينفعهم إيمانهم عند رؤية عذابنا لعدم قبوله حينئذ {سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ} أي سنَّ الله ذلك المذكور من التعذيب عند التكذيب، ومن رد الإيمان عند معاينة العذاب أي إن عدم قبول الإيمان حال البأس سنة الله مطردة في كل الأمم، ويجوز أن يكون سنة منصوباً على التحذير، أي احذروا سيرة الله في المكذبين التي قد مضت على عباده، {وَخَسِرَ هُنَالِكَ} أي في تلك المواضع { ٱلْكَٰفِرُونَ} بالله تعالى.

سورة السجدة

وتسمى سورة فصلت، وسورة حمٓ السجدة، وسورة المصابيح. مكية، وهي أربع وخمسون آية، وسبعمائة وتسعة وتسعون كلمة، وثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمسون حرفاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. حمٓ} أي هذا حم {تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُ} أي جعلت آيات الكتاب تفاصيل في معادن مختلفة فبعضها: في ذات الله وصفاته، وفي عجائب أفعاله. وبعضها: في أحوال التكاليف. وبعضها: في الوعد والوعيد، ودرجات أهل الجنة، ودركات أهل النار. وبعضها: في المواعظ والنصائح. وبعضها: في تهذيب الأخلاق. وبعضها: في قصص الأولين. {قُرْءَاناً عَرَبِيّاً} نصب على الاختصاص والمدح، أو على الحالية من «كتاب»، أو من «آياته». {لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} أي كائناً لقوم عرب ف «اللام» متعلقة بمحذوف صفة ثانية ل «قرآناً» {بَشِيراً} للمطيعين بالثواب {وَنَذِيراً} للمجرمين بالعقاب.

وقرأ زيد بن علي برفع الاسمين {فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ} عن تدبر هذا الكتاب مع كونهم بلغتهم {فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ} سماع طاعة ولا يلتفتون إليه، فكون الكتاب نازلاً من عند الرحمٰن الرحيم يدل على اشتماله على أفضل المنافع، وأجل المطالب، وكونه قرآناً عربياً يدل على أنه في غاية الكشف والبيان، وكونه بشيراً ونذيراً يدل على أن الاحتياج إلى فهم ما فيه من أهم المهمات وإعراضهم عنه يدل على أنه لا مهدي إلا من هداه الله، ولا ضال إلا من أضله الله. {وَقَالُواْ} أي كفار مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند دعوته إياهم إلى الإيمان والعمل بما في القرآن : {قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ} أي أغطية {مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ} من التوحيد {وَفِى ءَاذانِنَا وَقْرٌ} أي صمم {وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ}، أي ستر غليظ يمنعنا

عن مواصلتنا إياك {فَٱعْمَلْ}، أي استمر على دينك وهو التوحيد، {إِنَّنَا عَٰمِلُونَ} أي مستمرون على ديننا وهو الإشراك {قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ}، أي قل يا أشرف الخلق: إني لا أقدر على أن أحملكم على الإيمان قهراً فإني بشر مثلكم ولا امتياز بيني وبينكم إلاّ بمجرد أن الله تعالى أوحى إلي دونكم، فأنا أبلغ هذا الوحي إليكم، فإن شرفكم الله قبلتموه، وإن خذلكم رددتموه. وذلك لا يتعلق بنبوتي ورسالتي، وذلك الوحي يرجع إلى أمرين: العلم والعمل. فالعلم رئيسه معرفة أن الله واحد، وهو المراد من قوله تعالى: {أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ} وإذا كان الحق ذلك التوحيد وجب علينا أن نعترف به. وهو المراد من قوله تعالى: {فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ} أي استقيموا في أفعالكم متوجهين إلى الإله الواحد، ثم أمر الله تعالى بوظيفة العمل ورئيسه الاستغفار، فلهذا السبب قال: {وَٱسْتَغْفِرُوهُ} لأجل الخوف من وقوع التقصير في العمل المأتي به، {وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ لَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلاٰخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ} فالله تعالى أثبت الويل لمن كان موصوفاً بصفات ثلاثة: الشرك، والامتناع من الزكاة، وإنكار القيامة. فإن أعظم الطاعات التعظيم لأمر الله، وأفضل أبوابه الإقرار بكون الله واحداً، وإذا كان التوحيد أعظم الطاعات كان الشرك أخسها، لأنه ضد التوحيد، ولما كان أفضل أنواع المعاملة مع الخلق إظهار الشفقة عليهم كان الامتناع من الزكاة أخس الأعمال، لأنه ضد الشفقة على خلق الله. ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسر لا يؤتون الزكاة بقوله: أي لا يقولون لا إله إلاّ الله فإنها زكاة الأنفس. والمعنى: لا يطهرون أنفسهم من لوث الشرك بقولهم: لا إله إلا الله. وقال الحسن وقتادة: أي لا يعتقدون إعطاء الزكاة واجباً. وقال مجاهد: لا يزكون أعمالهم {إِنَّ ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} أي غير مقطوع. قيل: نزلت هذه الآية في المرضى والزمنى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأحسن ما كانوا يعملونه. ويقال يكتب ثواب أعمالهم بعد الهرم أو الموت إلى يوم القيامة غير منقوض. وقيل: لا يمنون بذلك الأجر. {قُلْ} يا أشرف الخلق: {أَءِنَّكُمْ} يا أهل مكة {لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلاٰرْضَ فِى يَوْمَيْنِ} أي لتكفرون بالعظيم الشأن الذي حكم بأن الأرض ستوجد في مقدار يومين، {وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً}. أي نظراء والحال أنه لا يمكن له نظير واحد، أي أن الإله الموصوف بالقدرة على خلق هذه الأشياء العظيمة في هذه المدة الصغيرة كيف يليق بالعقل جعل الخشب المنجور والحجر المنحوت شريكاً له في المعبودية {ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ} أي ذلك العظيم الشأن الذي

علمت من صفته أنه خالق جميع الموجودات فكيف أثبتم لـه أنـداد من الخشب والحجـر؟ {وَجَعَـلَ فِيهَـا رَوَاسِـىَ} وهـو عطـف علـى «خلق الأرض»، أي وخلق في الأرض جبالاً ثـوابت {مِـن فَوْقِهَـا}، أي كائنة من فوق الأرض ليرى الإنسـان بعينـه وليتفكـر أن الجبـال أثقال، على أثقال وكلها مفتقـرة إلـى ممسـك، وحـافظ، ومـا ذاك الحافظ المدبر إلاّ الله تعالى، ولـو جعـل فـي الأرض رواسـي مـن تحتها لأوهم ذلك أن تلك الأساطين التحتانية هي التي أمسكت هذه الأرض الثقيلة عن النزول، {وَبٰرَكَ فِيهَا} أي الأرض بشـق الأنهـار، وخلق الأشجار والثمار، وأصناف الحيوانات، وكل ما يحتاج إليه من الخيرات، {وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوٰتَهَا} أي بأن يوجد لأهل الأرض من الأنواع المختلفة أقواتها المناسبة لها على مقدار معيـن تقتضـيه الحكمـة. وقرىء «وقسم فيها أقواتها». {فِى أَرْبَعَـةِ أَيَّـامٍ} أي مـع اليـومين الأولين الذين خلق فيهما الأرض {سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ}.

قرىء «سواء» بالحركات الثلاثة: النصب: على مصدر مؤكد لمضمر، هو صـفة لأربعـة: أي اسـتوت الأربعـة اسـتواء لا يزيـد ولا ينقـص. والجـر: علـى الوصـف، أي مسـاويات غيـر مختلفـة فـي المقادير. والرفع: على تقـدير هـي سـواء، ولمـن قـرأه بـالرفع أن يقف على أربعة أيام. وقـوله تعـالى: {لِّلسَّـائِلِينَ} إمـا متعلـق ب «سواء» أي مستويات لمن سأل الرزق، ولمن لم يسأل، أو متعلق بقدر كما قاله الزجاج أي وقدر فيها أقواتها في تتمـة أربعـة أيـام، لأجـل الطـالبين للأقـوات المحتـاجين إليهـا، أو متعلـق بمحـذوف والتقدير: هذا الحصر بيـان للسـائلين عـن مـدة خلـق الأرض، ومـا فيهـا. فـي كـم يـوم خلقـت الأرض ومـا فيهـا {ثُـمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَـى ٱلسَّمَآءِ}، أي ثم قصد إلى خلق السماء، أي ثم دعاه داعي الحكمة إلى خـالق السـماء بعـد خلـق الأرض، ومـا فيهـا مـن غيـر صـارف يصرفه عن ذلك، {وَهِىَ دُخَانٌ} أي أمر ظلمـاني، أو دخـان مرتفـع من الماء. {فَقَالَ لَهَا} أي للسماء {وَلِلأَرْضِ ٱئْتِيَـا} إلـى الوجـود والحصول أي كوننا على وجه معين، وفي وقت مقدر لكـل منكمـا. وهذا عبارة عن تعلق إرادته تعالى بوجودهما تعلقاً فعليـاً، {طَوْعـاً أَوْ كَرْهاً} أي طائعتين أو كارهتين، أي شئتما ذلك أو أبيتمـا. {قَالَتَـآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ} أي أتينا أمرك منقادين لا علـى الكـره. وهـذا تمثيـل لكمال تأثرهما بالذات العلية عن القدرة الربانية.

وقرأ ابن عباس وابن جبير ومجاهد «آتياً قالتا آتينا». بالمد في الفعلين، أي وافقا على مرادي منكما. قالتا: توافقنـا علـى ذلـك أو أعطيا الطاعة من أنفسكما مـن أمركمـا. قالتـا: أعطينـا الطاعـة. ويقـال: إن اللـه تعـالى قـال للسـماء والأرض بعـدما فـرغ منهمـا:

أعطيا ما فيكما أو جيئا بما خلقت فيكما من المنافع والمصالح وأخرجاها لخلقي. أي قال لهما: افعلا ما أمرتكما طوعاً وإلاّ ألجأتكما إلى ذلك حتى تفعلاه، {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوٰتٍ فِى يَوْمَيْنِ}، أي أتم السماء حال كونها سبع سمٰوات في يومين. ذكر أهل الاثر أن الله تعالى خلق الأرض في يوم الأحد والإثنين. وخلق سائر ما في الأرض في يوم الثلاثاء والأربعاء، وخلق السموات وما فيها في يوم الخميس والجمعة، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة، فخلق فيها آدم، وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة، وأن الذي خلق أولاً هو الدخان الذي هو أصل السماء، ثم بعده الأرض، غير مدحوة، ثم خلقت السماء مبسوطة متفاصلة طباقاً بعضها فوق بعض، ثم دحيت الأرض، وخلق ما فيها من الأرزاق وغيرها. {وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا}.

قال مقاتل: أمر في كل سماء بما أراد. وقال قتادة والسدي: خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها. وقال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهم: خلق في كل سماء ما فيها من البحار وجبال البرد، وما لا يعلمه إلا الله تعالى ويقال: ولله تعالى على أهل كل سماء تكليف خاص، فمن الملائكة من هو في القيام من أول خلق العالم إلى قيام القيامة، ومنهم ركوع لا ينتصبون، ومنهم سجود لا يرفعون، وذلك الأمر مختص بأهل السماء. {وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصٰبِيحَ} وهي النبرات التي خلقها في السمٰوات وخصَّ كل واحد بضوء معين، وطبيعة معينة، وسر معين، لا يعلمها إلاّ الله تعالى {وَحِفْظاً} أي وحفظناها من الشياطين الذين يسترقون السمع.

وقيل: إن «حفظاً» مفعول له على المعنى كأنه قيل: وخلقنا المصابيح زينة وحفظاً، فبعض النجوم زينة السماء لا يتحرك وبعضها يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وبعضها رجوم للشياطين. {ذَٰلِكَ} أي هذه التفاصيل {تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ} لأنها لا تمكن إلاّ بقدرة كاملة وعلم محيط،

{فَإِنْ أَعْرَضُواْ} عن قبول هذه الحجة القاهرة وأصروا على التقليد، {فَقُلْ} لهم: {أَنذَرْتُكُمْ صٰعِقَةً} أي خوفتكم عذاباً هائلاً، كأنه نار معها رعد شديد {مِّثْلَ صٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ}.

وقرأ ابن الزبير، والنخعي، والسلمي، وابن محيصن: «صعقة» مثل صعقة عاد وثمود، وهي المرة من صيحة العذاب.

روي أن أبا جهل قال في ملأ من قريش: التبس علينا أمر محمد فلو التمستم لنا رجلاً عالماً بالشعر والسحر والكهانة فكلمه، ثم أتانا ببيان عن أمره، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والسحر والكهانة، وعلمت من ذلك علماً وما يخفى

علي، فأتاه، فقال: يا محمد أنت خيراً أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب أنت خير أم عبد الله؟ فلم تشتم آلهتنا وتضللنا، فإن كنت تريد الرئاسة عقدنا اللواء، فكنت رئيسنا وإن كنت أردت الباه زوجناك عشر نسوة تختارهن من أي بنات قريش شئت، وإن كنت تريد المال جمعنا لك ما تستغني به، ورسول الله ساكت، فلما فرغ عتبة قال صلى الله عليه وسلم: «{بِسْمِ اللَّـهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ حم. تَنزِيلٌ مّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ} إلى قوله تعالى: {صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ}» فأمسك عتبة على فيه صلى الله عليه وسلم وناشده بالرحم ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش، فلما احتبس عنهم قالوا: لا نرى عتبة إلاّ قد صبأ فانطلقوا إليه وقالوا: يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت، فغضب عتبة، وأقسم لا يكلم محمداً أبداً وقال: والله لقد كلمته فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا سحر، ولا كهانة، ولما بلغ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته بالرحم، ولقد علمت أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب، وإنما خص هاتين القبيلتين، لأن قريشاً كانوا يمرون على بلادهم، {إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ} حال من صاعقة عاد، أو ظرف منها منصوب بها، لأنها بمعنى عذاب، فالمعنى صعقة عاد وثمود وقت مجيء رسلهم إليهم {مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ} أي أتوهم من جميع جوانبهم، وأتوهم بجميع وجوه الحيل، فلم يروا منهم إلاّ الأعراض، أي جاءتهم الرسل من قبلهم، ومن بعدهم، أي جاءهم هود وصالح داعيين لهم إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل، فكأن جميع الرسل قد جاءوهم وخاطبوهم بقوله تعالى: {أَلاَّ تَعْبُدُوۤاْ إِلاَّ ٱللَّـهَ} ف «أن» مفسرة بمعنى أي، أو مخففة من الثقيلة، أي بأنه لا تعبدوا أي بأن الحديث قولهم لهم لا تعبدوا إلاّ الله، «أو» مصدرية، والجملة بعدها صلتها وصلت بالنهي، كما توصل بالأمر، أي جاءوهم بكونهم نهوهم عن الشرك، ويجوز «أن» تكون أن نافية على هذا الوجه أي جاءوهم بأمرهم بالتوحيد ونفي الشرك. {قَالُواْ} أي عاد وثمود مخاطبين لهود وصالح: {لَوْ شَآءَ رَبُّنَا} أي إرسال الرسل إلى البشر، {لأَنزَلَ مَلَٰئِكَةً} أي لأرسلهم بطريق الإنزال {فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَٰفِرُونَ} أي فإذا أنتم بشر ولستم بملائكة، فأنتم لستم برسل، وإذا لم تكونوا من الرسل لم يلزمنا قبول قولكم، وقوله تعالى {بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ} حكاية لكلامهم على سبيل الاستهزاء كما قال فرعون: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون. {فَأَمَّا عَادٌ فَ ٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ} أي فأما قوم هود فتعظموا في الأرض على أهلها بغير استحقاق للتعظم. {وَقَالُواْ} لهود لما

هددهم بالعذاب: {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً}؟ أي نحن نقدر على دفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا ذلك لأن أطولهم كما قال ابن عباس كان مائة ذراع، وأقصرهم كان ستين ذراعاً. فقال الله تعالى رداً عليهم: {أَوَلَمْ يَرَوْاْ} أي ألم ينظروا ولم يعلموا علماً جلياً {أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً} أي قدرة يقدر على إهلاكهم {وَكَانُواْ بِأَايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ} أي إنهم كانوا يعرفون أن الآيات المنزلة على الرسل حق، ولكنهم أنكروها كما ينكر المودع الوديعة، {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً} أي بارداً شديداً، يحرق ببرده كما تحرق النار بحرها، أو ريحاً يصوت في هبوبه.

وعن ابن عباس: أن الله تعالى ما أرسل على عاد من الريح إلا قدر خاتمي والمراد. أنه مع قلته أهلك الكل وذلك دليل على كمال قدرته تعالى {فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ} أي مشؤومات. روي أن الأيام كانت آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء. قال ابن عباس: وما عذب قوم إلاّ في يوم الأربعاء.

وقرأ نافع ابن كثير وأبو عمرو «نحسات» بسكون الحاء. والباقون بكسرها {لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا} بسبب أنهم استكبروا فقابل الله ذلك الاستكبار بإيصال الذل إليهم. وقرىء «لتذيقهم» بالتاء على إسناد الإذاقة إلى الريح أو إلى الأيام {وَلَعَذَابُ ٱلاٰخِرَةِ أَخْزَىٰ} أي أشد إهانة مما كان لهم في الدنيا {وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ} يدفع العذاب عنهم، {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ}، أي وأما قوم صالح فبيَّنا لهم طريق الخير والشر، فاختاروا الدخول في الضلالة على الدخول في الرشد.

وقرأ الجمهور برفع «ثمود» ممنوعاً من الصرف. وقرىء بالنصب بفعل يفسره ما بعده، وقرأه الأعمش وابن وثاب منوناً في الحالين والرفع أفصح لوقوع ثمود بعد حرف الابتداء. وقرىء «ثمود» بضم الثاء، {فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ} أي داهية العذاب الذي يهينهم بشدته، {بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} من اختيار الضلالة، وهي شركهم وتكذيبهم صالحاً وعقرهم الناقة، {وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} من الفريقين {وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} الأعمال التي أتى بها قوم عاد وثمود،

{وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ}، أي واذكر يا أشرف الخلق لقريش المعاندين لك حال الكفار في القيامة يوم يجمع بكره الكفار الأولون والآخرون إلى موقف الحساب والتعبير عنه بالنار الإعلام بأنها آخر حشرهم، أو لأن حسابهم يكون على شفيرها ويحشر بالبناء للمفعول وأعداء بالرفع على قراءة الجمهور.

وقرأ نافع «نحشر» بنون العظمة وضم الشين ونصب أعداء. وقرىء «ويحشر» بالبناء للفاعل ونصب أعداء. وقرىء بكسر الشين مع البناء للفاعل في الحالين، {فَهُمْ يُوزَعُونَ} أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا، {حَتَّىٰ إِذَا مَا جَآءُوهَا} أي حتى إذا حضروا موقف الحساب، {شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} في الدنيا من فنون الكفر والمعاصي، بأن ينطقها الله تعالى كإنطاق اللسان فتشهد. وقال ابن عباس: المراد من شهادة الجلود شهادة الفروج. {وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ} أي لأعضائهم أو لفروجهم {لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا} وكنا نحابس عنكم بالجدال.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أول من يتكلم من الآدمي فخذه وكفه». اه. وذلك لأن مقدمة الزنا إنما تحصل بالكف ونهاية الأمر إنما تحصل بالفخذ {قَالُواْ} أي الجلود: {أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، أي أنطقنا الله الذي أنطق كل ناطق، وأقدرنا على بيان الواقع فشهدنا عليكم بما عملتم بواسطتنا من القبائح، وما كتمناها، فإن القادر على إنشائكم وإنطاقكم في المرة الأولى حال ما كنتم في الدنيا وعلى إعادتكم بعد الموت أحياء قادر على إنطاقكم في المرة الثانية وهي حال القيامة فكيف يستبعد منه إنطاق الأعضاء؟ {وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصٰرُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ}، أي وما كنتم تستترون بنحو الحيطان في الدنيا عند الإقدام على الأفعال القبيحة مخافة أن تشهد عليكم جوارحكم بذلك، لأنكم غير عالمين بشهادتهم عليكم، ولأنكم منكرون للبعث والجزاء، ولكن استتاركم لأجل أنكم ظننتم أن الله لا يعلم الأعمال التي أقدمتم عليها من القبائح المخيفة فلا يظهرها في الآخرة، ولذلك اجترأتم على ما فعلتم؛ {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ}، فاسم الإشارة مبتدأ «وظنكم» خبر، والموصول نعت أو بدل و «أرداكم» حال، أي ذلكم الظن المذكور ظنكم الذي ظننتم بربكم مهلكاً إياكم، ويجوز أن يكون ظنكم والموصول وجملة «أرداكم» إخباراً {فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ}، أي فصرتم بسبب ذلك الظن المردي من الهالكين بالعقوبة. قال أهل التحقيق: الظن قسمان: حسن، وفاسد.

فالظن الحسن: أن يظن بالله تعالى الرحمة والفضل والإحسان قال صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي».

والظن الفاسد: أن يظن أن الله تعالى يعزب عن علمه بعض هذه الأحوال. وقال قتادة: الظن نوعان: ظن منجٍ، وظن مردٍ. فالمنجي: هو المحكي بقوله تعالى: {إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ} (الحاقة: 02)والمردي هو المحكي بقوله تعالى: {ذَٰلِكُمْ. ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ}. {فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ}، أي فإن أمسكوا عن الاستغاثة لأجل فرج ينتظرونه لم يجدوا ذلك الفرج وتكون النار محل إقامة أبدية لهم، {وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ} أي وإن طلبوا الرجوع إلى ما يحبونه جزعاً مما هم فيه لم يعطوه ولم يجابوا إليه.

وقرىء و«إن يستعتبوا» بصيغة المفعول، «فما هم من المعتبين» بصيغة اسم الفاعل، أي وإن يطلبوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون، إذ لا سبيل لهم إلى ذلك، {وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ} أي بعثنا لهم شركاء من الشياطين يلازمونهم، {فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} أي فزينوا لهم أمر الآخرة بأن لا بعث ولا حساب ولا جنة، ولا نار، وأمر الدنيا بأنها قديمة باقية لا تفنى، ولا صانع إلاّ الطبائع والأفلاك. ويقال: فزينوا لهم ما مضى من أعمالهم الخبيثة، وما تبقى من أعمالهم الخسيسة، وهو ما يزعمون أنهم يعملونه. {وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىۤ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ} أي وثبت عليهم كلمة العذاب حال كونهم كائنين في جملة أمم من المتقدمين من الجن والإنس، لأنهم كانوا هالكين بالعقوبة.

{وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} أي كفار مكة أبو جهل وأصحابه عند قراءة النبي صلى الله عليه وسلم: {لاَ تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ} لأنه مقلب القلوب، وكل من استمع له صبا إليه، {وَ ٱلْغَوْاْ فِيهِ} أي تشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والأشعار الفاسدة، والكلمات الباطلة حتى تخلطوا على القارىء، {لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} أي لكي تغلبوا محمداً على قراءته فيسكت، فهددهم الله بالعذاب الشديد بقوله: {فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَاباً شَدِيداً} في الدنيا بالحرمان وفنون الهوان، {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ} في الآخرة {أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ} أي سيئات أعمالهم بحسب تفاوت السيئات في الإثم، ولا يجازيهم على محاسن أعمالهم كإغاثة الملهوفين وصلة الأرحام وقري الأضياف، لأنها محبطة بالكفر، وفي هذا تهديد شديد لمن يصدر عنه عند سماعه ما يشوش على القارىء، ويخلط عليه القراءة، وتعريض بمن لا يكون عند كلام الله خاضعاً خاشعاً. {ذَٰلِكَ} أي جزاء أقبح أعمالهم {جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ} أي جزاء معدلهم {ٱلنَّارُ} عطف بيان {لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ} أي لهم في

دركات النار دار معينة، وهي دار العذاب المخلد لهم، {جَزَآءً بِمَا كَانُوا بِاٰيٰتِنَا يَجْحَدُون} و «جزاء» منصوب ب «جزاء»، فإن المصدر ينصب بمثله أي بسبب ما كانوا يلغون في قراءة آياتنا وإنما سمي اللغو جحوداً، لأنهم علموا أن القرآن بالغ إلى حد الإعجاز خافوا من أنه لو سمعه الناس لآمنوا به. فاستخرجوا تلك الطريقة الفاسدة. {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ} وهم متقلبون في عذاب النار: {رَبَّنَآ أَرِنَا ٱللَّذَيْنِ أَضَلَّنَا} عن الحق {مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنسِ} أي الشياطين ورؤساء الإنس.

وقال علي بن أبي طالب: أي من إبليس وقابيل، لأن الكفر سنة إبليس والقتل بغير حق سنة قابيل.

وقرأ ابن كثير والسوسي، وابن عامر، وشعبة بسكون الراء من «أرنا»، أي إعطناهما، واختلس الدوري كسر الراء، وشدد ابن كثير النون من الذين {نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا}، أي ندوسهما ليكونا وقاية بيننا وبين النار، فتخف عنا حرارتها نوع خفة، {لِيَكُونَا مِنَ ٱلأَسْفَلِينَ} أي ليكونا ممن هو أذل منا مكاناً، وأشد منا عذاباً كما جعلانا في الدنيا تحت أمرهما، {إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ} قولاً مقروناً باليقين التام والمعرفة الحقيقية، {ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ} أي ثبتوا على الأعمال الصالحة، {تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰئِكَةُ} عند الموت في القبر وعند البعث بالبشرى: {أَلاَّ تَخَافُواْ} و «أن» مفسرة، أو مخففة من الثقيلة، و «لا» ناهية، أي بأنه لا تخافوا على ما أمامكم، أو مصدرية و «لا» إما ناهية، أو نافية. وقرىء «لا تخافوا» على أنه حال من الملائكة، أي يقولون: لا تخافوا {وَلاَ تَحْزَنُواْ} على ما تركتم من خلفكم، فالله تعالى أخبر أن الملائكة يخبرون في أول الأمر بأنه لا خوف عليكم بسبب ما تستقبلونه من أحوال القيامة، ثم يخبرون بأنه لا حزن عليكم بسبب ما فاتكم من أحوال الدنيا فإن المستقبل في كل ساعة يصير أقرب حصولاً والماضي في كل حالة أبعد حصولاً، ولهذا قال الشاعر: فلا زال ما نهواه أقرب من غد ولا زال ما نخشاه أبعد من أمس وعند حصول هذين الأمرين فقد زالت المضار والمتاعب بالكلية، ثم بعد الفراغ من ذلك الإخبار، يبشرون بحصول المنافع، لأن دفع المضرة أولى بالرعاية من جلب المصلحة. وذلك قوله تعالى: {وَأَبْشِرُواْ} أي املأوا صدوركم سروراً، {بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ} في الدنيا على ألسنة الرسل، {نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلآخِرَةِ} أي نحن أقرباء الأقرباء إليكم فنوقظكم من المنام، ونحملكم على الصلاة والصيام، ونبعدكم عن الآثام في الحياة الدنيا، وندفع عنكم المضرات، ونجلب لكم المسرات في الآخرة

بالشفاعة حيث يتعادى الكفرة وقرناؤهم، {وَلَكُمْ فِيهَا} أي الآخرة {مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ} من اللذائذ، لأنكم منعتموها في الدنيا من الشهوات، {وَلَكُمْ فِيهَا} أي الآخرة {مَا تَدَّعُونَ} أي تطلبون، {نُزُلاً} حال من «ما تدعون»، أي حال كون هذا رزقاً مهيأ كما يهيأ للضيف مستقراً لكم {مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ}.

قال العارفون: هذه الآية تدل على أن هذه الأشياء جارية مجرى المهيأ للضيف، والكريم جل وعلا إذا أعطى النزل فلا بد وأن يبعث الخلع النفيسة بعدها، وتلك الخلع ليست إلا السعادات الحاصلة عند رؤيته تعالى، {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ} أي لا أحد أحسن من جهة القول ممن دعا إلى الطاعة الله {وَعَمِلَ صَٰلِحاً}، أي والحال أنه قد عمل صالحاً في نفسه، وللدعوة إلى الله مراتب:

الأولى: دعوة الأنبياء بالمعجزات وبالحجج وبالسيف.

والثانية: دعوة العلماء إلى الله تعالى بالبراهين، فهم نواب الأنبياء في العلم، أما الملوك فهم نواب الأنبياء في القدرة.

الثالثة: دعوة المجاهدين إلى الله تعالى بالسيف.

الرابعة: دعوة المؤذنين إلى الصلاة فهم دعاة إلى طاعة الله تعالى. {وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ} أي ابتهاجاً بأنه منهم فيكون هذا الرجل موصوفاً بخصال أربعة:

الأولى: الإقرار باللسان، وهو الدعوة إلى الله بإقامة الدلائل اليقينية.

والثانية: الأعمال الصالحة بالجوارح.

والثالثة: الاعتقاد الحق بالقلب وهاتان داخلتان في قوله تعالى: {وَعَمِلَ صَٰلِحاً}.

والرابعة: الاشتغال بإقامة الحجة على دين الله تعالى والموصوف بهذه الخصال الأربعة أفضل الناس وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وقرأ ابن أبي عبلة «إني» بنون واحدة. {وَلاَ تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلاَ ٱلسَّيِّئَةُ} أي لا تستوي الدعوة إلى دين الحق والصبر على جهالة الكفار، ولا قولهم: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، ولا تسمعوا لهذا القرآن. { ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ} أي ادفع جهالتهم بالطريق التي هي أحسن الطرق، {فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}. و «إذا» التي هي للمفاجأة ظرف مكان لمعنى التشبيه والموصول مبتدأ، والجملة بعد خبره، و «إذا» معمولة لمعنى التشبيه، والظرف يتقدم على عامله المعنوي أي فالذي بينك وبينه عداوة مشبه في المحبة للصديق في الدين، القريب

في النسب الذي لم تسبق منه عداوة إذا صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد أخرى، والمعنى: فإذا قابلت أفعال أعدائك القبيحة بالأفعال الحسنة ولم تقابل سفاهتهم بالغضب والإيحاش استحيوا من تلك الأخلاق المذمومة وتركوا تلك الأفعال القبيحة، وانقلبوا من العداوة إلى المحبة. قيل: نزلت هذه الآية في أبي سفيان بن حرب وكان عدواً مؤذياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وصار ولياً مصافياً له صلى الله عليه وسلم: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ} أي وما يعطى هذه الخصلة التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان إلاَّ الذين شأنهم الصبر على تحمل المكاره، وتجرع الشدائد، {وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} أي وما يوفق على هذه الفعلة أي التي هي دفع السيئة بالحسنة إلاَّ ذو حظ عظيم من ثواب الآخرة أو من الخلق الحسن. {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ} أي وإن يوسوس لك الشيطان بترك ما أمرت به، بأن صرفك صارف عما شرعت من الدفع بالتي هي أحسن فاستجر بالله من شره يدفعه عنك، {إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ} لقولك وأفعالك.

{وَمِنْ ءَايَٰتِهِ} الدالة على وجود الله وقدرته { ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَ ٱلْقَمَرُ} كل منها مخلوق له تعالى، مسخر لأمره تعالى، {لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ} لأنهما عبدان مخلوقان مثلكم {وَ ٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ} أي الأربعة {إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} أي إن كنتم تريدون بعبادة الشمس والقمر عبادة الله فلا تعبدوهما فإن عبادة الله في ترك عبادتهما فإن الذين يعبدونهما يقولون: نحن أذل من أن يحصل لنا أهلية عبودية الله تعالى، ولكنا عبيد للشمس والقمر وهما عبدان له. {فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ} أي فإن استكبروا عن قبول قولك يا محمد في النهي عن السجود للشمس والقمر، فدعهم وشأنهم فإن لله عباداً يعبدونه من الملائكة، أي والله لا يعدم عابداً له أبداً بل يكون من خلقه من يعبده على الدوام. {وَهُمْ لاَ يَسْأمُونَ} أي لا يملّون عن عبادة الله تعالى ولا يفترون وموضع السجود عند قوله تعالى: {إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}. وهو قول ابن مسعود والحسن حكاه الرافعي عن أبي حنيفة، وأحمد لذكر السجود قبيله، وعند قوله تعالى: {لاَ يَسْئَمُونَ} وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب، وقتادة وحكاه الزمخشري عن أبي حنيفة، لأن الكلام إنما يتم عنده، وعند الشافعي عند قوله تعالى: {إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} لكن قال الشربيني والصحيح عند الشافعي عند قوله تعالى: {لاَ يَسْئَمُونَ}، {وَمِنْ ءَايَٰتِهِ} الدالة على قدرته تعالى

ووحـدانيته. {أَنَّـكَ} أيهـا الإنسـان {تَـرَى ٱلأَرْضَ خَٰشِـعَةً} أي منكسرة ميتة {فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ} أي تحركت بالنبات {وَرَبَتْ} أي انفتحت، ثم تصدعت عن النبات. وقرىء «ربأت» أي ارتفعت، {إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَٰهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ} أي إن القادر على احيـاء الأرض بعد موتها هو القادر على إحياء هذه الأجساد بعد موتها {إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ} أي أنه تعالى قادر علـى الممكنـات، فـوجب أن يكون قادراً على إعادة التركيب والحياة والقـدرة والعقـل إلـى تلك الأجزاء المتفرقة، {إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا} أي يميلـون عن الحق في أدلتنا {لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ} في وقت من الأوقات.

وقرأ حمزة بفتح الياء والحاء. {أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِناً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ} أي الذين يميلون عن الاستقامة فـي آياتنـا بالطعن والتأويل الباطل، فيقلون في النار خيـر أم الـذين يؤمنـون بآياتنا فيأتون آمنين من العـذاب يـوم القيامـة؟ {ٱعْمَلُواْ} يـا أهـل مكة {مَا شِئْتُمْ} من الأعمال المؤدية إلى الإلقاء في النار والإتيـان آمناً، {إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} فيجـازيكم بحسـب أعمـالكم وفـي ذلك تهديد {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ} أي بـالقرآن {لَمَّـا جَآءَهُمْ} لهم في الآخرة نار جهنم أو يجـازون بكفرهـم، {وَإِنَّـهُ} أي القـرآن {لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ} أي غالب عديم النظير، لأنه بقوة حجته غلـب علـى كل ما سواه، ولأن الأولين والآخرين عجزوا عن معارضته {لاَّ يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِـهِ} أي لا تكـذبه الكتـب المتقدمـة عليه كالتوراة والإنجيل والزبور، وسائر الكتب. ولا يجيء كتاب من بعده يكذبه، {تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ} في أمره {حَمِيدٍ} في أفعاله {مَّـا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ}، أي مـا يقـول لـك كفـار قومك إلا مثل ما قد قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن في الكتب المنزلة، {إِنَّ رَبَّكَ لَـذُو مَغْفِـرَةٍ} للمحقيـن، {وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ} للمبطلين، ففوض هـذا الأمـر إلـى اللـه تعـالى، واشتغل بما أمرت به وهو التبليغ والدعوة إلـى اللـه تعـالى {وَلَـوْ جَعَلْنَٰـهُ} أي هـذا الـذكر {قُرْءَانـاً أَعْجَمِيّـاً لَّقَـالُواْ} أي كفـار مكـة: {لَوْلاَ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُ} أي لولا بيّنت آياته بلسان نفهمـه؟ {ءَاعْجَمِـىٌّ وَعَرَبِىٌّ} أي أكلام أعجمي ورسول أو مرسل إليه عربي. والمعنى: أنا لو أنزلنا هـذا القـرآن بلغـة العجـم لكـان لهـم أن يقولـوا: كيـف أرسلت الكلام العجمي إلى القوم العـرب، ويصـح لهـم أن يقولـوا: قلوبنا في أكنة تدعونا إليه، أي من هذا الكلام.

وفي آذاننا وقر منه لا نفهمه، ولا نحيط بمعناه، ولما أنزلنا هذا الكتاب بلغة العرب وأنتم من أهل هذه اللغة فكيف يمكنكـم ادعـاء أن قلـوبكم فـي أكنـة منهـا، وفـي آذانكـم وقـر منهـا. وقرىـء

«أعجمي» على الإخبار بأن القرآن أعجمي، والمتكلم والمخاطب عربي، ويجوز أن يراد: هلا فصلت آياته فجعل بعضها أعجمياً لإفهام العجم وبعضها عربياً لإفهام العرب. {قُلْ هُوَ} أي القرآن {لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى}، لأنه دليل على الخيرات ويرشد إلى كل السعادات، {وَشِفَآءٌ} لأنه إذا أمكنهم الاهتداء فقد حصل لهم الهدى، فذلك الهدى شفاء لهم من مرض الكفر والجهل، {وَ لَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ}، أي والذين لا يؤمنون هو حال كونه كائناً في آذانهم صمم ف «وقر» خبر للضمير المقدر، والجملة خبر الموصول، وفي آذانهم متعلق بمحذوف، وقع حالاً من «وقر»، {وَهُوَ} أي القرآن {عَلَيْهِمْ عَمًى}.

قرأ الجمهور على صيغة المصدر. وقرأ ابن عباس «عم» على صيغة النعت. {أُوْلَئِكَ} الموصوفون بالصمم عن الحق والعمى عن الآيات الظاهرة {يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ}، أي هم مثل البهيمة التي لا تفهم الإنداء. وقيل: هم كمن ينادون من مكان بعيد لم يسمعوا، وإن سمعوا لم يفهموا. {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى لْكِتَـٰبَ} أي التوراة {فَ ٱخْتُلِفَ فِيهِ} فقبله بعضهم ورده الآخرون فكذلك آتيناك هذا الكتاب فقبله بعضهم، وهم أصحابك، ورده آخرون، وهم الذين يقولون: قلوبنا في أكنة ما تدعونا إليه، {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ} أي لولا عدة سبقت بتأخير العذاب في حق أمتك المكذبة إلى يوم القيامة {لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ}، أي بين المكذبين والمصدقين بالعذاب الواقع بالمكذبين في الدنيا، {وَإِنَّهُمْ} أي كفار قومك {لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ}،أي من كتابك {مُرِيبٍ}، أي موقع في شك ظاهر فلا ينبغي أن يستعظم استيحاشك من قولهم: قلوبنا في أكنة ما تدعونا إليه. {مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا}، أي خفف يا أكرم الرسل على نفسك إعراضهم فإنهم إن آمنوا فنفع إيمانهم يعود عليهم، وإن كفروا فضرر كفرهم يعود إليهم، {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ} وهو يوصل إلى كل أحد ما يليق بعلمه من الجزاء في يوم القيامة، {إِلَيْهِ} أي إلى ربك {يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ} أي لا يعلم وقت الساعة بعينه إلاّ الله، وكما أن هذا العلم ليس إلاّ عند الله فكذلك العلم بحدوث الحوادث المستقبلة في أوقاتها المعينة ليس إلا عند الله تعالى، ثم ذكر الله تعالى من أمثلة هذا الباب مثالين بقوله: {وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا} أي أوعيتها، {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلاَ تَضَعُ} حملها {إِلاَّ بِعِلْمِهِ} أي إلا ملابساً بعلمه المحيط، أما أصحاب الكشف فهو من إلهام الله تعالى، وأما أصحاب علم الرمل وعلم التعبير فلا يمكنهم الجزم

في شيء من المطالب ألبتة وإنما غايتهم ادعاء ظن ضعيف، وما نافية، ومن في ثمرات، وفي أنثى زائدة للاستغراق.

وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم «من ثمرات» بالجمع. والباقون «من ثمرة» بالإفراد. {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ} أي يوم ينادي الله المشركين {أَيْنَ شُرَكَآئِى} بحسب اعتقادكم؟ {قَالُوۤاْ} أي يقولون متبرئين من إثبات الشريك لله تعالى: {ءَاذَنَّاكَ} أي أخبرناك وأسمعناك {مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ} أي ليس أحد منا يشهد بأن لك شريكاً. {وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ} أي غابت عنهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها في الدنيا، ولا يبصرونها في ساعة التوبيخ، وظهر لهم عدم نفعها حالتئذٍ {وَظَنُّواْ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ}، أي أيقنوا أنه ليس لهم مهرب من النار.

{لاَّ يَسْأَمُ ٱلإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ}، أي من طلب السعة في أسباب المعيشة، {وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ} أي أصابته ضيقة فهو مبالغ في قطع الرجاء من فضل الله، ومن رحمته حتى تظهر آثاره في الأحوال الظاهرة. {وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ} أي الإنسان {رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ} أي من بعد شدة أصابته، {لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى}، أي هذه الخيرات إنما حصلت لي بسبب استحقاقي لما حصل عندي من الفضائل وأعمال القربة من الله، {وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً} أي أن الإنسان يكون شديد الرغبة في الدنيا عظيم النفرة عن الآخرة، فإذا آل الأمر إلى الآخرة يقول: وما أظن الساعة تقوم. {وَلَئِن رُّجِّعْتُ إِلَىٰ رَبِّى إِنَّ لِى عِندَهُ} أي في الآخرة {لَلْحُسْنَىٰ} أي للحالة الحسنى من الكرامة وقوله: {أَنَّ لِي} إلخ جواب القسم لسبقه الشرط، {فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ} أي فلنظهرن لهم أن الأمر على عكس ما تصوروه، {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} أي شديد {وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلإِنسَٰنِ أَعْرَضَ} عن التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله {وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ}، أي تباعد عن الشكر بكليته تعظماً، {وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ} أي أصابه فقر {فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ}، أي أقبل على دوام الدعاء، وأخذ في التضرع {قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ} أي قل لهم يا أشرف الخلق: أخبروني إن كان هذا القرآن من الله، ثم كفرتم به من أضل منكم، فإن حالكم في معاداة شديدة مع محمد صلى الله عليه وسلم، وإنكم كلما سمعتم هذا القرآن أعرضتم عنه وما تأملتم فيه، وبالغتم في النفرة عنه حتى قلتم قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر {سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ} أي سنرى أهل مكة علامات وحدانيتنا وقدرتنا في أطراف الأرض من

خراب مساكن الأمـم الماضـية، كعـاد وثمـود، وسـنريهم ذلـك فـي أنفسهم من الأمراض والمصائب وغير ذلك. {حَتَّىٰ يَتَبَيَّـنَ لَهُـمْ أَنَّـهُ ٱلْحَقُّ} أي أن هذا القرآن هو الحق المنزل من اللـه، {أَوَلَـمْ يَكْـفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ} و «بربك» فاعل، والباء مزيــدة، و «أنه» بدل منه، أي أوَلم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد، ولـم يغنهم أخباره للأمم الماضية {أَلاَ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ} أي إن أهل مكة في شك عظيـم مـن البعـث والقيامـة، {أَلاَ إِنَّـهُ بِكُـلِّ شَىْءٍ مُّحِيطُ} أي إن الله عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لهــا فيعلم بواطن هؤلاء الكفار وظواهرهم، ويجازي كل أحد على فعله بحسب ما يليق به، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.